تاريخ الدولتين

الموحّدية والحفصيّة

تأليف

الشيخ أبي عبد الله محمد بن إبراهيم اللؤلؤي

المعروف بالزركشي رحمه الله تعالى

اعتنى به وفهرسه

غسان داود الناصير





محمد بن إبراهيم اللؤلؤي

تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية

تاريخ الدولتين
الموحدية والحفصية

تاريخ الدولتين
الموحدية والحفصية

تأليف

الشيخ أبي عبد الله محمد بن إبراهيم اللؤلؤي
المعروف بالزركشي رحمه الله تعالى

ISBN 978-9933-543-21-1



دار العراب

للدراسات والنشر والترجمة

دمشق - سورية - حلبوني الجادة الرئيسية

هاتف: 00963112247432

00963112247333

011963112247444

فاكس: 00963112247922

جوال: 00963942247432

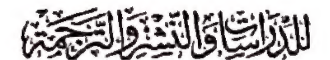
00963942247333

00963940455593

daralaraab@yahoo.com



دار نور حوران



دمشق - سورية - ص . ب 5658

هاتف: 0096315715430

0096315710957

فاكس: 00963157198425

جوال: 00963933329555

00963941329555

nourpublishing@gmail.com

تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية

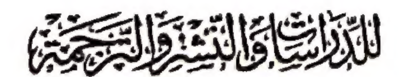
تأليف

الشيخ أبي عبد الله محمد بن إبراهيم اللؤلؤي

المعروف بالزركشي رحمه الله تعالى



دار العراب





دار نور حوران

بسم الله الرحمن الرحيم
وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

المقدمة

الحمد لله الذي جعل الأيام دولاً، وصيّر بعض الناس لبعض خولاً، وجعل الله في المطامع أملاً، لا يبغون عنها حولاً، وبعد فإن الإمام المهدي رحمه الله تعالى هو محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن هود بن خالد بن تمام بن عدنان بن شعبان بن صفوان بن جابر بن عطا بن رباح بن محمد بن سليمان بن عبد الله بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم، كذا نسبه الكاتب أبو عبد الله محمد بن نجيل في تاريخه.

وحكى ابن سعيد في بيان المعرب أن والد الإمام المهدي يقال له عبد الله وتومرت، وأمغار وأن الإمام ولد سنة إحدى وتسعين وأربعمئة.

وقال ابن خلكان: سنة أربع وثمانين وقال ابن الخطيب الأندلسي: سنة ست وثمانين وقال الغرناطي: سنة إحدى وسبعين وأربعمئة، وقرأ بقرطبة على القاضي ابن حمدون، ثم ارتحل إلى المهدية وأخذ عن الغمام المازري، ثم انتقل إلى الإسكندرية وهو ابن ثماني عشرة سنة وأخذ عن الإمام أبي بكر الطرطوشي، ثم انتقل على بغداد وأخذ عن الإمام الغزالي.

ولما وصل كتاب الأحياء إلى المغرب أشار من أشار على الملك المتولي على لتونة بتمزيقه فبلغ ذلك الغزالي فقال: اللهم مزّق ملكهم. فقال المهدي له: على يديّ يا سيدي. فقال: على يدك، فأكدت هذه الدعوة ما في علم المهدي من ذلك، فتوجه إلى المغرب بعد أن أقام بالمشرق خمسة أعوام وقبل بإفريقية سنة أربع عشرة وخمسمئة، ومرَّ بالمهدية تغير المنكر فيها، وذلك في ذمة علي بن يحيى بن تميم بن المعز الصنهاجي صاحبها وله بمدينة زويلة مسجد يعرف باسمه.

قال الشيخ أبو الحسن البطرني: رأيت شيخنا خليلاً المزدوري قال: رأيت الشيخ الصالح أبا عبد الله محمد الصقلي المدفون بمرناق إحدى قرى تونس، قال: اجتاز عليّ الإمام المهدي وأنا أسكن بزويلة فقال لي: يا شيخ الإمام أبو حامد يسلم عليك. قال البطرني: وبلغني أن الصقلي عاش ثلاثمئة سنة وثلاث عشرة سنة، ثم إن المهدي انتقل إلى تونس مدة بني خربسان الولاة عليها، ثم انتقل إلى بجاية وبها والي العزيز بن المنصور بن الناصر بن علناس بن حماد الصنهاجي، وكان يجلس على صخرة بقارعة الطريق قريباً من ديار ملالة وهي معروفة به إلى الآن.

وهناك لقي عبد المؤمن بن علي حاجاً مع عمه فأعجبه فعله وثنى عزمه عن سفره، وشمر للأخذ عنه فارتحل الإمام إلى المغرب وهو معه، ولحق بوانشريس وصحبه منها البربر جلة أصحابه، ثم لحق بتلمسان وقد تسامع الناس بخبره فرحل على فاس، ثم على مكناس ونهى فيها من المنكر، فأرجعه الأشرار ضرباً، فلحق بمراكش في منتصف ربيع الأول عام خمسة عشر وخمسمئة وأقام بها، ولقي أميرها علي بن يوسف اللمتوني بالمسجد الجامع في صلاة الجمعة، فوعظه وأغلظ له القول ففاوض الفقهاء في شأنه، وكانوا ملئوا منه رعباً وحسداً لما كان يتحمل مذهب الأشعريين في تأويل التشابه وينكر عليهم.

وأحضر للمناظرة بمحضر علي بن يوسف فكان له الظهور عليهم، فخرج وفر منهم من يومه فلحق باغمات وغيّر المنكر بها على عادته فأغرى به أهلها علي بن يوسف، فخرج هو وتلامذته ولحق بمسيعدة، ثم بهتانة ولقيه من أشيخهم الشيخ أبو حفص عمر بن يحيى الهنتاني.

ثم ارتحل الإمام عنهم إلى إيكين من بلاد مرغة فنزل على قومه وذلك كله في سنة خمس عشرة وخمسمئة، وبنى بها رابطة للعبادة واجتمع عليه الطلبة والقبائل فعلمهم التوحيد وكان قاضي مراكش مالك بن وهيب حذر منه الأمير علي بن يوسف؛ لأنه كان ينظر في النجوم وقال له: احتفظ على الدولة من الرجل، واجعل على رجاء كيلاً لئلا يسمعك طبلاً؛ لأنه أظنه صاحب الدرهم المربع، فبعث علي بن يوسف الخيل في طلبه ففاقهم، وداخل عامل السوس

وهو أبو بكر بن محمد اللمتوني بعض أهل مرغة في قتله ونذرهم إخوانهم، فنقلوه إلى معقل امتناعهم وقالوا: من داخل في قتله.

ثم دعوا المصامدة إلى بيته على التوحيد وقتال المجسمين فبويع يوم الجمعة الرابع عشر من شهر رمضان من سنة خمس عشرة، فأول من بايعه أصحابه العشرة تحت شجرة خرنوب؛ وهم عبد المؤمن بن علي والشيخ أبو علي عمر الصنهاجي والشيخ أبو حفص عمر الهنتاني، وإسماعيل بن مخلوف وإبراهيم بن إسماعيل الهرغي وإسماعيل بن موسى، وابن يحيى بن مكيث ومحمد بن سليمان وأبو محمد عبد الله بن ملوتات، وأبو محمد عبد الله بن عبد الواحد المكنى بالبشير.

ثم بايعه من هنتانة يوسف بن دانودين وبان يعمور وابن ياسين ومن ينتمي إلى عمر بن تافراجين وجميع قبيلة مرخة، ثم دخل معهم وأكرموه وكنفوه، ولما كملت بيعته لقبوه بالمهدي، وكان لقبه قبل الإمام.

وانتقل بعد بيعته بثلاث سنين إلى جبل تينمل فأوطنه وبنى داره ومسجده بينهم، وحوالي منبع وادي نفيس، وقاتل من تخلف عن بيعته من المصامدة حتى استقاموا، ثم عزم على غزو لمتونة فجمع سائر أهل دعوته من المصامدة وزحف إليهم، والتقى بهم فهزمهم واتبعهم الموحدون إلى أغمات فلقيتهم هنالك جيوش لمتونة مع بكر بن علي بن يوسف وإبراهيم بن تاعباست، فهزمهم الموحدون واتبعوهم إلى مراكش فنزلوا البحيرة في زهاء أربعين ألفاً كلهم رجالة ما بهم إلا أربعون فارساً، وقيل أربعمئة وذلك في سنة أربع وعشرين، فأقاموا عليها نحو أربعين يوماً محاصرين لها أشد الحصار، فجمع علي بن يوسف الناس وبرز إليهم من باب إيان فهزمهم وأثخن فيهم قتلاً وسبياً، وفقد البشير من أصحاب المهدي وأبلى في ذلك اليوم عبد المؤمن بن علي بلاء حسناً.

ثم رحل المهدي عن مراكش وتوفي لأربعة أشهر بعدها في ليلة الأربعاء لثلاث عشرة خلون من شهر رمضان المعظم سنة أربع وعشرين المذكورة، هكذا حكاه ابن نجيل في تاريخه

فكانت مدته من حين بويع تسع سنين، وحكى ابن خلدون أن المهدي توفي سنة تسعين وعشرين وخمسمئة، والله أعلم.

قال: وكان حصوراً لا يأتي النساء، وكان يلبس العباءة المرقعة وله قدم في التقشف والعبادة، ولم تحفظ عنه فلتة في البدعة إلا ما كان من وفاقه للإمامية من الشيعة في القول بالإمام المعصوم، ودفن بمسجده الملاصق لداره من تينمل، وكتم أصحابه موته وبايعوا منهم بعده الشيخ أبا علي عمر الصنهاجي عرف الصناكي، ثم قال لهم بعد أيام: هذا هو الذي عهد عليه الإمام، يعني عبد المؤمن بن علي، فبويع وملك كثيراً من بلاد المغرب، وقام بأمر الموحدين وأنفذ الغزاة، وأجمع على غزو بلاد المغرب فغزا غزوته الطويلة من سنة أربع وثلاثين إلى سنة إحدى وأربعين، خرج إليها من تينمل وخرج تاشفين بن علي بن يوسف بن تاشفين صاحب مراكش والناس يفرون منه إلى عبد المؤمن واشتعلت نار الفتنة، وامتنع الرعايا من الغرم.

وتوفي في خلال ذلك علي بابن يوسف صاحب مراكش في ثالث رجب سنة سبع وثلاثين، وهو الذي أحدث مراكش في سنة عشرين وخمسمئة وأدار سورها وبنى سقايتها وجامعها وقصر إمارتها، وجعل دورها سبعة أميال، وكانت قبل ذلك شعراء يسكنها البربر، فاشتراها أبوه يوسف بن تاشفين منهم بسبعين درهماً وبنى فيها مسجداً بالطوب، أمر البربر بسكنها فعملوا فيها خوصاً وسكنوها إلى زمن بنائها، وزحف عبد المؤمن بمن معه من تلمسان إلى وهران ففجأ لمتونة بعسكره فقهرهم، ونجا تاشفين إلى رابطة هناك واختفى فيها حتى جنّ الليل، ثم خرج منها، وما زال فاراً حتى تردى عن فرسه من بعض حافات الجبل فهلك لسبع وعشرين خلون من شهر رمضان سنة تسع وثلاثين.

وبعث عبد المؤمن برأسه إلى تينمل ولجأ العسكر إلى وهران فانحصروا مع أهلها حتى جهدهم العطش، فنزلوا جميعاً على حكم عبد المؤمن يوم الفطر من تلك السنة فأمر بتخريب بلدهم وهدمها، ثم بعث لفتح تلمسان وزحف على فاس فأتته بها بيعة أهل سبتة فولّى عليهم يوسف بن مخلوف الهتناتي ومر بسبلا ففتحها، ثم وصل إلى مراكش فحاصرها تسعة أشهر

وأميرها إسحق بن علي بن يوسف بويع صبياً صغيراً عند بلوغ خبر أخيه، وبعد طول الحصار جهدهم الجوع فبرزوا إلى مدافعة الموحدين فانهزموا، وتبعهم الموحدون ففتحوا عليهم المدينة أواخر شوال سنة إحدى وأربعين، ونجا إسحق بين يدي عبد المؤمن فقتله الموحدون في ثامن عشر شوال، واستولى عبد المؤمن على جميع بلاد المغرب وانقضت منها دولة لمتونة.

وقدم على عبد الرحمن وفد إشبيلية بمراكش يقدمهم القاضي أبو بكر بن العربي بعد قتل ولده عبد الله في فتح إشبيلية فقبل طاعتهم، وانصرفوا بالجوائز والإقطاعات لجميع الوفد سنة اثنتين وأربعين وخمسمئة، وتوفي القاضي أبو بكر في طريقه في جمادى الآخرة سنة ثنتين وأربعين عند وصوله إلى مدينة فاس فدفن بروضة الجياش بفاس وهو ابن خمس وسبعين سنة، وقيل: في سابع ربيع الأول وقيل في ربيع الآخر سنة ثلاثة وأربعين، قاله ابن حبش، يقال: إنه سُم ما بين فاس وسبتة، قال ابن الدباغ: بقي يفتي أربعين سنة.

وفي سنة ثنتين وأربعين المذكورة توفي القاضي الإمام أبو محمد عبد الحق بن غالب المعروف بابن عطية مفسر القرآن العظيم وقال الغبريني في عنوانه: توفي سنة إحدى وأربعين – سمعت شيخنا القاضي المفتي أحمد بن محمد القلجاني يحكي أن بعض الأدباء دخل محلة عبد المؤمن، فوجد أهل المرية يشكون قاضيهم الإمام أبو محمد عبد الحق بن غالب وينسبونه إلى الزندقة قال: فأنشد بقوله:

قالوا تزندق عبد الحق قلت لهم ... والله ما كان عبد الحق زنديقا
أهل المرية قوم لا خَلاق لهم ... يفسّقون قضاة العدل تفسيقا

وفي ليلة الجمعة سابع جمادى الآخرة من سنة أربع وأربعين وخمسمئة توفي بمراكش القاضي أبو الفضل عياض، وقيل: في شهر رمضان، وقال ابن سعيد: سنة ثنتين وأربعين. وبالأول قال ابن علت والتجاني ومولده بسبتة في منتصف شعبان سنة ست وسبعين وأربعمئة، قاله ابن بشكوال وحفيده وقال ابن سعيد: سنة خمس، وولي القضاء بسبتة سنة خمس وعشرين، ثم انتقل إلى قضاء غرناطة في صفر سنة إحدى وثلاثين، وصرف منها في شهر رمضان سنة ثلاث وثلاثين، أعيد لقضاء سبتة سنة تسع وثلاثين.

وذكر ابن المعلم أن تولى قضاء قرطبة ولم يطل مقامه بها، ثم أعاد مقامه بها، ثم أعيد إلى بلده، ولما اجتمع بالخليفة عبد المؤمن وجده قد تغير عليه فاستعطفه بالمنظوم والمنثور حتى رق له وعفا عنه فلازم مجلسه إلى أن رده بحضرة مراكش، فلما وصلها بقي ثمانية أيام وتوفي بها، ومن نظمه في صيفية باردة:

كأن كانون أهدى من ملابسه   لشهر تموز أنواعاً من الحلل

أم الغزالة من طول المدى خرفت   فما تفرق بين الجدي والحمل

ومن نظمه يصف خامة الزرع أمالتها جيوش:

انظر إلى الزرع وخامته   تحكي وقد ماست أمام الرياح

كتيبة خضراء مهزومة   شقائق النعمان فيها جراح

ولما نهض عبد المؤمن للجهاد واحتل بسلا قدم عليه هنالك وفد الأندلس سنة ثلاث وخمسين، وفيهم حفصة الأدبية المعروفة بابنة الحاج الركوني، وكان سمع عنها وعما توصف به من الجمال الباهر والأدب الطاهر، فأمر بإحضارها فأحضرت فقال لها: أنت حفصة الشاعرة. فقالت: نعم خادمتك وصلت لتتبرك بغرتك السعيدة، ودنت فقبّلت يده، ثم أنشدته تستدعي منه ظهير الوضع فسألت عنه فقالت:

يا سيد الناس يا من   يأمل الناس رفده

امنن علي بصك   يكون للدهر عده

تخط يمناك فيه   الحمد لله وحده

فأعجب عبد المؤمن بها ووقع لها بالقرية المعروفة بركونة، وإليها تنسب، فعاشت عيش الملوك، ونزل عبد المؤمن المهدية في ثاني عشر رجب من سنة أربع وخمسين وخمسمئة، ومعه الحسن بن علي الصنهاجي صاحبها، فلما عاين أبراجها الشامخة من جهة البر ركب في سفينة وطاف بها من جهة البحر، وقال للحسن: نزلت عن هذا المعقل العظيم، فقال: قلة من يوثق به من الرجال وعدم القدرة وحكم القدر.

كان النصارى قد أخلوا مدينة زويلة فأمر عبد المؤمن بإدخال أسواق المحلة إليها، وأن يدخل مع أهل المحلة من يعمرها فصارت من حينها مدينة عامرة، فكان عبد المؤمن يقعد في فسطاطة نهاره بالمحلة ويبيت الليل بدار داخل زويلة، وعاصر المهدية براً وبحراً، ولما دخل بمن معه حصن المهدية وأقام بالمدينة شعار الإسلام، أمر بإصلاح ما ثلم من سورها بعد حصار ستة أشهر، وكان دخوله إليها في المحرم من سنة خمس وخمسين وخمسئة.

وقدم عبد المؤمن علي المهدية محمد بن فرج الكومي وترك معه الحسين بن علي الصنهاجي الذي كان صاحبها، ووفد على عبد المؤمن شيخ صفاقس ومللها، ووفد عليه أيضاً ابن مطروح شيخ طرابلس بعد أن قام على النصارى الذين بها، فأحسن إليهما عبد المؤمن وأكرم مثواهما، ووفد عليه أيضاً يحيى بن تميم بن المعتز بن الرند صاحب قفصة، وكان بطلاً مشهوراً وولده كذلك، وهما من مغراوة من سكان نفراة أكرمه عبد المؤمن ووصله، وأمره بالانتقال إلى بجاية بحاشيته وأهله، فانتقل ومعه جده المعتز وهو هرم أعمى فأقاموا ببجاية برهة من الدهر، وتوفي المعتز الأعمى، ثم عاد ملكهم بعد ذلك إلى قفصة.

ودخل في طاعة عبد المؤمن جميع ثوار إفريقية منهم صاحب بنزرت عيس بن مقرب بن طراد اللخمي، ودخل في طاعته منيع بن بزوكش الصنهاجي صاحب زرعة وطبرية، ولأبيه خبر عجيب خلاصته أنه كان من فرسان صنهاجة وكانت أخته عند العزيز بن المنصور صاحب بجاية، وكان العزيز يسامره فجعل العزيز ليلة يفخر بماله ولآبائه من الملك، فجعل بزوكش يصف ما جرى له من المواقف والقبائل، ثم يتمثل بهذا البيت:

كتب القتل والقتال علينا وعلى الغانيات جر الذيول

فاحتملها له العزيز وأضمر الإيقاع به، ففهمت ذلك أخته وأرسلت إليه – أحقدت ملكاً وتقيم في بلده انظر لنفسك – فهرب ولحق ببجاية فأكرمه شيخها وبعثه على زرعة، وكذلك ورد عليه محمد بن عمر النيفاشي وأنشد:

ما هزّ عطفيه بين البيض والأسل مثل الخليفة عبد المؤمن بن علي

وكانت السنة التي فتح فيها عبد المؤمن بن علي المهدية تسمى سنة الأخماس؛ لأنها سنة خمس وخمسين وخمسمئة، وانصرف عبد الوصي إلى المغرب وولّى على إفريقية ولده أبا إسحق إبراهيم، وعلى تونس الشيخ أبا محمد عبد الله بن أبي يرفيان الهرغي، وولى على أعماله المخزنية أبا حفص عمر بن فاخر العبدري، وأحضر أمراء العرب وأحلفهم في مصحف عثمان بن عفان على السمع والطاعة، والسير معه إلى الأندلس لقتال العدو، فما ساروا ونكثوا أيمانهم، وأنشد قاضي تونس أبو الحسن علي بن أحمد الآبي بعد وقعة وقعت في الأعراب وهزيمة في خبر يطول:

ولى الشباب أمام الشيب منهزما فذا يصول وذا يشتد في الهرب

ولما كانت سنة ثمان وخمسين استدعى عبد المؤمن ولده أبا يعقوب يوسف من الأندلس لمراكش لولاية العهد عوضاً من أخيه محمد، فلحق بمراكش وخرج مع أبيه للجهاد، فأدركت عبد المؤمن منيته بسلا فتوفي في ليلة الخميس العاشر من جمادى الآخرة من سنة ثمان وخمسين وخمسمئة، دفن بتنمل بإزاء قبر المهدي، وكانت خلافته ثلاثة وثلاثين عاماً وثمانية أشهر ونصفاً، وخلف ستة عشر ذكراً وبنتين، فولي بعده ولده ولي عهده أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن بن علي.

وفي سنة خمس وسبعين وخمسمئة توفي السيد الوزير أبو حفص عمر بن عبد المؤمن، ثم بلغ الخليفة يوسف المذكور أن علي بن المعز ويعرف بالطويل من أعقاب بني الرمز ملوك قفصة، قد ثار بها سنة خمس وسبعين فرحل الخليفة إليها من مراكش فوصل على بجاية، وسعى عنده بعلي بن النصير فقبض عليه وأخذ ما بيديه، ورحل إلى قفصة فنزلها ووفدت عليه مشيخة العرب من رياح بالطاعة فقبلهم، ولم يزل محاصر القفصة إلى أن نزل علي بن المعز علي حكمه وانكفأ راجعاً إلى تونس، فعقد على إفريقية والزاب للسيد أبي علي أخيه وعلى بجاية للسيد أبي موسى.

وعقل إلى مراكش ونهض سنة سبع وسبعين على مسلا وأتاه بها أبو محمد بن إسحق بن جامع [illegible] وفي السنة المذكورة عقد الحامة للقاضي أبي الوليد بن رشد

الحفيد على القضاء بقرطبة، ثم جاز الخليفة البحر من سبته في صفر من سنة ثمانين وخمسمئة فاحتل جبل الفتح وسار إلى إشبيلية ورحل غازياً إلى شنترين فحاصرها أياماً، ثم أقلع عنها، وأسحر الناس يوم إقلاعه فخرج النصارى من الحصن فوجدا الخليفة في غير أهبة فأبلى بالجهاد هو وممن حضر، وانصرفوا بعد جولة عديدة وهلك الخليفة في ذلك اليوم من سهم أصابه في ساعة القتال، وفيه يقول ابن الخطيب رحمه الله تعالى:

فرزق الشهادة المعلومة كانت بها أعماله مختومة

وقيل: من مرض طرقه، وذلك في يوم السبت الثامن عشر من ربيع الآخر سنة ثمانين وخمسمئة، ودفن برباط الفتح فكانت خلافته إحدى وعشرين سنة وعشرة أشهر وثمانية أيام وخلق من البنين ثمانية عشر ولداً ذكراً، فتولى بعده ولده أبو يوسف يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي مولده في العشر الأواخر من ذي الحجة سنة أربع وخمسين بويع بالمحلة بعدة وفاة والده ورجع بالناس إلى إشبيلية، فاستكمل البيعة واستوزر الشيخ أبا محمد بعد الواحد بن الشيخ أبي حفص واستنفر الناس للغزو مع أخيه السيد أبي يحيى فأخذ بعض الحصون وأوغل في بلاد الكفار.

ثم جاء يعقوب المنصور في البحر إلى مراكش ولما دخلها قطع المناكير وأقام العدل وباشر الأحكام، وكان من أهل العلم والتوقيع في الجواب بأحسن توقيع، طلب يوماً من قاضيه أن يختار له معلماً أو معلمين لتعليم ولد عنده وضبط أوامره فجاءه برجلين، وكتب له رقعة يصفهما له أحدهما هو بر في دينه والآخر هو بحر في حله، فاختبرهما السلطان بنفسه فأكذبهما في اختباره، ووجدهما لا كما قال القاضي فكتب على رقعة القاضي: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ×ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ÷[سورة الروم: 41] وهذا من التوقيع الغريب في الإجادة.

وفي صفر سنة إحدى وثمانين وخمسمئة قدم علي بن إسحق بن محمد بن غانية الميورقي من ميورتة في البحر إلى بجاية ومعه أخواله في اثنتي وثلاثين قطعة، فنزلوا بجاية على حين غفلة

من واليها حينئذ السيد أبي عبد الله محمد بن عبد المؤمن، وكان خارجها في بعض مذاهبه فاستولى عليها، وفي سنة إحدى وثمانين توفي الفقيه القاضي الإمام الشهير أبو محمد عبد الحق الإشبيلي ببجاية، وقيل: في سنة اثنتين وثمانين وهو صاحب الأحكام والعاقبة وغيرهما.

ولما اتصل بالخليفة يعقوب المنصور ما نزل بإفريقية نهض من مراكش سنة ثلاث وثمانين لحسم هذا الداء فوصل على تونس واستراح بها، ثم سرح في مقدمته السيد أبا يوسف يعقوب بن أبي حفص بن عبد المؤمن، فلقيهم ابن غانية فانهزم الموحدون وأخذت أسلابهم، ورحل المنصور إلى ابن غانية وقراقوش فأوقع بهما في ظاهر الحلمة في شعبان وأفلت ابن غانية وقراقوش وبادر أهل قابس وتسلموا من كان ضدهم من الموحدين وحملوا إلى مراكش.

وقصد المنصور توزر فبادر أهلها بالطاعة، ثم رحل إلى ققصة فحاصرها حتى نزلوا على حكمه فقتل من كان بها من الحشود، وأمن أهل البلد في أنفسهم وجعل أملاكهم بيدهم على حكم المساقاة، ثم غزا العرب وقتل كثيراً منهم، وقفل إلى المغرب سنة أربع وثمانين وخمسمئة، وعقد على إفريقية السيد أبي زيد بن أبي حفص بن عبد المؤمن، وفي حدود عام تسعين وخمسمئة توفي الشيخ الصالح الولي القطب أبو مدين شعيب بن الحسن الأندلسي ببلد تلمسان بالموضع المعروف بالعباد، ودفن هنالك وكان قاصداً من بجاية لمراكش لاستدعاء الخليفة له لما اشتهر من أمره ببجاية.

وفي سنة خمس وتسعين أمر المنصور اليهود بعمل الشكلة وجعل قمصهم طول ذراع في عرض ذراع وخلع لهم برانس وقلانس زرقاً، واختلف في موته رحمه الله فقيل: في أوائل سنة خمسة وتسعين وخمسمئة طرقه المرض الذي كان فيه جامه، فأوصى وصيته المشهورة، ثم توفي في ليلة الجمعة الثانية والعشرين من ربيع الأول سنة خمس وتسعين وخمسمئة، ودفن بمجلس سكناه من مراكش، ثم نقل إلى رابطة تينمل.

وقيل: إنه خرج من الخلافة فرابط ببلاد الأندلس، وقيل: إنه مشى حجاً قاله أبو سعيد أخبرني الحاج ابن مزينة قال: أخبرني بعض المشارقة أن قبر يعقوب المنصور ملك المغرب ببلد الشام يتبرك به والله أعلم، فكانت خلافته أربع عشرة سنة وأحد عشر شهراً وأربعة أيام،

وخلف من الولد ثمانية ذكور، فتولى بعده ولده أبو عبد الله محمد بن يعقوب المنصور بن أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن بن علي بويع يوم وفاة والده وتلقب بالناصر لدين الله.

واستوزر أبا زيد بن أبي حيان وهو ابن أخي الشيخ أبي حفص، ثم استوزر الشيخ أبا محمد عبد الواحد ابن الشيخ أبي حفص، واتصل الخبر بالناصر بمراكش بحلول ابن غانية بإفريقية فأدهم إفريقية خائفاً من الفتنة فرحل إليها سنة إحدى وستمئة، وبلغ ابن غانية خبر مجيئه فوجد ذخائره إلى المهدية، وكان الوالي عليها ابن عمه علي ابن الغازي، وخرج من تونس إلى القيروان، ثم إلى قفصة واجتمع إليه العرب وأعطوه الرهين على المظاهرة، ونزّل طرة من حصون نفراوة فاستباحها، وانتقل إلى حامة مطماطة، ونزل الناصر تونس، ثم قفصة، ثم قابس وتحصن منه ابن غاني في جبل دمر، فرجع إلى المهدية عنه وعسكر بها وأخذ في حصارها.

وسرح الشيخ أبا محمد عبد الواحد ابن الشيخ أبي حفص لقتال ابن غانية في أربعة آلاف من الموحدين سنة ثنتين وستمئة، فلقيه بجبل تاجر من نواحي قابس فهزمه الشيخ أبو محمد وقتل أخاه جبارة إسحق، وأخذ جميع محلته، واستنقذ من يده جماعة من الموحدين من معتقلهم منهم السيد أبو زيد الذي كان والياً بتونس ودخل عليه ابن غانية بها.

ولم يزل الناصر محاصراً المهدية حتى فتحها يوم السبت السابع والعشرين من جمادى الأولى سنة ثنتين وستمئة، بتسليم صاحبها علي ابن الغازي ابن عم ابن غانية فقبل الناصر علي بن الغازي وأكرمه، ولم يزل معه إلى أن استشهد، وولى الناصر المهدية لمحمد بن نعمون من الموحدين، ورحل إلى تونس فأقام بها حولاً إلى منتصف سنة ثلاث وستمئة، وسرح أثناء ذلك أخاه السيد أبا إسحق ليتتبع المفسدين، فسار إلى أن دوخ ما وراء طرابلس وشارف أرض سرت وبرقة انتهى إلى سويقة ابن مذكور، وفر ابن غالية إلى منجزات برقية وانقطع خبره، وانكفأ السيد أبو إسحق راجعاً إلى تونس.

وعزم الناصر على الرحيل إلى المغرب فنظر في من يوليه إفريقية، فوقع اختياره على وزيره الشيخ أبي محمد عبد الواحد ابن الشيخ أبي حفص، فعقد له على ذلك سنة ثلاثة وستمئة بعد

امتناع من الشيخ أبي محمد وبعد أن أرسل الناصر إليه ولده يوسف وقال له: إما أن تتوجه أنت إلى المغرب وأجلس أنا بإفريقية، وأما أن تجلس أنت وأنصرف أنا، فأجاب الشيخ أبو محمد إلى ذلك على شريطة اللحاق بالمغرب بعد قضاء مهمات إفريقية في ثلاث سنين وعلى أن يختار من رجال الموحدين من يجلس معه ويكون عوناً له في جميع ضرورياته، وأن لا يتعقب عليه في أموره في تولية ولا عزل.

فقبل الناصر شرطه، ورحل عن تونس في شهر رمضان سنة ثلاث وستمئة، فدخل مراكش في ربيع سنة أربع وستمئة، واستكتب أبو محمد عبد الواحد الفقيه أبا عبد الله محمد بن أحمد بن نجيل المشهود له بالجود وحسن الوساطة وحسن التدبير، وأصلح الأحوال ورتب الأجداد واخترع زمم التضييق للوفود، وكان يجلس كل يوم سبت لمسائل الناس، وكان عالماً فاضلاً شجاعاً محسناً ذكياً فطناً، ثم إن ابن غانية جمع العرب من الدواودة وغيرهم فجاء بهم لقتال الموحدين بتونس، فخرج إليه الشيخ أبو محمد عبد الواحد مع بني عوف من سليم فالتقوا بنواحي تيستة سنة أربع وستمئة، فانهزم ابن غانية ولجأ إلى جهة طرابلس، وكان يحيى بن غانية إذا رأى أحوال إفريقية وما آلت إليه من أمر الحجاج وسكون الهياج يتمثل بقول القائل في الحجاج:

وقد كان العراق له اضطراب   فثقف إمرة بأخي ثقيف

ثم إن الناصر صرف وجهه إلى الجهاد بالأندلس في عزم لم يبلغ إليه ملك قبل، ولما احتل رباط الفتح من سلا اخترته منيه فانحل القوم وتفرقت الجموع، وكانت وفاته يوم الثلاثاء العاشر من شعبان من سنة عشر وستمئة وكان سبب وفاته من كلب عضه في رجله، فكانت خلافته خمس عشرة سنة وأربعة أشهر وتسعة عشر يوماً وخلف ولدين يوسف ويحيى.

فتولى بعد الخلافة ولده يوسف ابن أبي عبد الله محمد الناصر بن يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بويع يوم وفاة أبيه وسنه عشرة أعوام ولقب بالمنتصر بالله، وغلب عليه ابن جامع ومشيخة الموحدين فقاموا بأمره وتأخرت بيعة أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص لصغر سنه، ثم وقعت المكاتبات من الوزير ابن جامع وصاحب الأشغال عبد العزيز بن أبي زيد

حتى وصلت بيعة الشيخ أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص، وفي عام عشرة وستمئة كان ابتداء بني مرين بعد مولد أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق بسنة واحدة وكانوا نحو أربعمئة فارس.

وفي يوم الخميس أول المحرم فاتح عام ثمانية عشر وستمئة توفي الشيخ أبو محمد عبد الواحد ابن الشيخ أبي حفص بتونس ودفن بقصبتها بعد صلاة الصبح، ولم يوجد بتركته إلا خرائط يسيرة مكتوب على كل واحدة «قبرة» إشارة إلى أن ذلك المال مما خلفت من سهامه السلطانية بقبرة وهي قرية من قطر قرطبة، وكان كلما وصله شيء من ذلك جمعه ووجّه به إلى الحرمين الشريفين، وتولى بعده السيد أبو العلاء إدريس بن يوسف بن عبد المؤمن.

ولما توفي الشيخ أبو محمد قام ابن غانية، واشتهر نفاقه وكثر فخرج إليه السيد أبو زيد وتزاحفوا بظاهر تونس في أوائل سنة إحدى وعشرين، فانهزم ابن غانية وجموعه وامتلأت أيدي الموحدين بالغنائم، وكان لهوارة وأميرهم يومئذ شاب اسمه حناش في صك الزحفة أثر مذكور، وكان بلغ السيد أبا زيد المشر وهو إذ ذاك بالقيروان مهلك أبيه بتونس فانكفأ راجعاً إلى تونس، وكان مهلك أبيه بتونس في شهر شعبان من سنة عشرين وستمئة، وتوفي المنتصر في يوم السبت من ذي الحجة من ذلك العام مسموماً سمه الوزير أبو سعيد ابن جامع مع الفتى مسرور، كذا ذكره في ترجمان العبر.

وذكر ابن الخطيب الأندلسي أنه كان مولعاً بالحيوان ونتاج الحيوان فتوسط يوماً قطيعاً من البقر فأنكرته إحدى طغاتهن فطعنته فأتت عليه، فكانت خلافته عشر سنين وأربعة أشهر ويومين، فتولى بعده عم أبيه أبو محمد عبد الواحد بن يوسف بن عبد المؤمن، وهو أخو المنثور وهو المعروف بالمخلوع، وذلك أنه لما توفي المنتصر اجتمع ابن جامع والموحدون بمراكش فبايعوا له، فقام بالأمر كتب لأخيه أبي العلاء بتجديد الولاية على إفريقية، وخلع الموحدون بمراكش الخليفة أبا محمد عبد الواحد يوم السبت الموفي عشرين من شعبان سنة إحدى وعشرين وستمئة فكانت ولايته ثمانية أشهر وتسعة أيام.

وبعث الموحدون ببيعتهم على العادل صاحب مرسية ثمانية أشهر وتسعة أيام، وبعث الموحدون ببيعتهم إلى العادل صاحب مرسية وهو أبو محمد عبد الله بن يعقوب المنصور بن أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن بن علي، ولما بلغت البيعة للعادل وبلغه كتاب الوزير أبي زكريا، يحيى الشهيد ابن الشيخ أبي حفص رحمه الله تعالى بنفس بيعة المخلوع وفراق جماعته وجعل ذلك لغيرة للبياشي وانتقاض البياشي عليه ودعوته لنفسه وشغل شأنه بعث إليه أخاه أبا العلاء لحصاره، وجاز العادل إلى العدوة وفوض أمر الأندلس على أخيه أبي العلاء، ولما كان بقصر المجاز لقيه أبو محمد عبد الله المعروف بعبر ابن الشيخ أبي حفص فسأله عن الحال فأنشد:

حال متى علم ابن منصور بها   جاء الزمان إليَّ منها تائبا

فاستحسنه لموافقته للحال إذ العادل هو ابن منصور فولاه إفريقية، وكتب للسيد أبي زيد المشمر ابن عمه أبي العلاء إدريس بالقدوم عليه بمراكش فارتحل ووصل أبو محمد عبد الله عبو المذكور لتونس وبين يديه إخوة المولى الأمير أبو زكريا يحيى في يوم السبت سابع عشر ذي القعدة من عام المئة وعشرين وستمئة، فلما استقر بتونس عهد لأخيه المولى أبي زكريا، يحيى المذكور على مدينة قابس وأضاف إليها الحامة وسائر تلك البلاد، وعقد لأخيه أبي إبراهيم على توزر ونقطة وسائر بلاد قسطنطينية.

فلم يزل المولى أبو زكريا والياً على قابس وأعمالها إلى أن وقعت بينه وبين أخيه أبي محمد عبو وحشة، عزله بسببها من قابس وأعمالها، وأمر أخاه إبراهيم صاحب قسطنطينية بالسير على قابس والقبض عليه فسار إليهم، فبلغه في أثناء طريقه أن للولي أبا زكريا يحيى كتب بيعته للمأمون فنكب عنه إلى المهدية وخاطب أخاه أبا محمد عبو بذلك، وخرج أبو زكريا يحيى بن أبي يحيى الشهيد ويوسف بن أبي الحسن علي إلى قبائلها، فاتفقا على خلع العادل والبيعة ليحيى بن الناصر وقصدوا مراكش فاقتحموا فيه القصر وانتهبوه، وقتل العادل خنقاً في الثاني والعشرين من شوال سنة أربع وعشرين وستمئة فكانت خلافته من حين بويع بمرسية ثلاث سنين وثمانية أشهر وعشرة أيام.

وبويع بعده بمراكش أبو زكريا يحيى المعتصم بن أبي عبد الله الناصر بن يعقوب المنثور بن يوسف بن عبد المؤمن، وكان السيد أبو العلاء إدريس المأمون بن المنصور، لما بلغه انتقاض الموحدين والعرب على أخيه العادل وتلاشي أمره دعا لنفسه بإشبيلية، فبويع بها في يوم الخميس ثاني شهر شوال سنة أربع وعشرين وستمئة وبايعه أكثر أهل الأندلس وبايع له السيد أبو زيد صاحب بلنسية وشرق الأندلس.

ثم لما قدم الموحدون على العادل وقتلوه بالقصر وبايعوا يحيى ابن أخيه الناصر كاتب ابن أبي حسان سراً وعمل على فساد الدولة فداخل مكورة والعرب في الغارة على مراكش فأغاروا عليها وهزموا عساكر الموحدين، وفطن أبو زكريا يحيى بن أبي يحيى الشهيد لتدمير أبي زيد بن برجان فقتله في داره، وخرج يحيى بن الناصر إلى معتصمه، فخلعه الموحدون بمراكش وبعثوا بيعتهم إلى المأمون صاحب إشبيلية، وهو أبو العلاء إدريس المأمون بن يعقوب المنصور بن أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن بن علي، وكان الذي تولى كبر خلع يحيى بن الناصر.

وكتب البيعة للمأمون الحسن القريقري وأبو حفص الآن أبي حفص بن عبد المؤمن، فبلغ خبرهما إلى يحيى بن الناصر وابن الشهيد وممن معهما فتنزلوا إلى مراكش سنة ست وعشرين وستمئة وقتلوهما، وبايع للمأمون أهل فاس وصاحب تلمسان محمد بن أبي زيد بن برجان وصاحب سبتة أبو موسى بن المنصور وصاحب بجاية ابن أخته ابن الأطلس، فبعث المأمون إلى صاحب إفريقية أبي محمد عبد الله ابن الشيخ أبي محمد عبد الواحد ليأخذ له البيعة فتوقف وظن أنها مكيدة عليه، وقال للرسول: نحن مقيمون على بيعة العادل فإذا تحققنا موته بايعنا أخاه، فرجع الرسول بغير كتاب ولا جواب.

وكتب للأمير أبو زكريا يحيى ابن الشيخ أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص، وكان إذ ذاك والياً على قابس بالولاية على إفريقية وبعزل أخيه أبي محمد عبد الله عبو لأجل إمتاعه من بيعته، فبادر المولى أبو زكريا يحيى بالبيعة للمأمون، فاتصل ذلك بأخيه أبي محمد عبد الله المذكور فخرج من تونس متوجهاً إليه.

فلما وصل إلى القيروان جمع معه من أشياخ الموحدين وعرفهم بما عزم عليه من قتال أخيه، فأظهروا الكرامة لذلك لمحبتهم في المولى أبي زكريا وأحذروا له فلم يقبل منهم وانتهرهم، فقاموا قيام رجل واحد، وأغلظوا عليه ورجموه بالحجارة، فأقام أولاده دونه يقونه بأنفسهم إلى أن دخل فسطاطه، فوجه الناس أشياخاً منهم إلى المولى أبي زكريا يعرفونه بذلك ويطلبون منه المبادرة بالوصول، فبادر المولى أبو زكريا صحبة أولئك الأشياخ وتسلم العسكر من أخيه وسار إلى تونس، وحمل أخاه محتاطاً عليه فأدخله ليلاً إلى القصر المعروف بقصر ابن فاخر فاعتقله فيه.

وكان دخول المولى أبي زكريا يحيى إلى تونس يوم الأربعاء الرابع والعشرين من رجب سنة خمس وعشرين وستمئة، ولم يكن أهم لديه من القبض على أبي عمر كاتب أخيه، فأخذه وبسط عليه العذاب إلى أن مات ورميت جثته، وكان يغري أخاه به.

ثم إن الأمير أبا زكريا وجه بأخيه أبي محمد عبد الله عبو إلى الغرب في البحر، ثم إن المأمون بعث عمالاً لتونس فأنف من ذلك المولى أبو زكريا وصوفهم من حيث أقبلوا وخطب بتونس لأبي زكريا يحيى المعتصم بن الناصر وهو حينئذ المنازع للمأمون في الخلافة، وكتب المولى أبو زكريا إلى جميع بلاد إفريقية بخلع أبي العلاء المأمون، ثم أسقط المولى أبو زكريا اسم أبي زكريا يحيى المعتصم بن الناصر من الخطبة في بلاد إفريقية، واقتصر على الدعاء للمهدي والخلفاء الراشدين.

كان ذلك أول درجة في الاستبداد وذلك في أول سنة سبع وعشرين وستمئة وسمى نفسه بالأمير، وكتبه في صدور كتبه ولم يتعرض لذلك في الخطبة سياسة منه واختباراً لأحوال إفريقية، فلما لم ير منهم إنكاراً استبد الاستبداد التام وعقد لنفسه البيعة العامة، وذلك في سنة أربع وثلاثين حسبما يأتي إن شاء الله تعالى، وفي الموفي ثلاثين لشهر رمضان من سنة خمس وعشرين وستمئة عزل أبو زكريا يحيى قاضي الجماعة بتونس طلب من السلطان ذلك وقدم عوضه أبا عبد الله بن زيادة الله القابسي.

ثم إن يحيى بن الناصر زحف إلى المأمون فخرج إليه فهزمه، وقتل من كان معه ونصب رؤوسهم بمراكش، ولحق يحيى بن الناصر ببلاد مرغة وسجلها ستر، وفي سنة سبع وعشرين وستمئة بويع بتونس السلطان المولى الأمير أبو يحيى زكريا ابن الشيخ أبي محمد عبد الواحد ابن الشيخ أبي حفص عمر والشيخ أبو حفص هو عمر بن يحيى بن محمد بن رانودين بن علي بن أحمد بن ولال بن إدريس بن خالد بن اليسع بن إلياس بن عمر بن ياسين بن محمد بن نجبة بن كعب بن سالم بن عبد الله ابن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب.

كذا نسبه ابن نجيل وغيره من المؤرخين، حكاه ابن خلدون في ترجمان العبر في أخبار العرب والبربر، بويع في السنة المذكورة بتونس وبلادها، وكتب علامته بيده – الحمد لله والشكر لله – وبقي اسم المهدي في الخطبة وغيرها، ولم يذكر هو اسمه في الخطبة، وكان فقيهاً عارفاً طريفاً له شعر كثير مدون مع الجزالة في الأمور وصلحت به البلاد ورخصت الأسعار، وأمنت الطرق وجمع من الأموال والسلاح ما لم يجمعه أحد.

وفي السنة المذكورة بنى المولى أبو زكريا المصلى خارج باب المنارة بتونس، وجعل له أراجاً وشوائق، كأنه بلد صغير ومساحته قدر مساحة بنزرت ليس بينهما طائل، ولما استقل المولى أبو زكريا بتونس وخلع بيعة بني عبد المؤمن نهض إلى قسطنطينة في سنة ثمان وعشرين وستمئة، فنزل بساحتها وحاصرها أياماً، ثم داخله ابن طناس في شأنها ومكنه من عزلها فدخلها وقبض على واليها.

وولّى عليها ابن النعمان ورحل إلى بجاية ففتحها وقبض على واليها، وصيرهما إلى المهدية معتقلين في البحر وبعث بأهلهما وولدهما إلى الأندلس، فنزلوا بإشبيلية وبعث معهما صاحبهما معتقلاً إلى المهدية محمد بن جامع، وابن أخيه جابر بن عيون بن جامع من شيوخ مرداس بن عوف وابن أبي الشيخ ابن عساكر من شيوخ الذراودة، فاعتقلوا جميعاً بمطبق المهدية.

كان أبو عبد الله اللحياني ابن الشيخ أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص صاحب أشغال بجاية، فلما افتتحها أخوه المولى أبو زكريا صار في جملته فولاه بعده الولاية الجليلة وكان يستخلفه بتونس في مغيبه، ثم إن المولى أبا زكريا قبض على وزيره ميمون بن موسى وأخذ

أمواله وبعث به إلى قابس، واعتقل فيها مدة طويلة، ثم صرفه إلى الإسكندرية واستوزر مكانه أبا يحيى بن أبي العلاء بن جامع إلى أن ملك، فاستوزر بعد إدريس ابن أخيه عليه إلى أن هلك فاستوزر بعده أبا زيد ابن أخيه محمد الأخير إلى أن هلك.

وفي ليلة الإثنين السادسة عشرة من شعبان من سنة ثمان وعشرين وستمئة توفي بتونس الشيخ الصالح أبو سعيد خلف بن يحيى التميم الباجي ودفن بجباتة المعروفة به بجبل المرسى بمقربة من المنارة، وفي سنة تسع وعشرين وستمئة ابتدأ السلطان أبو زكريا يحيى بنيان جامع القصبة بتونس وجدد رسوم القصبة، ولما كملت الصومعة في شهر رمضان من سنة ثلاثين وستمئة صعد إليها بليل وأذن فيها بنفسه.

وفي السنة المذكورة انتقض على المأمون صاحب مراكش أخوه أبو موسى بسبتة ودعا لنفسه وتسمى بالمؤيد، ثم إن المأمون توفي في طريقه بوادي أم ربيع في يوم السبت من سلخ ذي الحجة سنة تسع وعشرين وستمئة، فكانت خلافته من حين بويع بإشبيلية خمس سنين وثلاثة أشهر وخلف من الأولاد الذكور اثنين عبد الواحد والسعيد، فبويع بعده ولده أبو محمد عبد الواحد بن أبي العلاء إدريس المأمون بن أبي يوسف يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي يوم وفاة أبيه، ولقب بالرشيد وكتموا موت أبيه.

وأغذوا السير إلى مراكش ولقيهم يحيى بن الناصر في طريقهم بعد أن استخلف بمراكش أبو سعيد بن رانودين فهزموه وقتل أكثر من معه، وأخذ الموحدون جيشه وسلبوا أمواله منه، وأصبح الرشيد بمراكش فامتنعوا عليه ساعة، ثم خرجوا إليه وبايعوه، وفي يوم الجمعة السابع لشهر صفر الخير من سنة ثلاث وثلاثين المذكورة فرغ من بناء جامع القصبة بمدينة تونس.

وفي سنة أربع وثلاثين وستمئة ذكر المولى أبو زكريا نفسه في الخطبة بعد ذكر الإمام مقتصراً على ذكر الأمير، وبويع البيعة الثانية التامة التي لم يتخلف فيها أحد من الناس ولم يتسمَّ بأمير المؤمنين، وعرض له بعض الشعراء في ذلك بقوله:

ألا صلني أمير المؤمنينا ... فأنت بها أحق العالمينا

فلما بلغه هذا أنكره وقال: ما للشعراء والدخول في هذا الفضول، وبايع أهل بلنسية المولى أبا زكريا صاحب تونس في رابع المحرم عام ستة وثلاثين وستمئة، بعد أن كانت وقعة كبيرة قتل فيها الحافظ أبو الربيع بن سالم وغيره، وكانت الوقعة في الموفي عشرين من ذي الحجة من عام أربعة وثلاثين ودنا العدو منها وسيق عليها، فاضطر صاحبها زيان بن مردنيش إلى الاستغاثة بالمولى أبي زكريا، فوجه إليه بيعته مع رجال من أهل دولته فيهم كاتبه الفقيه الشهير أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر بن الأبار القصامي، فوصلوا على تونس، وأنشد ابن الأبار بين يدي المولى أبي زكريا في يوم الثلاثاء من سلخ شهر رجب من عام ستة وثلاثين المذكورة قصيدته المشهورة التي أولها:

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا إن السبيل إلى منجاتها درسا

وهب لها من عزيز النصر ما التمست فلم يزل منك عز النصر ملتمسا

إلى آخرها وهي ستة وستون بيتاً فعاجلهم المولى أبو زكريا في الوقت بما أمكنه المبادرة من طعام وأنعام وأنت قيمة ذلك مئة ألف دينار، فأعجل تغلب العدو عليهم عن تمام قصرته لهم واغتبط من الآبار إفريقية، وعاد إلى الأندلس فاحتمل أهله وأقبل إلى حضرة تونس، فأقبل عليه المولى أبو زكريا واستكتبه، ثم توفى بعد موت أبي عبد الله بن الجلاء إلى كتب العلامة حسبما يذكر بعد.

وفي السنة المذكورة نهض المولى أبو زكريا من تونس يوم بلاد زناتة بالمغرب الأوسط، فسار إلى بجاية، ثم ارتحل إلى الجزائر فافتتحها وولى عليها من قلبه، ثم نهض منها إلى بلاد مغراوة، فأطاعه بنو منديل وتجاهر بنو توجين بالخلاف، فأوقع بهم وقبض على رئيسهم عبد القوي بن الفاسي واعتقله وبعث به إلى تونس، وأقبل راجعاً إلى حضرته وعقد في رجوعه على بجاية لابنه الأمير أبي يحيى وأنزله بها.

وفي يوم الخميس الثاني لشهر رجب من سنة ثمان وثلاثين وستمئة كتب المولى أبو زكريا صاحب تونس عهده لولده الأمير أبي يحيى زكريا صاحب بجاية، وخطب له على جميع منابر إفريقية، وفي هذه السنة توفي أبو عبد الله محمد بن محمد بن الجلاء البجائي صاحب خط

الإنشاء والعلامة بتونس المولى أبي زكريا، فقدم بعده لذلك الفقيه أبا عبد الله محمد بن عبد الله بن الأبار، فبقي مدة يسيرة، ثم أخر عنها لسوء خلقه وإقدامه على التعليم في كتب لم يؤمر بالتعليم فيها فقدم بعده للإنشاء، والعلامة أحمد بن إبراهيم الغساني، واستمر على ذلك على أن توفي المولى أبو زكريا.

وكان الغساني يكتب العلامة بالخط المشرقي بما نصه: من الأمير أبي زكريا بن أبي محمد ابن الشيخ أبي حفص، وفي شهر شوال من سنة تسع وثلاثين المذكورة تحرك الأمير أبو زكريا صاحب تونس إلى تلمسان في جيش جمعه أربعة وستون ألفاً من الفرسان، فحاصرها حتى أخذها عنوة في شهر ربيع الأول من سنة أربعين من باب كشوط على صاحبها يغمراسن بن زيان العبد الوادي، فلما رأي يغمراسن ما أحاط بالبلد قصد باب القصبة لابساً سلاحه في خاصته، فاعترضته عساكر الموحدين فقصد نحوهم، وجدَّل بعض أبطالهم فأفرجوا له ولحق بالصحراء، وافتتحت جيوش الموحدين تلمسان من كل حزب وعاثوا فيها.

ثم لما انجلى عشاء تلك الهيعة أعمل المولى أبو زكريا نظره في ممن يقلده أمر تلمسان والمغرب الأوسط، وكان يغمراسن صاحبها خلال ذلك وقد أرسل إلى المولى أبي زكريا راغباً في القيام بدعوته بتلمسان، فخاطبه المولى أبو زكريا بالإسعاف واتصال البعد على صاحب مراكش، ووفدت أم يغمراسن واسمها سوط النساء بالاشتراط والقبول، فأكرم موصلها وأسنى جائزتها وأحسن وفادتها، ثم ارتحل الموسى أبو زكريا إلى تونس ورد يغمراسن إلى بلدة تلمسآن فكانت غيبته تسعة أشهر.

وفي السنة المذكورة أخذ محمد بن محمد الجواهري صاحب الأشغال بتونس، وكان أول من تولى النظر في دار الأشغال بتونس أول من تولى النظر في دار الأشغال من غير الموحدين، وذلك أنه كان تمكن من المولى أبي زكريا؛ لأنه كان أظهر نجابة في جباية مال العمود الذي كان مأكلة للعمال فقربه بسبب ذلك، وقدمه للأشغال فاقتنى الأموال وصنع الرجال، وعزم على أنه مهما ظهر له تغير لجأ إلى من اعتده من الفرسان.

وكان يعادي رئيس الدولة أبا علي بن النعمان وأبا عبد الله بن الحسين فألقيا في سمع الأمير أبي زكريا ما ذكر أنه عزم عليه، وكان أيضاً من أشد من يشنع عليه الوزير أبو يحيى بن أبي الحسن بن جامع، فلما توفي الوزير المذكور لم يصدق الجواهري بموته وأنشد:

وإن حياة المرء بعد عدوه ... ولو ساعة من عمره لكثير

فكان القدر جرى على لسانه فلم يعش بعده إلا مدة يسيرة حتى أمر به، فأخذ رجل إلى موضع من القصبة وهو الآن معروف باسمه، فثقف فيه، ثم أمر بتعذيبه ليستخرج منه الأموال، فجلد ولم يظهر من الأموال شيئاً، ثم أصبح يوماً في الموضع الذي حبس فيه ميتاً قد خنق نفسه بقمامته، فجر إلى خارج الحضرة وعاينه فيه من كان له فيه شماتة.

وفي سنة أربعين أخر المولى أبو زكريا أبا القاسم المريش عن قضاة تونس، وقدم عوضه عبد الرحمن بن عمر بن نفيس، وفي يوم الجمعة عشار جمادى الآخرة من سنة أربعين وستمئة، كانت وفاة الرشيد صاحب مراكش غريقاً، زعموا في بعض جوابي القصر، ويقال: إنه أخرج من الماء وسمه لوقته فكان فيها حتفه، فكانت خلافته عشر سنين وخمسة أشهر وعشرة أيام.

فتوفي بعده أخوه أبو الحسن علي السعيد بن أبي العلاء إدريس المأمون بن أبي يوسف يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن، بويع يوم وفاة أخيه ولقب بالمعتضد، واستوزر السعيد السيد أبا إسحق بن إبراهيم أخي المنصور، وفي سنة ست وأربعين توفي بجباية الأمير أبو زكريا يحيى صاحب تونس فكتب عهده لولده المستنصر.

وفي يوم الأربعاء ثاني صفر من السنة المذكورة أخر الأمير أبو زكريا عبد الرحمن بن عوف بن نفيس عن قضاء تونس، وقدم عوضه عبد الرحمن بن علي التوزري عرف بابن الصايغ، وقُتل السعيد وولده في معركة يطول ذكرها، وانتهت بجملته بنو عبد الواحد، واختص يغمراسن بفسطاط السلطان وما فيه من الذخائر.

قيل: مصحف عثمان بن عفان يزعمون أنه أحد المصاحف التي انتسخت في حياته وخلافته، وأنه كان في خزائن قرطبة عند ولد عبد الرحمن الداخل، ثم صار في خزائن لمتونة،

ثم إلى خزائن الموحدين، وهو الآن في خزائن بني مرين بفاس أخذوه من خزائن بني عبد الواحد حين استولوا على تلمسان حسبما نذكره إن شاء الله تعالى.

ثم نظر يغمراسن في شأن مواراة السعيد، فجهزه وأمر برفعه على الأعواد إلى مدفنه بالعباد بمقبرة الشيخ أبي مدين وكان مقتله يوم الثلاثاء من سلخ صفر سنة ست وأربعين وستمئة، فكانت خلافته خمسة أعوام وثمانية أشهر وعشرين يوماً، ولما قتل السعيد فرَّت عساكره إلى مراكش اجتمع جمهور عساكره على ولده عبد الله، فبايعوه ووصل الخبر إلى الأمير يحيى بن عبد الحق أمير بني مرين وهو بجهات بني يزناسن.

وقد خلص إليه ابن عمه أبو عباد والبعث الذي معه من بني مرين فانتهز الفرصة وأرصد لعساكر الموحدين وفلهم بكرة سبت، فأوقع بهم وامتلأت أيدي بني مرين من أسلابهم وانتزعوا الآلات من أيديهم، وصار إليه كتيبة الروم والناشبة من الغزو، واتخذ الموكب الملوكي وهلك الأمير عبد الله بن السعيد في جانب الملك اللجمة، فلما بلغ الخبر على مراكش قام بأمر الموحدين بها أبو حفص عمر بن أبي إسحق بن أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن بن علي، وذلك أنه ملك السعيد وولده عبد الله وبلغ الخبر إلى مراكش.

بذلك اجتمع الموحدون وكتبوا بيعتهم على أبي حفص عمر المذكور، واستقدموا لها مرسلاً فلقيه وفدهم بتامسنا من طريقه ومعه أشياخ العرب فبايعوه وتلقب بالمرتضى، ودخل مراكش في جمادى الآخرة من عام ستة وأربعين وستمئة، وفي سنة سبع وأربعين نزل الفرنسيس ملك النصارى على القاهرة وحاصرها حصاراً شديداً إلى أن أسر بها فبعث إلى السلطان به وهو الملك المعظم ابن الملك الصالح ابن الملك الكامل ابن الملك العادل ابن نجم الدين أيوب الكردي، وهو أخو ملك بني أيوب فطلبه أن يعطيه مالاً كثيراً يعظم وصفه على أن يطلقه.

فشاور الملك المعظم الأتراك على ذلك فأبوا إلا قتله، فخالفهم ومال إلى الصلح معه سراً ففطنوا بذلك وأرادوا قتله، فتحصن منهم في برجه فأحرقوا عليه البرج، فألقى نفسه منه في

النيل، فدخلوا عليه وقتلوه في الماء فمات قتيلاً! حريقاً غريقاً، وبه انقرضت دولة بني أيوب بعد مكثهم في الملك ثمانين سنة وأربعة أشهر وأياماً قلائل، وانتقل الملك إلى الأتراك البحرية.

وفي ليلة الجمعة الثانية والعشرين من جمادى الآخرة سنة سبع وأربعين وستمئة توفي المولى أبو زكريا يحيى صاحب تونس في محلته بظاهر بونة، ودفن في الغد بجامع بونة إلى جانب الشيخ الصالح أبي مروان، ثم نقل بعد ذلك على قسطنطينة ودفن بها، وكانت ولايته بمراكش سنة تسع وتسعين وخمسمئة وكان عمره تسعاً وأربعين سنة، وكانت خلافته بتونس عشرين سنة ونصف سنة.

وتولى بعده البلاد الإفريقية ولده وولي عهده السلطان أبو عبد الله محمد ابن المولى الأمير أبي زكريا يحيى ابن الشيخ أبي محمد عبد الواحد ابن الشيخ أبي حفص بويع لولاية ببونة، وكان الذي أخذ له البيعة على الخاصة وسائر أهل العسكر عمه محمد اللحياني، وكان طويل اللحية، ثم بويع بعد وصوله من ببونة على حضرة تونس، وذلك في يوم الثلاثاء من رجب من سنة سبع وأربعين وستمئة، وهو ابن اثنتين وعشرين سنة أمه رومية اسمها عطف وتسمى بالأمير.

ولم يتسم بأمير المؤمنين إلا في يوم الإثنين الرابع والعشرين من ذي الحجة من سنة خمسين وستمئة، وذلك لما قدمت عليه البيعة من مكة بإنشاء عبد الحق ابن سبعين وقدمت عليه بيعة الشام والأندلس وتلقب بالمستنصر بالله، وكان كاتب علامته وانعتاقه أبو العباس أحمد بن إبراهيم الغساني كانت بعلامة أبيه، واستوزر محمد ابن أبي مهدي الهتاتي وفي الثامن والعشرين من شهر بيعته قبض على القائد كافور وسجنه بالمهدية.

وفي سنة ثمان وأربعين ثار عليه بتونس ابن عمه أبو عبد الله محمد اللحياني بمداخلة الوزير ابن أبي مهدي، فبعث المستنصر جيشاً! مع قائده ظافر فالتقى معه بالمصلى الذي خارج باب المنارة، فقتله القائد ظافر وقتل معه ابن أبي مهدي ومَن قام معه، وسار القائد ظافر إلى دار اللحياني هم السلطان فقتله وقتل في طريقه أخاه أبا إبراهيم ابن الشيخ أبي محمد ابن الشيخ أبي حفص، وجاء برؤوسهم إلى المستنصر.

ثم بعد خمود هذه الثائرة سعوا للمستنصر بمولاه القائد ظافر وقبحوا عنده ما فعل من الافتئات في قتل عمه اللحياني من غير جرم، ونذر ظافر بذلك فخشي البادرة لوحق بالذواودة، وكان المتولي لكبر هذه السعاية هذه مولى السلطان فعقد له السلطان مكانه، وفي هذه السنة بنيت السقاية شرقي جامع الزيتونة وفيها ابتدئ البناء في رياض أبي فهر، وفيها جعلت الشكلة لليهود بتونس، وفي شهر جمادى الآخرة منها نصبت المقصورة بجامع الموحدين.

وفي يوم الإثنين الرابع والعشرين من ذي الحجة من سنة خمسين وستمئة رأى المولى المستنصر الاقتصار على لفظ الأمير قصوراً فتسمى بأمير المؤمنين، وأمر أن يذكر ذلك في الخطبة ويطبع في الذهب، وفي ذلك اليوم تلقب بالمستنصر بالله كما مر واختار للعلامة – الحمد لله والشكر لله – فبايعه الناس بذلك البيعة العامة وأتبع ذلك برد المظالم، واتفق أن كان المطر قد احتبس ففي ثالث يوم من هذه البيعة نزل المطر فهناه الشعراء بذلك.

ثم رأى شيخ الدولة أبو سعيد عثمان المعروف بالعود الرطب حين تقرر من أمر العلامة ما تقرر أن الأوامر السلطانية قد تنفذ بأمور صغيرة لا ينبغي الكتب بمثلها عن الخليفة، فقسم الكتب إلى علامة صغيرة وكبيرة فالأوامر الكبيرة الصادرة عن الخليفة تكفي بالعلامة التي وقع الاختيار عليها، والكتب الصغيرة التي يكبر قدر الخليفة عنها تكتب عما يعينه الخليفة لذلك، وتنفذ بعلامة أخرى تشعر بأن ذلك عن أمر الخليفة، فانقسمت العلامة إلى كبرى وصغرى فالكبرى موضعها في أول الكتاب بعد البسملة، والصغرى معلمة في آخره لصدوره عن الخليفة.

وفي يوم الخميس الخامس من ربيع الأول من السنة المذكورة توفي بتونس الشيخ الصالح الحاج أبو هلال عياد بن مخلوف التميمي الزيات، ودفن بجبانته المعروفة بجبانة الشيخ الصالح أبي زيد عبد الرحمن المناطقي، وفي سنة إحدى وخمسين وستمئة بني قبة الجلوس بتونس التي بأساراك المشرفة على باب ينتجمي، وبنى الممشى من القصبة إلى رأس الطابية لكي تحتجب فيه حرمه وأوصله إلى رياض أبي فهر.

وفي أوائل سنة ست وخمسين وستمئة تحرك خاقان ملك التتار لأخذ بغداد من يد صاحبها السلطان المعتصم، كان مولعاً بالحمام حتى جمع منه عشرين ألفاً وكان سنياً واتخذ وزيراً رافضياً يعلن بسبِّ أبي بكر وعمر ورضي الله عنهما لا يستتر بذلك، وكان الجيش مئة ألف وثلاثة عشر ألفاً، فلما ظهر التتار وغلبوا على خراسان وأعمالها عمل هذا الوزير اللعين على فساد ملك بني العباس من العراق، فأخذ خاقان المعتصم وقتله في ثلاثة عشر ألف فقيم غرس سواهم في حكاية طويلة وذلك في يوم الإثنين السابع عشر من صفر سنة ست وخمسين وستمئة، وأقام القتل في بغداد والنهب نحواً من ثمانية أيام وانقرضت دولة بني العباس وفني ملكهم.

وجملة ملوك بني العباس من السفاح إلى المعتصم أربعون ملكاً ومدتهم خمسمئة سنة وأربع وعشرون سنة غير أربعة وثلاثين يوماً! فسبحان مدبر الأمور ومقلب الليل والنهار لا إله إلا هو، وفي سنة سبع وخمسين عزل السلطان القاضي عبد الرحمن عن قضاء تونس، وقدم الفقيه أب القاسم بن علي بن البرا المهدوي، ثم أخره عن القضاء، وقدم أبا موسى عمران بن معرم الطرابلس، وكان فقيهاً صالحاً حسن الأخلاق وطيء الجانب حافظاً للمذهب عارفاً! بالمسائل بصيراً بالأحكام، ولي قضاء بلدة طرابلس والخطبة والصلاة بجامعها، ثم نقل عنها إلى حضرة تونس قدم سنة ثمان وخمسين فلم يزل قاضياً إلى أن توفي.

وفي صبيحة يوم الثلاثاء الحادي والعشرين للمحرم عام ثمانية وخمسين المذكور أمر السلطان المستنصر بقتل الفقيه الأديب العالم الناظم الناثر الحجة أبي عبد الله محمد بن أبي بكر القضاعي عرف بابن الأبار، فقتل بعد أن صوب بالسياط كثيراً! بمقصورة المحتسب من تونس خارج باب ينتجمّي، ثم ندم السلطان بعد ذلك على قتله، وكان سبب قتله أن جرى يوماً في المجلس ذكر مولد الواثق ابن الخليفة، فلما كان من الغد جلب بطاقة يعرف بها ساعة المولد والطالع، فلما وقف المستنصر عليها قال: هذا فضول ودخول منه فيما لا يعنيه من أمورنا، وأمر بتثقيفه بسقيف القصبة، وبعث إلى داره الغساني وبينهما من العداوة ما يكون بين صاحب [illegible] أحدهما من يد الآخر، فوجد في تقاييده أبياتاً منها:

فلما قرأها السلطان أمر بضربه ضرباً شديداً، ثم قتل مشنوقاً بالرماح وأخذت كتب وتقاييده فأحرقت في موضع قتله وكانت نحو خمسة وأربعين تأليفاً، وحكى المرادي أن البيت الذي وجد له يقتضي جاء الخليفة هو قوله: عق أباه وجفا أمه، ولم يقل من عشرة عمه، فالله أعلم.

وفي أول يوم من المحرم فاتح سنة تسع وخمسين وستمئة أمر السلطان بالقبض على أبي العباس أحمد اللبان، وكان أصله من لليانة من ضياع المهدية وتعلقت همته بقراءة الأدب والفقه حتى أشهر إليه في ذلك ووضع تقييداً على المدونة، ثم إنه تهالك على الخطط المخزنية وساعده السعد فيها، فأخذ ديوان البحر وغيره وسعى به ابن أبي الحسين وغيره زعموا أنه اختزن لنفسه مالاً جليلاً، وأنه عزم على أن يحدث ثورة في المهدية.

وامتلأ صوت السلطان من هذا فلم يشعر وهو في منزله حتى وصل قائدان من العلوج وهاجما داره، وأخذا صندوقه فوجدا فيه ذخائر من يواقيت وزمرد ولولو فقيل له: ما هذا وأنت تزعم الأمانة ؟ فقال: إنما ادخرتها لمولانا السلطان، فقيل له: حسن قد وصل اليد، ثم قبض عليهم بعد ذلك وطولب بمال كبير فأحضره، وبرح بعد أيام فاستشر بزوال النعم وعزم على الفرار في مركبه إلى جزيرة صقلية فبلغ الخبر إلى السلطان، واستخفى إلى أن صلح حاله وخرج.

فلما كان أول يوم من المحرم سنة تسع وخمسين حصر الغساني بين يدي السلطان في القبة الكبيرة فنزل المطر فقال السلطان: اليوم يوم المطر، فقال الغساني: ويوم رفع الضرر فقال السلطان: إيه فما بعدها ؟ فقال الغساني: والعام عام تسعة كمثل عام الجوهري، فأحضر السلطان أشياخ الرأي وقال: اسمعوا ما قال الغساني، وجعل يردد البيت، ثم قال: ينبغي أن لا يرجع عن هذا اقبضوا على اللياني لنوصي به الله والخاصة والعامة، فقبض عليه ومن الغد قبض على ابن العطار.

وكان ابن العطار يلي أشراف تونس، ثم أشراف بجاية، ثم جعل على مختص الحضرة، فجعلا بمكان واحد بالقصبة ووكل بضربهما، وطلب المال منهما أبو زيد بن نعمون الهنتاني، قالوا: كانا يحملان في قيودهما يحجلان فيها، ثم يركبان جارين ويخرجان من الباب الكبر فيحمل اللياني والأموال تؤخذ منه كل يوم إلى أن فرغ ما عنده، وتحصل منه ما شاع نحو ثلاثمئة ألف دينار فحمل إلى دار السكة، وعذب إلى أن مات، ثم أخرجت جثته إلى الصبيان يجرونها ورموها في البحيرة، وسرح ابن العطار ورد إلى دار المختص فنسي مصابه بما آل إليه أمر اللياني.

وفي سنة تسع وخمسين توفي الشيخ الصالح المعروف بأبينا عبد الله ودفن بجبانة الشيوخ بالمرسى، وفيها وصلت بيعة مكة شرفها الله على يد الشيخ أبي محمد عبد الحق بن سبعين، وكان الواصل بها المحدث الرواية أبو محمد بن برطلة وأنشد بعض الشعراء:

اهنأ أمير المؤمنين ببيعة ... وانشك بالإقبال والإسعاد

فلقد حباك بملكه رب الورى ... فأتى يبشر بافتتاح البلاد

وإذا أتت أم القرى منقادة ... فمن المبرة طاعة الأولاد

وفي السنة المذكورة توفي الفقيه المحدث أبو بكر بن سيد الناس وفيها توفي المطرف بن عميرة والقاضي التوزري وأبو محمد يوسف بن ياسين، وفي سنة ستين وستمئة في شهر ربيع منها صنع الخدوس وهي فلوس النحاس بتونس ليتصرف الناس بها وقطعت في شوال من السنة المذكورة، وفي عشار ربيع الآخر من سنة ستين توفي قاضي الجماعة بتونس أبو موسى عمران بن معمر الطرابلسي، وتولى بعده أبو عبد الله محمد بن علي بن إبراهيم المهدوي المعروف بابن الخباز، وفيها توفي الشيخ الصالح المعروف بالصقلي المتقدم الذكر.

وفي ثالث شهر رمضان من سنة ثنتين وستين عزل ابن الخباز عن القضاء وقدم الفقيه أبو العباس أحمد بن الغماز، وفي الربع من ربيع الأول من السنة المذكورة توفي بتونس الفقيه الإمام المصنف عبد العزيز بن إبراهيم القرشي شهر بابن نويرة شارح الإرشاد، وفي سنة ست وستين

وستمئة كمل السلطان إصلاح الجنابة وصرفها إلى أبي فهر، وفي رابع شهر ربيع الآخر من السنة المذكورة قدم لقضاء الأنكحة لتونس الفقيه محمد بن الرايس الربعي.

وفي رابع شوال من سنة سبع وستين أخر القاضي الغماز وقدم الفقيه الصالح أبا العباس أحمد بن إبراهيم المفسر، ثم في التاسع عشر من ذي القعدة من العام المذكور أعيد لقضاء الفقيه ابن الخباز المقدم ذكره، وفي سنة ثمان وستين وستمئة قرنت ببيعة صاحب المغرب الأقصى الأمير أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق على المولى المستنصر، وفي السنة المذكورة توفي الكاتب للإنشاء والعلامة الفقيه أحمد الغساني فقدم للعالمة أبو عبد الله محمد بن الحسن، وللإنشاء ابن الرايس الربع وأخر ابن الرايس الربعي عن قضاء الأنكحة في منسلخ شوال من السنة المذكورة.

وفي ليلة الأحد الخامس والعشرين من ذي القعدة من سنة تسع وستين توفي الأستاذ النحوي أبو الحسن علي بن موسى الحضرمي عرف بابن عصفور بتونس ولد بإشبيلية سنة سبع وتسعين وخمسمئة، وكان سبب موته فيما نقل عن الشيخ أحمد التلجاني، وغيره أنه دخل على السلطان يوماً وهو جالس برياض أبي فهر في القبة التي على الجابية الكبيرة فقال السلطان على جهة الفخر بدولته: قد أصبح ملكنا الغداة عظيماً، فأجابه ابن عصفور بأن قال: بنا وبأمثالنا، فوجدها السلطان في نفسه، فلما قام الأستاذ ليخرج أمر السلطان بعض رجاله أن يلقيه بثيابه في الجباية المذكورة.

كان ذلك اليوم شديد البرد، ثم قال لمن حضره: لا تتركوه يصعد؛ مظهراً اللعب معه، فكلما أراد الصعود ردوه وبعد صعوده أصابه برد وحمة بقي ثلاثة أيام وقضى نحبه فدفن بمقبرة ابن مهنا قرب جبانة الشيخ ابن فليس شرقي باب ينتجمّي أحد أبواب القصبة، وفي يوم الأربعاء حادي عشر شوال من سنة تسع وستين توفي أبو عبد الله محمد بن أبي الحسين فعُين بعده لكتابة العلامة أبو الحسن علي بن إبراهيم بن أبي عمر فكتبها إلى أن توفي في الثالث والعشرين من ربيع الثاني من عام أربعة وسبعين، فعين لها بعده أبو عبد الله محمد بن الرايس فكتبها إلى أن توفي المستنصر.

وقدم بعد ابن أبي الحسين للتنفيذ الفقيه الشهير أبو القاسم أحمد بن يحيى بن أسد ابن الشيخ الأنصاري، وفي يوم الأحد رابع عشر جمادى الآخرة سنة خمسة وسبعين وستمئة ابتدأ السلطان المستنصر المرض الذي مات منه وكان مسافراً، فأصابه ذلك بعين إعلان فسيق إلى تونس في محفة على أعناق الرجال في خسوف القمر، وأدخل إلى قصبته وكثر إرجاف الناس بموته، فجعل يوم عيد الأضحى في محفة من خشب وأصعد إلى قبته وراءه الناس وتجلد لإظهار حركة علم منها أن فيه بقية رمق، ثم عاد إلى منزله وتوفي من ليلته بعد صلاة العشاء الأخيرة ليلة الأحد الحادي عشر من ذي الحجة سنة خمسة وسبعين وستمئة، وكانت خلافته ثمانية وعشرين عاماً وخمسة أشهر واثني عشر يوماً.

ويقال: إن أصل مرضه أنه كان في صيادة فقام بين يديه وحش فطردته الجوارح فدخل مغارة ودخل وراءه الرجال، فألفوا بها رجلاً قائماً يصلي فسلم من صلاته وقال لهم: هذا دخيل الفقراء اتركوه. فذهبوا إلى السلطان فعرفوه فقال لهم: ائتوا بالصيد، فرجعوا إلى المرابط فمنعهم منه فرجعوا إلى السلطان فقال لهم: إن منعكم أعطوه الرماح، فرجعوا إلى المرابط وعرفوه فقال لهم: وأنا قد أمرت للسلطان بالرماح، ثم طلبوه فلم يجدوه وسقط السلطان من حينه مغشياً عليه، ثم أفاق بعد زمان، ولم يزل ذلك المرض بتعامده إلى أن توفي!.

وفي السنة المذكورة توفي الملك الظاهر صاحب مصر، وفيها تولى المولى الأمير أبو زكريا يحيى ابن السلطان المستنصر ابن المولى الأمير أبي زكريا يحيى ابن الشيخ أبي محمد عبد الواحد ابن الشيخ أبي حفص إقدام ولد رومية اسمها ضرب ولد سنة سبع وأربعين وستمئة، بويع ليلة مات أبوه ليلاً فأصبح خليفة وبايعه من بقي في صبيحة تلك الليلة وتلقب بالواثق، وكانت ولايته على يد أبي عثمان سعيد بن أبي يوسف بن أبي الحسين صاحب الأشغال بتونس، وهو ابن عم أبي عبد الله محمد ابن أبي الحسين منفذ أبيه!

ولما تمهد للواثق الأمر اتخذ لنفسه كاتباً الفقيه يحيى بن عبد الملك الغافقي المكنى بأبي الحسن ويعرف بابن الجبير، فاستبد بأمور مملكته وكان يعادي أبا عثمان سعيد بن أبي الحسين، فما زال يغري به الواثق حتى أخذه يوم السبت الثاني من جمادى الآخرة من سنة ست وسبعين

وستمئة، وثقفه في الدار المعروفة بدار الجوهري داخل القصبة، وضربه حتى استأصل ماله وسلط عليه من العذاب ما أتلفه، وتوفي يوم الخميس الثاني عشر من ذي الحجة من العام المذكور، وأخرجت جثته إلى دار صاحب الشرطة.

ووجد إلى خادميه ابن صياد الرجالة وابن ياسين وقيل لهما: فهذا صاحبكما قد مات فأخبرا بموضع ذخائره، فأنكرا وثقفا فالتزم ابن ياسين مالاً، وأداه وأطلق وقتل ابن صياد الرجالة تحت العذاب، وفي يوم أخذ أبي عثمان ابتدأ العمل بالإصلاح والتهذيب والكسوة في جامع الزيتونة، وتم العمل يوم الخميس الخامس عشر من شعبان من العام المذكور.

ومن غريب الاتفاق أن ابن أبي الحسين لما قتل أصاب حائط الدويرة شيء من دمه، ثم بعد ذلك بيسير ثقف أبو الحبير بالدويرة المذكورة، فكان أول ما سأل عنه حين أدخل إليها الدم المذكور، فأخبر أنه دم ابن أبي الحسين فاشتد جزعه وعظم خوفه، ولم يمض إلا يسير حتى اجتمع دمه بدم منكويه في ذلك الحائط، وضرب من السياط قدر ما ضرب ابن أبي الحسين، وأظهر من المال قدر ما ظهر لابن أبي الحسين وسلط عليه العذاب حتى مات كما مات ابن أبي الحسن، وكان أشد الناس على ابن الحبر عبد الوهاب ابن قائد الكلامي، وبمثل موقعنا أيضاً مات حسبما يذكر بعد إن شاء الله تعالى.

وكان الواثق في أول أمره قد سرح المسجونين وأمر برفع المظالم وإحراق أزمة الخطايا والمكوس، والنظر في بناء جامع الزيتونة وغيره من المساجد وأحسن إلى الجند، غير أنه لم يمسك بعنان الملك حق الإمساك حتى اشتد عليه ابن الحبير كما تقدم، وكان ابن الحبر هذا كثير الإعجاب بنفسه مفرطاً في التعسف والكبر مشتغلاً بالبناء والملاهي واقتناء الأثاث، ولا يحسن شيئاً من تدبير الملك وسياسة الرعية فأفضى استبداده إلى فساد الحال وتغير القلوب عليه.

وكان قد قاد أخاه أبا العلاء إدريس ولاية الأشغال ببجاية فصدر منه بها من الاستبداد والتعسف ما صدر من ابن الحبير بتونس، إلى أن تآمر عليه محمد بن أبي هلال صاحب الأشغال ببجاية مدة المستنصر وقتله، ووافق ذلك حلول الأمير أبي إسحق ابن أبي زكريا عم

الواثق بتلمسان؛ لأنه كان عند بلوغ الخبر إليه بوفاة أخيه المستنصر، وفساد الحال بتونس قد أجمع أمره على الإجازة لطلب حقه بالملك بعد ما تردد مدة وقام لمورده بتلمسان ابن زيان يغمراسن المتقدم ذكره، واحتفل في مبرته فانتهز ابن أبي هلال ومن وافقه على قتل إدريس الفرصة خيفة من بوادر ابن الجبير، وأوفدوا وفدهم للأمير أبي إسحق يستحثونه على القدوم فأجابهم ودخل إلى بجاية وبايعه أهلها.

ثم زحف منها إلى قسنطينة وبها إذ ذاك عبد العزيز بن عيسى بن داود أحد أقرباء ابن الحبر فامتنعت عليه فأقلع عنها زاحفاً إلى جهة الخضرة، وكان الواثق في أثناء ذلك جهز العساكر بتدبير ابن الحبر لمصادمة عمه الأمير أبي إسحق وعقد عليها لعمه الأمير أبي حفص، واستوزر له أبا زيد بن جامع، ولكن عند حلول المحلة ببجاية اضطرب رأي ابن الحبر في خروج أبي حفص وأراد انفضاض عسكره فحمل الواثق على أن يكتب لعمه أبي حفص ووزيره ابن جامع يغري كل واحد منهما بصاحبه فتفاوضا، واتفقا على الدعاء للأمير أبي إسحق وبعثا إليه بذلك.

ولما بلغ الخبر إلى الواثق وهو بتونس متبذاً عن الحامية والبطانة أيقن بذهاب ملكه فخلع نفسه وبايع لعمه أبي إسحق، وذلك يوم الأحد الثالث لشهر ربيع الثاني عام ثمانية وسبعين وستمئة، فكانت خلافته سنتين وثلاثة أشهر واثنين وعشرين يوماً، وحكى الغرناطي أنه خلع نفسه لعمه يوم الجمعة من ربيع الأول سنة تسع وسبعين، وفي سنة سبع وسبعين وستمئة توفي الفقيه القاضي المفتي أبو القاسم بن علي بن عبد العزيز بن البراء التنوخي.

ولما خلع الواثق نفسه تولى بعده عمه المولى الأمير أبو إسحق إبراهيم ابن المولى أبي زكريا ابن الشيخ أبي محمد عبد الواحد ابن الشيخ أبي حفص، أمه أم ولد اسمها رويدا، ولد سنة إحدى وثلاثين وستمئة ووصل من تلمسان إلى بجاية يوم عيد الأضحى سنة سبع وسبعين وستمئة، وصلى بالمصلى هناك صلاة العيد ودخل بجاية من يومه، ودخل تونس يوم الثلاثاء الخامس من ربيع الآخر سنة ثمان وسبعين وستمئة، وقال الغرناطي: سنة تسع وسبعين وجددت له البيعة يوم الأربعاء.

وانتقل الواثق المخلوع من القصبة إلى دار الغوري بالكتبيين وسكن بها أياماً، ثم إن السلطان سمع عنه أنه بعث إلى قائد النصارى وتحدث معه أن يثور على عمه بليل فرف للقصبة هو وبنوه، وكانوا ثلاثة الفضل والظاهر والطيب، فثقفوا بها وذبحوا جميعاً في صـ سنة تسع وسبعين وستمئة، وفي ثالث يوم من دخول السلطان أبي إسحق لتونس أخذ ابر الجبير رئيس دولة الواثق وقتله تحت العذاب كما تقدم.

وكان السلطان أبو إسحق فيه غلظة وشجاعة وكان لا ينظر في عواقب الأمور، فكا ولده الأمير أبو زكريا يرد عليه أكثر أوامره بالتلطف، واستولت العرب في أيامه على القر وهو أول من كتب البلاد الغربية بالظهارة للعرب، وفي أول ولايته قدم على علامته بتونس الفقيه أبا محمد عبد الوهاب ابن قائد الكلاعي فاستمر على ذلك إلى يوم السبت الخامس عشر من صفر من عام سبعة وسبعين، ففي هذا اليوم خاف على نفسه واختفى لما سنذكره، فقدمه مرضه على العلامة الكبرى الفقيه القاضي أحمد بن الغماز وعلى الصغرى إبراهيم بن محمد بن الرشيد فكتباهما إلى أن انقرضت دولة السلطان أبي إسحق.

وفي يوم الأحد الموفي عشرين من ربيع الثاني من سن تسع وسبعين قتل أبو العباس أحمد بن أبي بكر بن سيد الناس اليعمري، وكان سبب قتله أنه انتهى إلى السلطان أبي إسحق أن يغض دولته ويتسبب في زوالها، فاستدعاه السلطان لرأس الطابية فجاء مسرعاً، فلما حضر خرج عليه رجال شهروا سيوفهم فأيقن بالموت وتشهد فقتل علي حالته وحفر له حفرة رمى فيها، وكان أبو العباس أحمد هذا يخدم الأمير أبا فارس ابن السلطان أبي إسحق في خفية حين كان في ثقاف عمه.

فلما بلغ الأمير أبا فارس خبر قتله أقبل لابساً ثياب الحزن إلى أبيه فاستدعاه والده وآنسه وعرفه أنه كان فاسد النية، وأزال عنه ثياب الحزن بيده واستبلغ في تانيسه، ثم عقد له على بجاية وأعمالها، وأنفذ معه حاجبه محمد ابن أبي بكر بن الحسن بن خلدون، وكان لأبي محمد عبد الوهاب الكلاعي في قتل ابن سيد الناس أكبر سعي، فحقد عليه لذلك الأمير أبو فارس، ولم يزل يحض أباه على القبض عليه إلى أن قبض عليه وأخذ ماله، وبقي متفقاً إلى أن قام

الدعي وعزم السلطان أبو إسحق على التوجه إلى بجاية، فأرسل حينئذ من قتله في السجن وذلك في العشر الأواخر من شوال سنة إحدى وثمانين وستمئة.

وفي رجب من سنة تسع وسبعين وستمئة أخر الفقيه أبو العبس أحمد بن حسن بن الغماز عن القضاء، وقدم الشيخ الفقيه أبو محمد عبد الحميد بن أبي الدنيا، ثم عزل في شهر رمضان من السنة المذكورة، وقدم الفقيه أبو القاسم بن زيتون، وفي الليلة السادسة والعشرين لهذا الشهر والسنة قتل الشيخ أبو عبد الله محمد ابن أبي هلال المقدم ذكره ذبحاً بعد الصفاء بأمر السلطان أبي إسحق.

فرجع إلى تونس ورحل الدعي من قفصة إلى القيروان فدخلها وبايعه أهلها، وجاءته فيها بيعة المهدية ومفاقس وسوسة، ثم خرج السلطان أبو إسحق من تونس لمقابلته في جيش عظيم ونزل المحمدية في العشر الأواسط من شوال من السنة نفسها وأخرج من العدد حمل تسعين بغلاً، فنهب ذلك كله من منزل المحمدية وفر أكثر الناس عنه إلى الدعي، ثم فرَّ إلى الدعي الشيخ أبو عمران موسى بن ياسين في جماعة عظيمة من الموحدين، فالتقى به على مقربة من شاذلة وبايعه.

ورجع السلطان أبو إسحق إلى سبخة تونس حتى أخرج نساءه وأولاده من المدينة، وارتحل مغرباً فلقي شدائد وأهوالاً من الأمطار والثلوج والجوع والخوف، فكان يبذل الأموال لقبائل مصانعة على نفسه وأولاده وأهله حتى وصل إلى قسنطينة، فأخلفا صاحبها أبو محمد عبد الله بن توفيان الهرفي في وجهه فطلب منه ما يأكل، فأنزل له من أعلى السور الخبز والتمر فأكلوا ورحل من يومه إلى بجاية فمنعه ولده أبو فارس عبد العزيز الدخول إليها، فأقام بروض الرفيع على شطي وادي بجاية وسكن بقصر الكوكب.

وكان فراره من تونس ليلة الثلاثاء الخامس والعشرين من شوال المذكور، فدخل الدعي إلى تونس وبويع بها على أنه الفضل بن أبي زكريا يحيى الواثق، وإنما هو أحمد بن مرزوق بن أبي عمارة المسيلي أمه فرحة من فوان من بلاد الزاب مولده بمسيلة سنة ثنتين وأربعين وستمئة، وتربيته ببجاية وكان خامل الثناء كثير التطور مرت له مغالطة عظيمة على الناس كلهم،

وخطل له بهذا الافتراء على منابر إفريقية ولقد أحسن ابن الخطيب الأندلسي حيث قال يشير إلى قضيته:

غريبة من لعب الليالي ما خطرت لعاقل ببال

وكان الدعي قتالاً سفاكاً للدماء ظالماً يظهر قطع المنكر وباقيه ويوم دخوله تونس عدا العرب في الناس فأخذ منهم ثلاثة وضرب أعناقهم وصلبهم، ثم أخرج جيشه وأمر عليه شيخ الموحدين الشيخ أبا محمد عبد الحق بن نافراجين، وأمره بقتل من ظفر به من العرب ورفع عن الناس الأموال، وكانوا يلقون مدة أمراً عظيماً ومات يوم دخوله لتونس في زحام باب المنارة ثلاثة عشر رجلاً منهم الفقيه القاضي أبو علي حسن بن معمر الهواري الطرابلسي.

وفي ثاني يوم من دخوله لتونس الثامن والعشرين من شوال المذكور وقدم لعلامته صاحب الدولة أبا القاسم أحمد بن يحيى بن الشيخ فكتبها له إلى أن انقرضت دولته، وقدم لوزارته أبا عمران موسى بن ياسين وقبض على صاحب الأشغال أبي بكر بن الحسين بن خلدون، وأخذ ماله وقتله خنقاً وصرف خط الحجابة إلى عبد الملك بن مكي.

وفي الخامس والعشرين من يوم دخوله أخذ أمراء العرب الملاقين له وكانوا نحواً من ثمانين، وفي يوم السبت بعده أخذ الزناقيين وأخرجوا من القصبة إلى السجن عراة، وكانوا نحواً من ثلاثمئة وخمسين وفيه أخذ النصارى وكانوا نحواً من مئة وثمانين فارساً، وفي الثالث والعشرين من ذي الحجة أخذ قرابة السلطان أبي إسحق كلهم وسجنهم واستأصل أموالهم، وهم بقتلهم فمنعهم الله منه.

وفي الثاني عشر من صفر سنة اثنتين وثمانين وستمئة خرج الدعي من تونس يريد بجاية لما أحس بخروج الأمير أبي فارس صاحبها إليه، وفي تاسع عشر صفر المذكور وصل الأمر من المحلة لتونس بقطع الخمر، وهدم الفندق الذي تباع فيه وبنى موضعه جامع للخطبة وعمومه، وأقيمت فيه الصلاة في الموفي عشرين من شعبان من السنة المذكورة، وكان الأمير أبو فارس صاحب بجاية قد جيش الجيوش وجمع الجموع وخرج قاصداً لقاء الدعي، وخرج

عمه الأمير أبو حفص عمر خلفه بتاج على رأسه تعظيماً له؛ لأنه جرت عادة ملوك هذه الدولة الحفصية باستعماله، وإنما ترك من دولة اللحياني إلى هلم جراً.

فالتقى الجمعان بفج الأبيار قريباً من قلعة سنان يوم الإثنين الثالث من ربيع الأول سنة اثنتين وثمانين المذكورة، فكان يوماً ما له من يوم عظيم خانت فيه أبا فارس الأنصار واحتوته الأدبار، فقتل وقطع رأسه ونهبت محلته وأخذت مضاربه وخزائنه، وسيق برأسه إلى الدعي، ثم سيق أخوه عبد الواحد حيا فقتله الدعي، ثم سيق أخوه عبد الواحد حيا فقتله الدعي بحربة كانت بيده، ثم سيق أخواه لأبيه عمر وخالد فأمر بقتلهما فقتلا صبراً، ثم سيق محمد ابن أخيه عبد الواحد فأمر بقتله فقتل وفي مثلهم ينشد:

أرادوا فــــــراراً ولكـــــــنهم عــلى فـج الأبيـار مـاتوا جميعـا

وأنشد أيضاً:

نحـــن أنـــاس لا توســـط عنـــدنا لنـا الـصدر دون العـالمين أو القـبر
تهـون علينـا في المعـالي نفوسـنا ومـن يطلـب الحسناء لم يغلـه المهر

فكانت ولاية أبي فارس ببجاية وأحوزها ثلاثة أشهر وثلاثة عشر يوماً وسيقت رؤوسهم إلى تونس، فطيف بها على أطراف الرماح في الأسواق في يوم الخميس السادس من ربيع الأول من سنة ثنتين وثمانين المذكورة وعلقت على باب المنارة، ولم ينج منهم إلا الأمير أبو حفص ابن الأمير أبي زكريا فإنه فرَّ إلى قلعة سنان وهو على رجليه ولاذ به في ذهابه إلى القلعة ثلاثة من صنائعهم أبو الحسن بن أبي بكر بن سيد الناس والوزير ابن الفزاري ومحمد ابن أبي بكر بن خلدون، وربما كانوا يتناقلونه على ظهورهم إذا أصابه الكلل إلى أن بلغ القلعة وتحصن بها.

وأما الأمير أبو زكريا ابن الأمير أبي إسحق فإنه كن بقي نائباً ببجاية ومعه الشيخ أبو زيد الفزاري ولما بلغ خبر الوقعة إلى بجاية اضطربت اضطراباً شديداً، واجتمع الناس في الجامع الأعظم وفيهم القاضي أبو محمد عبد المنعم ابن عتيق الجزائري، ومعه ابنه فتكلم بكلام أغضب به العامة فوثبوا على الولد فقتلوه في المحراب، وحلوا القاضي من مجلس حكمه إلى

السجن، ثم إلى البحر وصرفوه إلى بلدة الجزائر، وخاف الأمير أبو إسحق على نفسه فخرج هارباً من القصبة يريد تلمسان، ومعه ابنه الأمير أبو زكريا وعامة أهل بجاية يتبعونه.

فخرج أهل بجاية في طلبه مع الشيخ أبي عبد الله محمد بن سرغين فأدركوه في جبل بني غبرين، وقد سقط عن فرسه واندقّت فخذه ونجا ابنه الأمير أبو زكريا إلى تلمسان، وكان له بها أخت في عصمة والي تلمسان عثمان بن يغمراسن بن زيان فأكرمه، ورحت به وأخذ الأمير أبو إسحق ورد إلى بجاية فدخلها راكباً على بغلة عليها بوذعة، وألقي بدار بحومة ساباط الأموي ببجاية إلى أن أرسل الدعي في قتله محمد بن عيسى بن داود الهنتاتي.

فقتله يوم الخميس السابع والعشرين من ربيع الأول المتقدم ذكره، ثم رفع رأسه إلى تونس، وطيف به على عصا في الأسواق والسفهاء يضحكون والنساء يولولْن، وفي ذلك اليوم عبرة المعتبرين، وذلك سادس عشر ربيع الثاني من السنة المذكورة وقيل في ذلك:

فقل للشامتين بنا أنيخوا ... سيَلقى الشامتون كما لقينا

وفي السنة المذكورة توفي القاضي أبو زيد بن نفيس وفي يوم الثلاثاء الخامس عشر من المحرم سنة ثلاث وثمانين وستمئة قبض الدعي على شيخ دولته أبي عمران بن ياسين؛ لأنه سمع عنه أنه كتب للأمير أبي حفص عمر أنه يرد الغرر به، وأخذ معه الشيخ أبا الحسن بن ياسين والشيخ ابن وانودين والحسين بن عبد الرحمن الزناتي سلط على جميعهم العذاب وضرب ابن ياسين بالسياط ومرات، ثم ضرب عنقه عشية الخميس ثاني صفر من السنة المذكورة وقتل ابن وانودين أيضاً.

وفي يوم قتله خرج مسافراً يريد قتال الأمير أبي حفص؛ لأنه ظهر عند العرب وعظم سلطانه في البلاد، واجتمع عليه خلق كثير لكون الدعي كان أساء في العرب، وقتل منهم فسمعوا بالأمير أبي حفص في قلعة سنن فرحلوا إليه وآتوه ببيعتهم في ربيع الأول من السنة المذكورة، وجمعوا له شيئاً من الآلات والأخبية، وقام بأمره أبو الليل بن أحمد شيخهم.

وبلغ الخبر الدعي فخرج من تونس يريد القتال فأرجف به أهل عسكره ومالت أنفسهم إلى الأمير أبي حفص، فلما تبين ذلك للدعي رجع إلى تونس رجوع منهزم، وذلك في يوم

الخميس الخامس عشر من ربيع الأول من سنة ثلاث وثمانين، وطوى الأمير أبو حفص البلاد إلى أن نزل قريباً من تونس بسبخة سيجوم، فخرج إليه الموحدون والجند، وقاتلوه أياماً كثيرة ولم يظفروا منه بشيء.

ونهب العرب البلاد إلى أن خرج الدعي يوم الأحد الثاني والعشرين من ربيع الآخر، فأقام برهة بذيل السبة فلما أيقن أنه مالك فرّ بنفسه رغبة في الحياة، واختفى في دار بمقربة من الصفارين بتونس عند رجل فان أندلسي يقال له أبو القاسم القرموني، وذلك في ليلة الاثنين الثالث والعشرين من ربيع الآخر المذكور، وكانت دولة الدعي بتونس سنة وخمسة أشهر وسبعة وعشرين يوماً.

وأقام الدعي في تلك الدار سبعة أيام إلى أن دلت عليه امرأة فأخذ وأخرج منها بعد صلاة الظهر، وهدمت تلك الدار لحينها حمل إلى الأمير أبي حفص فقرره بحضرة القضاة والشهود، فأقرّ أنه أحمد بن مرزوق بن أبي عمارة المسيلي، وشهد عليه الشهود بذلك وقاضي الجماعة حينئذ أبو العباس أحمد بن الغماز، وأمر الأمير أبو حفص بضربه فضرب متني سوط، ثم ضربت عنقه، وطيف بشارة على حار أشهب جر إلى السبخة بخارج باب البحر فرمي بها وطيف برأسه على عصا، وذلك يوم الثلاثاء الثاني من جمادى الأولى وأن الذي تولى قتله الشيخ أبو محمد بن يغمور بسيف كان أعطاه له الدعي.

وتولى تونس الأمير أبو حفص عمر ابن المولى السلطان الأمير أبي زكريا ابن الشيخ أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص أمه أم ولد عربية اسمها طبية ولد بتونس بعد صلاة الجمعة الموفية ثلاثين من ذي القعدة سنة ثنتين وأربعين وستمئة، وبويع له فيها يوم الأربعاء الخامس والعشرين من ربيع الآخر المذكور سنة ثلاث وثمانين وستمئة وتلقب بالمستنصر بالله.

وفي السابع والعشرين من جمادى الآخرة من السنة المذكورة توفي بالمهدية القاضي ابن الخباز المتقدم ذكره ولي قضاء تونس مرتين، وكان الأمير أبو زكريا ابن السلطان أبي إسحق رُبِّيَ في حجر أبيه بمدينة تونس، وكان سكناه إذ ذاك بدار الغوري، وكان نزيه النفس محباً للعلم وأهله.

كان بإزاء دار الغوري فندق يسكنه أهل السرف، فبلغه ذلك فأمر أن يبنى مدرسة للعلم فبنى مدرسة المعرض، وبنى عليها ربعاً كثيراً اشتراه بماله مع كتب نفيسة في كل فنٍّ من فنون العلم، ولما كمل بناؤها وجلس فيها المدرس الشريف أبو العباس أحمد الغرناطي صاحب كتاب المشرق في علماء المغرب والمشرق، ووجّه للمدرس قرطاسين بذهب وفضة وقال له: فرِّقها على كل من تجد في المدرسة فسمع الناس ذلك فجاؤوها من كل مدرسة حتى امتلأت، ولم يجد أحد أين يجلس.

وكان يحضر مجلسه للوعظ يوم الإثنين والجمعة فيطلق العنبر والعود ما دام المجلس، وأجرى على المدرس رزقاً كثيراً قدره عشرة دنانير في الشهر، وجعل بين دار سكناه وبين المدرسة طاقة يسمع منها ما يقرأ في المدرسة، واستمر مقامه بتونس حتى خرج صحبة أبيه إلى بجاية حين أتى الدعي كما تقدم، وفي السادس والعشرين من ربيع الأول من سنة أربع وثمانين وستمئة توفي القاضي أبو محمد عبد الحميد ابن أبي الدنيا ودفن بالجلاز، وتلمح العامة أن عند رأسه سارية طويلة فيقولون: قال صاحب هذا القبر: اجعلوا لحدي بقدر علمي. يريدون كبر درجته في العلم.

وفي السنة المذكورة توفي أبو الحسن حازم الغرناطي شاعر الحضرة، وفي السادس والعشرين من ذي الحجة سنة ست وثمانين توفي الشيخ الصالح الورع أبو علي حسن الزنديري ودفن بقرب جبانة السادة الأخيار الأشياخ في مرسى الرجل الصالح سيدي جراح ويعرف المرسى المذكور في القديم بمرسى ابن عبدون واشتهر بعده بسيدي جراح المذكور لملازمته الاحتراس به.

وفي الجبانة المذكورة من الشيوخ سيدي عبد العزيز ابن أبي بكر القرشي المهدوي وأبونا عبد الله واسمه عبد الله بن علي الهواري النابلي، وكان اسمه مخلوفاً وسيدي عبد العزيز المهدوي هو الذي سماه بالأب، فالناس يدعونه بذلك إلى اليوم وأبو عبد الله محمد المعروف بالتائب وأبو علي عمر شقيقه ابنا أبي بكر العجليين التونسيين، وأبو زيد عبد الرحمن التميمي عرف بابن الوادي، وأبو عثمان سعيد الخادم مدفون عند قدم البشر سيدي عبد العزيز، وأبو

وكيل ميمون الكماد، وأبو عبد الله بن عتيق الباجي أمام الشيخ سيدي عبد العزيز، والشقيقان أبو فارس عبد العزيز وأبو عبد الله محمد ولدا أبي الفتوح الصقلي، وأبو إسحق إبراهيم الصياد، والشيخ سيدس جراح العربي المذكور، وسيدي أبو علي حسين وأبو عبد الله بن سليمان القرشي الزبيدي وأخو هذا سيدي حسن وتلامذتهم.

وفي يوم الإثنين السابع عشر لشهر رمضان من سنة إحدى وتسعين وستمئة توفي بتونس الشيخ القاضي أبو القاسم بن زيتون ودفن بجبل المرسى، وفي الخامس عشر من ذي الحجة سنة ثنتين وتسعين توفي الفقيه المفتي الشريف محمد الغرناطي صاحب كتاب المشرق المذكور، وفي يوم الخميس عاشر المحرم سنة ثلاث وتسعين توفي الفقيه القاضي أحمد بن محمد بن الحسن بن الغماز الأنصاري أحد الفضلاء المشهورين بالدين، كانت ولادته ببلنسية يوم عاشوراء من سنة تسع وستمئة، وهي سنة العقاب وتوفي يوم عاشوراء فمن العجب موافقة يوم وفاته يوم ولادته، ودفن بمقبرة الشيخ صالح سيدي عبد الرحمن المناطقي بتونس.

وكان فقيهاً مفتياً عارفاً بالتوثيق أخذ عن جماعة من أهل الأندلس، ثم ارتحل إلى بجاية فسكن بها وتخطط بالعدالة، ثم توجه إلى تونس فتصرف في قضاء كثير من بلادها إلى أن قدم إلى قضاء الحضرة نفسها في الثالث والعشرين من شهر رمضان سنة ستين، ثم عزل، ثم ولي، وتكرر ذلك إلى أن ولي الولاية الأخيرة في تاسع عشر شهر رمضان من سنة إحدى وتسعين فمات وهو عليها كما مر.

وفي ذي القعدة من سنة ثلاث وتسعين توفي الشيخ أبو زيد عيسى الفراري شيخ الدولة وشمسها ودفن برادس، وفي يوم الجمعة الرابع والعشرين من ذي الحجة من سنة أربع وتسعين توفي صاحب تونس السلطان أبو حفص عمر بمرض أصابه، فكانت خلافته أحد عشر عاماً وثمانية أشهر غير يومين وكان عهد لولده عبد الله فتحدث الموحدون في صغر سنه، وأنه لم يبلغ الحلم فبعث السلطان للشيخ الفقيه الصالح أبي محمد المرجان، وتحدث معه في ذلك.

وكان الواثق بن المستنصر لما قتل هو وبنوه بحبسهم كما تقدم فرّت إحدى جواريه حاملاً منه إلى زاوية الشيخ الولي أبي محمد المرجان، فوضعت الولد في بيته سماه الشيخ محمداً، وعق عليه وأطعم الفقراء يومئذ عصيدة الحنطة فلقب بأبي عصيدة، ثم صار بعد اختفاء إلى قصورهم ونشأ في ظل الخلفاء قومه حتى شب وبقيت له مع الشيخ المرجاني ذمة، فلما فاوضه السلطان في شأن العهد وقص عليه نكير الموحدين لولده أشار عليه الشيخ بصرف العهد إلى محمد بن الواثق فقبل إشارته ووقع الاتفاق على ذلك، فأخرج محمد بن الواثق إلى الشيخ المرجاني فبارك عليه ودعا له وبويع البيعة الخاصة في يوم الأربعاء الثاني والعشرين من ذي الحجة المذكور.

ثم لما توفي السلطان أبو حفص في التاريخ بويع البيعة العامة، وتلقب بالمستنصر بالله وهو المولى الأمير أبو عبد الله محمد ابن المولى السلطان محمد الواثق ابن المولى السلطان المستنصر ابن المولى السلطان أبي زكريا ابن الشيخ أبي محمد عبد الواحد ابن الشيخ أبي حفص عمر يعرف بأبي عصيدة وافتتح أمره بقتل عبد الله ابن السلطان أبي حفص لأجل ترشحه.

وفي شهر رجب من سنة ثمان وتسعين وستمئة نهض السلطان أبو عصيدة من حضرة تونس بمحلته فسار وتجاوز تخوم عمله إلى أعمال قسنطينة، وجفلت قدامه الرعايا والقبائل وانتهى إلى ميلة، ومنها كان تقلبه إلى حضرته في شهر رمضان.

وفي أوائل جمادى الأولى سنة تسع وتسعين توفي الشيخ الصالح المرجاني ودفن بجبل الجلاز، وكان صديقاً لقاضي الجماعة بتونس الفقيه أبي يحيى أبي بكر الغوري الصفاقي وكان القاضي مريضاً فكتم أقرباؤه موت صديقه ولم يخبروه به، وجعلوا يوصون من يعوده بأن لا يخبره بموت صديقه ولم يخبروه به، وجعلوا يوصون من يعوده بأن لا يخبره بموت صديقه فأتى الفقيه أبو إسحق بن عبد الرفيع لعيادة القاضي، فأوصى أن لا يخبره بشيء فنسي وأخبره فازداد القاضي مرضاً على مرضه، وتوفي يوم الأحد رابع عشر جمادى الأولى سنة تسع وتسعين.

فقدم بعده للقاء الجماعة بتونس الفقيه العالم أبو إسحق إبراهيم بن الحسن بن علي ابن عبد الرفيع الربعي، وهي أول ولايته لهذه الخطة فحكم عاماً واحداً وأحد عشر شهراً، ثم عزل وولي عوضه الفقيه أبو زيد عبد الرحمن ابن القطان البلوي من أهل سوسة في غرة ربيع الآخر من سنة إحدى وسبعمئة وتوجه إلى سوسة وأبطأ على الناس، فعجوا من تأخر خصوماتهم فأمر أبو إسحق بن عبد الرفيع المذكور بتنفيذ الأحكام إلى أن يقدم الفضي.

فتواصى حسدته من صنفه بأنه لا يعلم بوصوله حتى يكون بمحفل يقال له فيه: لا تحكم فإن القاضي قد وصل وجعلوا من يرصد الطريق، ففهمها ابن عبد الرفيع وأوصى من يثق به أن يخبره قبل دخول القاضي بوصوله ليكون هو المسكت عن الحكومة، ويصرف العون عن بابه بنفسه، فاتفق أن كان يوم سبت وقد جرت عادة قضاة تونس وفقهائها بوصولهم يوم السبت بمجلس الخليفة للسلام عليه، ويجلس كل صنف منهم مع صنف في بيوت أعدت لهم إلى أن يخرج الخليفة.

فبينما الفقهاء والقضاة جالسون وابن الرفيع بينهم إذا أقبل كاشفه يعلمه قبل أن تصل رصدة حساده بقدوم القاضي، فلما رآه فهم فقام من محل جلوس القاضي متنقلاً إلى بيت أهل الشورى ففهم عند حسدته فحدقوا أبصارهم نحوه فانحلت عقدة سراويله، وقد توسط حلقة المجلس فجعل يصلحها ونظر إليهم مستريباً فأدار وجهه إليهم وقال: الحمد لله الذي لم يجعل فيكم من يصلح لها. فأبكتهم وفكتهم من تشمتهم بقيامه.

قال الشيخ أبو محمد عبد الواحد الغرياني: أخبرني من أثق به أن عادة الموحدين قديماً بتونس أنهم لا يولون القضاء أكثر من عامين عملاً بما أوصى به عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين كتب عهده أنه لا يولى عامل أكثر من عامين وأيضاً فإنهم يرون أن القاضي إذا طالت مدة قضائه اتخذ الأصحاب والإخوان، وإذا كان بمظنة العزل لا يغتر، وأيضاً فإن الحال إذا كان هكذا ظهرت مخايل المعرفة بخلاف ما إذا استبد الواحد بعمل فإنه لا يقع فيهم تناصف، ولا يحصل لمن يلي بعده النفوذ بوظيفة ما قدم إليه إلا بعد حين وتنطمس قلوب الطلبة لإياسهم من الولاية إلا بعد مشقة.

وفي ثاني صفر من سنة سبعمئة توفي الشيخ الفقيه النحوي أبو زكريا اليغرني كان تلميذ ابن عصفور وخليفته في فنه، وفي الخامس عشر لشهر رمضان بعد صلاة الجمعة من سنة خمس وسبعمئة قتل العامة بتونس هداج بن عبيد الكعبي بجامع الزيتونة بسبب دخوله للجامع بخفيه، فزجره بعض الناس عن ذلك فقال: دخلت والله بهما على السلطان.

فاستعظم ذلك العامة منه، وقاموا عليه وقتلوه وجروه في طرق تونس وسببه أنه كان من رؤساء الكعوب، وكان الكعوب قد أغروا بالسبل وعثوا في الأرض فحقد العامة عليهم وفعلوا به ذلك، ولما بلغ خبره لقومه ازدادوا طغياناً واستقدم أحمد بن أبي الليل شيخ الكعوب حينئذ عثمان بن أبي دبوس من نواحي طرابلس وبايعه وأجلب به على الحضرة ونازلها، وخرج إليهم الوزير أبو عبد الله محمد بن يزركين في العساكر، فهزمهم وسار بالعسكر لتمهيد الجهات.

فوفد عليه أحمد بن أبي الليل ومعه سليمان بن جامع من رجال هوارة بعد أن راجع الطاعة، وصرف ابن أبي دبوس إلى مكانه من نواحي طرابلس فقبض عليهما وبعث بهما إلى الحضرة، فلم يزالا مثقفين إلى أن هلك أحمد بمحبسه سنة ثمان، وقام بأمر الكعوب محمد بن أبي الليل ومعه حمزة ومولاهم ابنا أخيه عم رديفين له.

وفي شهر جمادى من سنة ست وسبعمئة سافر شيخ الموحدين أبو يحيى زكريا بن أحمد اللحياني بالعساكر إلى جربة برسم تخليصها من أيدي النصارى، فقاتل القشتيل شهرين، ثم رحل عنها إلى قابس، ثم إلى بلاد الجريد وانتهى إلى توزر ونزلها، وأعانه على الخدمة أحمد بن محمد بن يملول وخلص بجابي الجريد، ورجع إلى قابس وأنزله عبد الملك بن عثمان بن مكي بداره.

ولما استقر بقابس صرح بما كان في قصده من أمر الحر وصرف العساكر إلى الحضرة، فتولى بعثة رياسة الموحدين بتونس أبو يعقوب بن يزعوتن وتحول هو عن قابس إلى بعض جبالها خوفاً من وخمها، وأقام ينتظر الركب وكان مريضاً إلى أن برئ، وانتقل إلى طرابلس أقام بها

حولاً ونصفاً، إلى أن وصل في آخر سنة ثمان وفد الترك الذين كانوا قد بعثوا بهدية من صاحب مصر ليوسف المريني راجعين من المغرب فخرج معه حاجاً! وقضى فرضه.

وفي شهر رمضان من سنة ثمان وسبعمئة حجر العامة باب القصبة بتونس وهم يقولون: أخرجوا لنا ابن الدباغ الحاجب، من سبب أن العرب أكثروا الغارات بأطراف تونس فحينئذ ضجَّ الناس من ذلك منهم، وأتوا إلى القصبة يريدون الثورة فسد الباب دونهم فرموه بالحجارة يشكون ما نزل بهم من الحاجب ابن الدباغ، ويطلبون شفاء صدورهم بقتله.

ولما فعل العامة ذلك أراد رجال السلطان أن يركب لهم بأصحابه ودخلته يطؤونهم بحوافر الخيل فأبى السلطان ذلك وأمر أن يدافعوا بلين وسهولة، وكان قد حصل بعضهم بداخل القصبة، فأراد بعض أصحاب السلطان أن يغلق عليهم الباب ويقتلوا هنالك، فأبى السلطان وأمر أن يدفعوا بركائز المزاريق لا بالأسنة حتى يخرجوا، وأغلظ الفقيه ابن عبد الرفيع على الناس بالقول في ذلك اليوم ولم يكن قاضياً، وفي ذلك اليوم عزل حاكم المدينة لدخوله من باب القصبة راكباً حين كانت العامة عند باب يتجمّي دخل هو من باب الغدر راكباً فذنب بذلك، ثم إن السلطان تتبع بالعقاب من تولى كبر ذلك من العامة وانحسم الداء.

وفي سنة ثمان وسبعمئة المذكورة تزايد بتونس مولود بدرب عبو خارج باب السويقة ميتاً على صفة غريبة غير معهودة وصفته أن على رأسه تاجاً من لحم، له عينان كعيون البقر وأنف وفم كفم القرد وليس في فمه لسان وفي قفاه شعر أكحل سبط منسدل قدر الشبر وتحته دقتان من لحم تفتحان على خوا، فارغ من عنقه متصل بدماغه وله ساعدان وكفان كبيران وبطن صغير وليس له عجز وله رجلان وإصبعان بغير عظم فسبحان الخلاق العليم.

وفي حادي عشر ذي الحجة وصلت الزرافة إلى تونس في جفن التاجر أبي القاسم القنبي هدية من صاحب مصر، وفي صفر من سنة تسع وسبعمئة صنع المنجنيق بدار الصناعة بتونس ورمي به هناك قلعة أحجار، وفي الخامس من ربيع الآخر من السنة المذكورة توفي الفقيه الأديب أبو القاسم بن عميرة وكان من فضلاء الكتاب الشعراء ممن حذا حذو أبيه وزيادة.

وفي الثالث عشر من ربيع الآخر سنة تسع المذكورة توفي صاحب تونس الأمير أبو عبد الله محمد بن الواثق بمرض الاستسقاء، ولم يخلف ابناً ذكراً فكانت خلافته أربعة عشر عاماً وثلاثة أشهر وسبعة عشر يوماً، وكان عقد مع الأمير أبي البغاء خالد صاحب قسنطينة وبجاية على أنهما أيهما توفي قبل الآخر أخذ الآخر بلاده، وكان السلطان أبو البقاء خالد قد نزع إليه حمزة بن عمر بن أبي الليل عند أياسمة في . روج أخيه من محبسه فرغبه في ملك الحضرة واستنهضه إليها، فلما مرض السلطان أبو عبد الله محمد وتحقق ذلك السلطان أبو البقاء خالد وهو إذ ذاك بجاية وأعمالها جد في الحركة على تونس وأظهر أنها للجزائر.

ثم سار إلى قسنطينة وترك نائباً بها الفقيه أبا الحسن علي بن عمر، فلما قرب من تونس ونزل قصر جابر توفي الأمير أبو عبد الله صاحب تونس، فاجتمع الأشياخ والكبار من الموحدين والحاجب إذ ذاك أبو عبد الله محمد بن الدباغ، وتحدثوا هل يقع الوفاء بالعهد والشرط المتقدم، أو ينظرون من يبايعونه لأنفسهم، فاستقر رأيهم على مبايعة الأمير أبي بكر المعروف بالشهيد، فبويع الأمير أبو بكر المعروف بالشهيد ابن الأمير أبي زيد عبد الرحمن ابن الأمير أبي بكر ابن الأمير السلطان أبي زكريا يوم وفاة الأمي أبي عبد الله وذلك يوم الثلاثاء العاشر من ربيع الآخر من سنة تسع وسبعمئة.

ولما بويع أقر ابن الدباغ على جانبه وعلى كتب العلامة وأقر الشيخ أبا عبد الله محمد بن يرزكين على الوزارة إلا أنه أظهر للحاجب أبي عبد الله محمد بن الدباغ أبعاداً وأقصاء وتهديداً، وكان يحقد عليه أموراً أوغرت صدره وعالت على طوال السنين صبره، وكان ينسب إليه التقصير في حقه والتقتير في رزقه، وبلغه أنه خص على قتله فلما علم ابن الدباغ ذلك سعى في فساد دولته.

ثم إن السلطان أبا بكر رمى محلته بالسحرية وخرج في بروز عظيم وجيش وافر ومعه أولاد مهلهل وطائفة من الأعشاش، وكان أولاد أبي الليل مع السلطان أبي البقاء خالد، فلما تراءى الفريقان بقرب المدينة أراد السلطان أبو بكر المذكور الركوب للقائه بنفسه، فلم يوافقه

الأشياخ على ذلك وقالوا: يركب الشيخ أبو يعقوب مع الجيش للقاء، واستصعبوا أمر السلطان خالد وجيشه، فركب الشيخ أبو يعقوب والتقى الجيشان.

وأقام السلطان أبو بكر بالسعترية بمجلسه، فوقع قتال شديد إلى غروب الشمس وانهزم الشيخ أبو يعقوب وأخذ الوزير أبو عبد الله بن يزركين، وقتل وأحرقه العرب بالنار لحسائف كانت في نفوسهم عليه، واستمرت الهزيمة إلى المدينة، فركب الشهيد ودخل المدينة، واتبعت محلته وأصبح أبو البقاء خالد على المدينة، فخرج السلطان الشهيد،ووقف عند جامع الهوى ومعه فئة قليلة من الجيش، وبين يديه جمع من المشاة.

ووقع القتال بالسبخة وفرَّ الناس إلى السلطان أبي البقاء خالد إلى أن بقي الشهيد وحده فرمى تاجه من رأسه وفر هارباً والناس في طلبه، وهو يرمي لهم ما كان عليه من سقط يشغلهم عنه إلى أن استقر بجنان علي بن صابر بخارج درب الخضراء، فسار علي بن صابر إلى المحلة وعرف بالقضية فعين له خيل وجماعة من أصحاب الركاب فجاؤوا به إلى المحلة، فضرب له خباء وبات فيه، فلما أصبح جلس السلطان خالد في خباء للبيعة العامة وخرج الموحدون والقضاة وسائر أشياخ تونس للبيعة.

فلما استوفوا البيعة بعد أن أعرض عنهم وذنبوا ببيعتهم لأبي بكر أمر الأشياخ أن يعاينوه، فعاينوه واعترفوا أنه سلطانهم بالأمس، فأخرج من الخباء وأمر صاحب الركاب أن يضرب عنقه بعد ما عقد شعره بيده، فلما أقبل عليه ليقتله انتهره ولعنه وقال: إنما يقتلني من هو كفء لي.

فأمر السلطان خالد أبا زكريا يحيى مزوار الغرابة القادم معه فضرب عنقه، وذلك يوم الجمعة السابع والعشرين من ربيع الآخر سنة تسع وسبعمئة، فسمي الشهيد إلى آخر الدهر، فكانت ولايته سبعة عشر يوماً.

وتولى بعده المولى أبو البقاء خالد ابن المولى أبي زكريا يحيى ابن المولى أبي إسحق إبراهيم ابن المولى الأمير أبي زكريا ابن الشيخ أبي محمد عبد الواحد أنه أم ولد اسمها عز العلاء، بويع بتونس في السابع والعشرين من ربيع الآخر المذكور ولقب بالناصر لدين الله كان شيخ دولته

الشيخ أبو محمد عبد الله بن عبد الحق وحاجبه الرئيس أبو عبد الرحمن بن محمد بن الغازي القسنطيني، وأبقى أبو يعقوب بن بزدوتن في رياسته على الموحدين مشاركاً لأبي زكريا يحيى بن أبي الأعلام لكونه رئيساً عنده من قبل، وولى على الأشغال بالحضرة منصور بن فضل بن مزني، وعقد لأخيه المولى الأمير أبي بكر على قسنطينة.

فانتقل إليها وهرب الحاجب أبو عبد الله محمد بن الدباغ إلى زاوية الزبيديين فاحتال عليه ابن عمر حتى خرج اختياراً فثقف ودفع خمسين ألفاً من الدنانير وطلب في غير ذلك فأقام في السجن مريضاً إلى أن توفي في السابع والعشرين من رجب السنة المذكورة، وأخرجت جنازته وصلي عليها ولم يصحبها للدفن إلا قليل من الناس نحو عشرة على خوف، وفي سنة عشر وسبعمئة توفي الفقيه المفتي أبو علي عمر بن محمد بن عمر بن علوان الهذلي بتونس.

وفي الرابع والعشرين من السنة المذكورة توفي شيخ الشيوخ بتونس السيد المقري أبو العباس أحمد بن موسى الأنصاري البطرني، وفي صفر سنة إحدى عشرة قتل الشيخ أبو محمد عبد الله بن عبد الحق بن سليمان شيخ دولة الأمير خالد قتله هوارة، وفي يوم الخميس التاسع من جمادى الأولى من السنة المذكورة وصل الشيخ أبو عبد الله المزدوري صحبة العرب إلى تونس نائباً عن الأمير أبي يحيى زكريا بن أحمد بن محمد اللحياني، وكان وصل من الحجاز إلى إفريقية فوجد الأحوال قد اضطربت بها ووجد العرب ظبت على إفريقية فعزم على الولاية فبويع بطرابلس.

كان صاحب قسنطينة المولى أبو بكر قد بايع لنفسه بقسنطينة لما سمع باختلال أحوال إفريقية كما يذكر بعد، ولما سمع السلطان خالد بذلك جهز مسكراً وعقد عليه لطافر مولاه المعروف بالكبير وسرحه إلى قسنطينة فانتهى إلى باجة، فأراح بها، ثم لما سمع المولى أبو بكر صاحب قسنطينة بقدوم الأمير أبو يحيى زكريا بن اللحياني ومبايعته بطرابلس أوفد عليه هنالك حاجبه أبا عبد الرحمن بن عمر بهدية ووعد بأنه ممده ومظاهره على شبانة، فأحكم ذلك عقدة الأمير أبو يحيى بن اللحياني، وشد في أمره وتواثب إليه رجال الكعوب أولاد أبي الليل

وغيرهم فبايعوه، واستحثوه للحضرة فارتحل إليها وبعث في مقدمته أولاد أبي الليل ومعه شيخ تولتة الشيخ أبو عبد الله محمد المزدوري.

فوصلوا إلى تونس فكانت بتونس معركة قتل فيها شيخ الدولة أبو زكريا الحفصي، وتسارع الناس للمزدوري ومكنوه من تونس بعد إشهاد صاحبها أبي البقاء خالد على نفسه بالخلع بعد حديثه في ذلك مع قاضيه قاضي الجماعة حينئذ بتونس ابن عبد الرفيع فقال له: الخلع ينجيك إن لم تقدر على المقابلة فخلع نفسه، وكان به مرض لا يقدر معه على الركوب، وكانت له محلة قائمة بباجة قائدها ظافر الكبير كما تقدم فوجه إليه ليرجع، فلما وصله الأمر ارتحل راجعاً فتلقاه أولاد أبي الليل فأخذوه قبل وصوله.

وأخذوا المحلة واستولوا على ظافر صاحبها وعلى أمثاله، وثقفوه ومن هو مثله عندهم إلى أن سرحوه بعد ذلك فيلحق بالمولى السلطان أبي بكر بقسنطينة، فآثره واستخلفه كما كان لأخيه، وولاه على قسنطينة، فأقام بها والياً إلى أن استقدمه إلى بجاية فكانت دولة السلطان خالد بتونس عامين وثلاثة عشر يوماً، وتوفي بتونس قتيلاً في سنة إحدى عشرة المذكورة كذا ذكر ابن الخطيب في الفارسية، وفي مشهده في القبة التي تحت جامع الجلاز، بالجبل شرقي الجامع أنه توفي في جمادى الآخرة عام ثلاثة عشر.

وفي يوم الجمعة ثاني يوم وصول المزدوري لتونس خطبوا خطبة لم يذكروا فيها إماماً معيناً، وإنما قال الخطيب: اللهم وارض عمن يقوم بأمر عبادك ويصلح ما ظهر من الخذل في بلادك. في دعوات من هذا النمط، وفي يوم الأحد الثاني من رجب من سنة إحدى عشرة بويع البيعة العامة بمنزل المحمدية الأمير أبو يحيى زكريا ابن الشيخ المعظم أبي العباس أحمد ابن الشيخ المعظم أبي عبد الله محمد اللحياني ابن الشيخ المعظم أبي العباس أحمد ابن الشيخ المعظم أبي عبد الله محمد اللحياني ابن الشيخ أبي محمد عبد الواحد، أمه أم ولد أصلها رومية اسمها محرم، ولد سنة إحدى وخمسين وستمئة، وسلم له الأمر بتونس، وكان مشاركاً في العلم والأدب، ولذلك كان يألف أهل العلم.

وكان في أول أمره كثير التمنع من الأمر، وكان أحب الأمور إليه أن يكون نائباً عن خليفة يكون قابلاً لكلامه، مؤثراً له عن من سواه عاملاً بمقتضى السياسة، فلذلك رد أفعال من لا يعرف قدر ما أعطى، ثم عرض عليه الجيش وأسقط منه من لم يكن له أصل ثابت في القبائل، وسار في الناس سيرة حسنة، ومكن ولده للحكم عند القاضي أبي إسحق بن عبد الرفيع في دم ادعى عليه به، وهذا كان سبباً في محنة القاضي المذكور، وذلك أنه ثبت رسم التدمية على ابن الخليفة، وحكم عليه بالقتل فعفا عنه من له الحق فبعد مدة كبيرة تولى المحكوم عليه الخلافة.

فأمر بالقاضي المذكور فسجن بالمهدية في ماجل بها بقي فيه عامين وبعض الثالث فكان يقول: إن ما أصابني أصابني بتثقيفي الشيخ أبا علي القروي يوماً بسنة. وذلك أنه أنكر عليه جمعه بجامع الزيتونة وكان بعض سقفه قد سقط فرأى أنه قد نقض شرط السقف فأمر القاضي بثقافه.

ولأول ولاية الأمير أبي يحيى زكريا بتونس أمر بخطة الإنشاء والعلامة الكبرى للفقيه أبي عبد الله محمد بن إبراهيم التجاني، وأبقى ابن الخباز على ما كان عليه من كتب العلامة الصغرى إلى أن توفي بعد، فأضيفت علامته إلى التجاني، وذلك أول يوم من المحرم فاتح عام سبعة عشر وسبعمئة، وأعاد الحاجب أبا عبد الرحمن بن عمر إلى مرسله المولى أبي بكر صاحب قسنطينة، بعد أن عقد معه على المهادنة وضمن ابن عمر من ذلك ما رضيه فقدم ابن عمر على المولى أبي بكر ببجاية وعاد إلى حجابته كما كان.

وفي سنة اثنتي عشرة وسبعمئة توفي الفقيه أبو يحيى أبو بكر بن أبي القاسم بن جماعة الهواري، وفي عام ستة عشر وسبعمئة أمر السلطان أبو يحيى زكريا بعمل أبواب من خشب وعوارض منه لبيت جامع الزيتونة فعملت على ما هي عليه اليوم في شهر رمضان من العام المذكور، وكتب تاريخ ذلك في قنبجة باب البهور.

وفي العام المذكور ولد الشيخ الإمام العالم أبو عبد الله محمد بن عرفة الورغمي، ثم إن السلطان أبا يحيى زكريا رأى اضطراب الأحوال وافتتان العربان ظهر له خروج الأمر من يده وتوقع مجيء السلطان أبي بكر إلى الحضرة بما ظهر من دلائل النجابة عليه، فجمع الأموال

وباع جميع الذخائر التي كانت في القصبة حتى الكتب التي كان الأمير أبو زكريا الأكبر جمعها واستجاد أصولها ودواوينها، أخرجت للكتبيين فبيعت بدكاكينهم زعموا أنه جمع قناطير من الذهب تجاوز العشرين وجولقين من حصار الدر والياقوت.

واستعمل حركة لقابس وخرج إليها في أوائل عام سبعة عشر وسبعمئة بعد أن رتب بتونس أجناداً يذبون عنها، منهم مع قائد المدينة ألف فارس وبعضهم بألف الجبل بقبلة تونس، وبعضهم بالمعاوين وبعضهم على طريق باجة، وخرج من تونس في قدر ألف فارس واستخلف بها أبا الحسن بن وانودين، فرجل إلى قابس فسكنها وبقي فيها، ويقال: إنه خرج بأربعة وعشرين قنطاراً من الذهب وخرج بأهله وولده إلا ولده محمد فإنه تركه معتقلاً.

ولما خرج هو من تونس تحرك السلطان أبو بكر وارتحل من قسنطينة في جمادى الآخرة من سنة سبع عشرة قاصداً الحضرة، ولقبه وفد العرب وانتهى إلى باجة وانصرفت حاميته إلى تونس، وكان نواب أبو يحيى زكريا كتبوا له بحركة أبو بكر على تونس فكتب لهم: المال عندكم والأجناد وما فعلتم فقد أمضيته. فوجدوا عندهم من المال المجتمع من حين سافر مئة ألف دينار وخمسين ألفاً، ووجدوا من الأجناد سبعمئة فارس، فأخرجوا ولده محمداً من الثقاف واستنابوا الشيخ أبا الحسن بن وانودين على تونس.

وخرجوا إلى القيروان ومعهم الأمير محمد المعروف بأبي ضربة ابن السلطان أبي يحيى زكريا راكباً على بغلة دون سلاح، وخرج جميع الأشياخ وخالفهم إلى المولى السلطان أبي بكر مولاهم ابن عمر بن أبي الليل؛ لما كان في نفسه من السلطان أبي يحيى زكريا، لكونه كان يؤثر عليه أخاه حمزة فلقي السلطان دوين باجة واستحثه لتونس، فوصلها ونزل في رياض السناجرة في شعبان من سنة سبع عشرة.

وكان الأمير محمد أبو ضربة ومن معه لما خرجوا من تونس لقيهم حمزة بن عمر بن أبي الليل فقال لهم: إلى أين ؟ فقالوا: إلى القيروان ومن، ثم فكاتب السلطان بقابس ونعرفه أن صاحب قسنطينة قد ملك تونس. فقال لهم: هذا هو السلطان؛ يعني به محمداً أبا ضربة ونزل فبايعه وجميع الناس، واجتمعت عليه كلمة الموحدين والعرب وذلك في أواسط شعبان من

عام سبعة عشر، ورجعوا بجميعهم إلى تونس فكتب حمزة بخطه لأخيه مولاهم: ارجع بسلطانك، فرجع ورحل به من رياض السناجرة بعد أن أقام بها سبعة أيام، وضربت المفرحات هنالك.

وسار إلى قسنطينة ورجع عنه مولاهم من تخوم وطنه وبقي حمزة وابن اللحيان بخارج تونس والخطبة مشتركة بينه وبين أبيه يقول الخطيب بعد ذكر السلطان: - اللهم وارض عن نجلهم الناشئ عن مقامات شرفهم المستنصر بالله أمير المؤمنين أبي عبد الله محمد - وفي أواسط شعبان من العام المذكور بويع بتونس الأمير أبو عبد الله محمد ابن الأمير أبي يحيى زكريا ابن الشيخ أبي العباس أحمد ابن الشيخ أبي عبد الله محمد اللحياني ابن الشيخ أبي محمد عبد الواحد ابن الشيخ أبي حفص والملقب بالمستنصر.

ولما ورد على والده الأمير أبي يحيى زكريا الخبر بقابس بما وقع بتونس، وأن السلطان أبا بكر هزم ولده ورأى الأمور تفاقمت، خرج من قابس إلى طرابلس ببقية الجيش الذين كانوا معه، وخمسين فارساً من رماة الأندلس، فأقام بطرابلس وبنى بها موضعاً لجلوسه يقال له الطارمة، بناه بالجليز والرخام وأحيا أعمال طرابلس، ثم سرح ذلك الجيش لنصرة ولده صحبه حاجبه أبي زكريا بن يعقوب ووزيره ابن ياسين بالأموال، ففرقها في العرب وزحفوا بهم إلى القيروان مع الأمير محمد أبي ضربة المذكور.

فخرج السلطان أبو بكر فهزمهم ونجا أبو ضربة إلى المهدية، فامتنع بها ولحق الحاجب المذكورة وبعض الفل بالسلطان أبي يحيى زكريا بطرابلس، فأرسل إلى النصارى وطلب منهم عمارة ستة أجفان فوردت عليه وطلع فيها بأهله وولده وماله وحاجبه أبي زكريا بن يعقوب، وترك صهره أبا عبد الله محمد بن أبي بكر ابن أبي عمران من قرابته حافظاً لطرابلس، فلم يزل إلى أن استدعاه الكعوب ونصبوه للأمر، وأجلبوا به على السلطان أبي بكر مراراً كما يذكر بعد.

وسافر الأمير أبو زكريا في البحر إلى الإسكندرية فنزل بها على السلطان محمد بن قلاوون، واستقدمه إلى مصر فعظم مقدمه واعتز للقائه وأسنى جرايته وإقطاعه، إلى أن هلك سنة ثمان وعشرين وسبعمئة فكانت خلافة أبي يحيى زكريا بتونس ستة أعوام وأربعة أشهر، ولما تولى

تونس الأمير أبو عبد الله محمد بن أبي ضربة تحدث مع الناس في بناء سور على الأرباض، فأجابوه إلى ذلك وشرع فيه، ثم إن حمزة بن عمر بن أبي الليل طلب منه كسوة ألف فارس كل فارس بثلاثين ديناراً، وغير ذلك من المطالب حتى ما ألقى له شيئاً من المال.

ثم إن المولى أبا بكر حشد الحشود في صفر من سنة ثمان وعشرين وسبعمئة قاصداً تونس واستعمل على حجابته أبا عبد الله محمد بن القالون ويرادفه أبو الحسن بن عمر وسار إلى أن وصل إلى الأربس، فوافاه وفد هوارة وكبيرهم سليمان بن جامع، وأخبره أن الأمير أبا ضربة ارتحل من باجة عازماً على اللقاء، فارتحل السلطان أبو بكر مجداً ولقيهم مولاهم ابن عمر بن أبي الليل فراجع الطاعة وارتحل في أتباع أبي ضربة وجموعه، فخرج إليه العمال والمشيخة وبايعوه، وارتحل راجعاً عن اتباع عدوه إلى حضرة تونس، وكان ترك بها نائباً محمد بن الفلاق ليمنعها، فأخرج الرماة إلى ساحته وقاتل ساعة من نهار، ثم اقتحموها عليه واستبيح عامة أرباعها.

ودخل السلطان إلى الحضرة في شهر ربيع من سنته وكان ملكها يوم الخميس السابع من ربيع الآخر من سنة ثماني عشرة، ودخلها من الغد يوم الجمعة وجددت له البيعة بها فكانت مدة خلافته بتونس تسعة أشهر ونصف شهر، وتولى تونس أمير المؤمنين المتوكل على الله أبو بكر ابن الأمير أبي زكريا يحيى ابن المولى السلطان أبي إسحق إبراهيم ابن الأمير أبي زكريا ابن الشيخ أبي محمد عبد الواحد ابن الشيخ أبي حفص أمه أم ولد رومية اسمها أملح الناس كانت ولادته بقسنطينة في شهر شعبان من عام اثنين وتسعين وستمئة.

وفي يوم الإثنين ثامن عشر من ربيع الآخر من سنة ثماني عشرة وسبعمئة المذكورة، قدم للقضاء بتونس الشيخ الفقيه الإمام أبو عبد الله محمد بن الغمز عرضه عليه السلطان فأجاب: وكم دعا قوماً فلم يقبلوا، وفي شهر رمضان سنة تسع وعشرين وسبعمئة توفي الشيخ الصالح العالم المفتي أمام جامع الزيتونة وخطيبه أبو موسى هارون الخميري، وكان لما مرض استخلف في الخطبة الشيخ ابن عبد السلام، فبلغ ذلك قاضي الجماعة حينئذ ابن عبد الرفيع،

فقدم الشيخ أبا عبد الله محمد بن محمد بن عبد الستار، وأرخ ابن عبد السلام فأتاه إلى أن مات سنة تسع وأربعين.

كان ابن عبد الستار مدرساً بمدرسة المفرض ويذكر أن ابن عبد السلام قرأ عليه، ومن ورعه ومهانة نفسه أنه كان يخطب يوم الجمعة بثياب صلاته، فإذا كان من الغد لبس جبة خشنة، وجعل على ظهر حماره الرشا وساقه بيده خارجاً لجنانه الذي منه يعيش يخدمه بيده، وسبب حرفته بالفلاحة أنه رأى في منامه زمن وجهته، الحج أن القيامة قد قامت ونودي بالناس: هلموا إلى باب الجنة، قال: فسرت مع جماعة فأدخلوا ورددت، وقيل لي أنك لست من هؤلاء فقلت: ومنهم قالوا: الفلاحون، قال: فآليت على نفسي إن رجعت لبلدي أن أحترف بالفلاحة.

وفي شعبان من سنة سبع وعشرين توفي بتونس الحاجب محمد بن عبد العزيز المعروف بالمزوار، فاستقدم السلطان محمد بن الحسين بن سيد الناس من بجاية، فقدم في المحرم فاتح سنة ثمان وعشرين وولاء حجابته، وكان السلطان أبو بكر لما خلص إلى بجاية بعد الكائنة التي وقعت عليه عزم على الوفود على ملك المغرب أبي سعيد ليفزعه على غال يغمراسن بن زيان، فأشار عليه محمد بن الحسين وزيره ببعث ولده الأمير أبي زكريا، فبعثه في البحر مع الشيخ ابن تافراجين، فلما قدموا على أبي سعيد واستصرخوه بكتب السلطان له بذلك اهتزموا وولده الأمير أبو الحسن لذلك.

ولما اجتمع السلطان أبو سعيد بالأمير أبي زكريا يوم مقدمه قال له: – والله لقد أكبر قومنا قصدك وموصلك، والله لأبذلن في مظاهرتكم مالي وقومي ونفسي، ولأسيرن بعسكري إلى تلمسان فأنزلها لكن بشرط أن يكون أبوك معي، – فانصرفوا مسرورين وقبلوا شرطه، ونهض السلطان أبو سعيد إلى تلمسان سنة ثلاثين.

فجاءه اليقين بوادي ملوية أن السلطان أبا بكر استولى على تونس، وأخرج زناتة وسلطانهم عنها في رجب من عام ثلاثين وجددت له البيعة بها، وهي المرة السادسة في أخبار تركت خشية الطول، فاستدعى السلطان أبو سعيد الأمير أبا زكريا ووزيره الشيخ ابن

تافراجين، وأمرهم بالانصراف على صاحبهم وأسنى جوائزهم، وركبوا أساطيلهم من ساغاسة، وأرسل معهم للخطبة والصهر إبراهيم بن حاتم المغربي، والقاضي أبا عبد الله بن عبد الرزاق، ورجع السلطان أبي سعيد إلى حضرته.

ولما انعقد الصهر للمولى أبي الحسين بالحرة فاطمة، زفها إليهم في أساطيله مع مشيخته الموحدين، فوصلوا بها من ساغاسة بين يدي مهلك السلطان أبي سعيد، وبعد وفاته بويع لولده أبي الحسن وزُفت إليه فأعرس بها، وأجمع أمره على الانتقام لأبيها من عدوه، فارتحل إلى تلمسان سنة ثمان وثلاثين، فبلغه الخبر أن أخا أبيه أبا علي صاحب سجلماسة نكث البيعة، فرجع إليه فحاصره حتى أخذه ورجع إلى حضرته.

وفي خامس المحرم من سنة إحدى وثلاثين وسبعمئة توفي القاضي أبو علي عمر بن محمد بن إبراهيم بن عبد السيد الهاشمي كان قاضي الأنكحة، وكان بينه وبين قاضي الجماعة ابن عبد الرفيع منافسات أجرتها الرياسة، وأوجبها التنازع في استحقاق منصب خطة القضاء، بحيث حال الأمر بينهما إلى تباعد كل منهما عن صاحبه.

شوّر القاضي أبو علي في عقدة نكاح بين ذميين بشهادة المسلمين، فأباحه فسمع قاضي الجماعة فأنكره، فوجه قاضي الأنكحة هذا لعدول تونس وأمرهم بالشهادة فيه، وألف كتاباً في إباحة الحكم بينهم، والشهادة عليهم، وفي أنكحتهم وسماه: إدراك الصواب في أنكحة أهل الكتاب.

وألف قاضي الجماعة كتاباً على صحة قوله ذكر ذلك ابن عبد السلام عنهما قال ابن عرفة: قلت لابن عبد السلام: ما الصواب عندك قال: المنع لأنهم لا يتحفظون في أنكحتهم، قال ابن عرفة: والصواب عندي الجواز؛ لأنا لا نطالبهم بما يجوز عندنا شرعاً، ولا تضرنا مخالفتهم في ذلك نقله السلاري.

وفي عام اثنين وثلاثين وصل الأمير عبد الواحد ابن السلطان أبي يحيى زكريا بن اللحياني أخو أبي ضربة لتونس، فملكها عند قدومه بعد موت أبيه من المشرق مع دباب وابن مكي، وتسامع به الناس وإفريقية خالية من حاميتها لنهوضهم إلى بجاية، فاغتنم حمزة بن عمر

الفرصة، فاستقدمه وبايعه ورحل به إلى تونس، ودخلها الأمير عبد الواحد وحاجبه ابن مكي، وقام بها إلى أن بلغ الخبر السلطان بمقربة من مسيلة بعد هدمه حصن بني عبد الواحد المحدث على بجاية، فقفل إلى الحضرة وبعث في مقدمته محمد البطرين من عسكر اختاره لذلك.

فأجفل ابن اللحياني وجموعه من تونس لخمس عشرة ليلة من نزلوهم ودخل البطرني إليها، وجاء السلطان على أثره أيام عيد الفطر من سنة اثنتين وثلاثين وسبعمئة، وجددت له بتونس البيعة وهي المرة السابعة له كما قيل:

فألقت عصاها واستقر بها النوى   كما قر عيناً بالإياب المسافر

وفي يوم الخميس ثالث عشر ربيع الأول من سنة ثلاث وثلاثين وسبعمئة أخذ محمد بن أبي الحسن بن سيد الناس بتونس، ثم قتل وصلب وأحرق بالنار ولم يظهر من ماله شيء، وذكروا أن سبب ذلك فلتات من لسانه مع ما كانت الظنون تترجم عن ذلك بالمداهنة، وكان الذي تولى القبض عليه محمد بن الحكيم، قال ابن الخطيب فلم تعد النار على يده اليمنى بشيء، وردت للنار مراراً، فلم تعد عليها، وهذا خبر لا شك فيه صحيح، وأوّلت بالصدقة بكتب ما فيه قربة.

وقُلّدت الحجابة بعده للكاتب أبي القاسم بن عبد العزيز الغساني، وفي شهر رمضان المعظم من سنة ثلاث وثلاثين توفي الشيخ الفقيه العالم أبو إسحق بن عبد الرفيع قاضي الجماعة بتونس من بيوتات التونسيين، ودفن بدار أعدها لدفنه قرب جامع القصر الأعلى. وجعل بإزائها مكتباً لتعليم الولدان كان مولده في ربيع الأول من عام سبعة وثلاثين وستمئة، بلغ عمره خمساً وتسعين سنة منها ثلاثون يتردد فيها ولاية القضاء بين تبرسق وقابس.

ثم ترقّى إلى قضاء تونس فداولها في خمس دول أولها في شهر جمادى الأول من عام تسعة وتسعين وستمئة، وكانت له معرفة بالوثائق والأحكام منفذاً لأحكامه غير متهيب للأمراء مقبوض اليد سالم العرض، وله تصانيف منها مفيد الحكام، ومنها الرد على المتنصر، ومنها اختصار أجوبة ابن رشد، ومنها الأجوبة عن أسئلة أوردها القاضي أبو بكر الطرطوشي، ثم

ولي بعده قضاء الجماعة نائبه الفقيه أبو علي عمر بن قداح الهواري، وكان فقيهاً حافظاً لمذهب مالك مفتياً له، مشاركة في علم الأصول وولي قضاء الأنكحة بتونس في كرتين ودرس بالشماعية، ولم تظل أيامه في القضاء وتوفي رحمه الله في عام أربعة وثلاثين وسبعمئة.

فسأل الشيخ ابن عرفة حدثني من أثق به لما مات القاضي ابن قداح بتونس تكلم أهل مجلس السلطان أبي يحيى في ولاية قاض، فذكر بعض أهل المجلس الشيخ ابن عبد السلام، فقال بعض أهل المجلس الكبار: إنه شديد الأمر ولا تطيقونه، فقال بعضهم: نختبر أمره فدسوا عليه رجلاً من الموحدين كان جاراً له يعرف بابن إبراهيم، فقال له: هؤلاء امتنعوا من توليتك؛ لأنك شديد في الحكم، فقال له: أنا أعرف العوائد وأمشيها، فحينئذ ولّوه من عام أربعة وثلاثين وسبعمئة إلى أن توفي عام تسعة وأربعين حسبما يذكر بعد.

قال الشيخ البرزلي في تأليفه بعد أن ذكر هذه الحكاية: لعله إنما ذكر ذلك لأنه خلف أن يتولى من لا يصلح بوجه فكان كلامه مانعاً منه، وكان الشيخ ابن عبد السلام عالماً ساد بالعمل ورأس، واقتبس من الحضرة ما اقتبس، له التأليف المشهور الذي شرح فيه ابن الحاجب، جمع بين القضاة والخطابة والتدريس والفتوى، وكان يدرس بالمدرسة الشماعية، ولما بنت أخت السلطان أبي يحيى مدرسة عنق الجمل، طلبت من أخيها السلطان أبي يحيى أن يكون قاضي الجماعة ابن عبد السلام مدرساً بمدرستها، فأسعفها فكان يقسم الجمعة بين المدرستين، ثم إن الحرة عزلته من مدرسته ونسبته للتفريط، وقدمت مدرساً الشيخ الفقيه أبا عبد الله محمد بن سلامة.

وفي عام خمسة وثلاثين كمل بناء البرج الجديد برأس الطابية، وبلغت النفقة فيه خمسين ألف دينار، وكان ينفق فيه من مال العموم، وفي العام المذكور تحرك السلطان أبو يحيى أبو بكر إلى مدينة قفصة، وكان استبد بشرارها يحيى بن محمد بن علي بن عبد الجليل بن العابد الشريدي من بيوتاتها، فنازلها السلطان أياماً، ونصب عليها المجانيق فامتنعوا لم جمع الأيدي على قطع نخلهم واقتلاع شجرهم فنادوا بالأمن فأمنهم.

وخرج إليه ابن عبد الجليل في ربيع الآخر من السنة المذكورة فأشخصها إلى الحضرة، وأنزله بها مع رجال من قومه بني العابد، وفرَّ سائرهم إلى قابس فنزلوا في جوار ابن مكي، ودخل أهل البلد في حكمه فأحسن التجاوز عنهم، ثم آثرهم بأن قدم عليهم ولده الأمير أبا العباس أحمد وأوصاه بهم وعقد له على قسنطينة، وما إليها وجعل معه على حجابته أبا القاسم بن عبو من مشيخة الموحدين، وقفل إلى حضرته فدخلها في شهر رمضان المعظم من سنته.

ثم عقد على سوسة والبلاد الساحلية لولديه الأميرين أبي فارس عزوز وأبي البقاء خالد، وأنزلهما بسوسة وأنزل معهما محمد بن طاهر حاجباً لهما، ثم هلك محمد بن طاهر فاستقدم السلطان محمد بن فرحون من بجاية ثقة باستبداد ابنه، ولم يولي من شاء على حجابته، وأنزل ابن فرحون مع هذين الأميرين لصغرهما وذلك في سنة خمس وثلاثين المذكورة، ثم استدعاه الأمير أبو زكريا إلى بجاية فرجع إليه، وأقام هذان الأميران بسوسة إلى أن نكب السلطان قائده محمد بن عبد الحكيم، واستنزل قريبه محمد بن الدكداك من المهدية.

وكان أنزله بها ابن عبد الحكيم لما افتتحها من يد المتغلب عليها ابن عبد الغفار حسبما يذكر، واتخذها حصناً لنفسه وأنزل بها قريبه هذا وملأها بالعدد والأقوات، فلم تغن عنه شيئاً، وبعد مهلكه استنزل ابن الدكداك وعقد طيها لابنه الأمير أبي البقاء خالد، وأفرد الأمير أبا فارس بسوسة إلى أن كان من أمرهما ما يذكر بعد إن شاء الله.

وفي أواسط سنة خمس وثلاثين خرج السلطان أبو الحسن المريني من فلس إلى تلمسان لأخذ ثأر صهره السلطان أبي يحيى أبي بكر من مصاحبها ابن تاشفين ففتحها عنوة، وغلبها لسبع وعشرين من شهر رمضان المعظم سنة سبع وثلاثين وسبعمئة، ووقف صاحبها في ساحة قصره فقاتل هنالك مع خاصته، حتى قتل ابناه عثمان ومسعود ووزيره موسى بن علي، وجعله من كبار أصحابه وأثخنته الجراح، ووهن لها فقبض عليه ورفع إلى السلطان، فلقيه الأمير عبد الرحمن ابن السلطان أبو الحسن فأموا به فقتل واحتز رأسه.

وشهد ذلك اليوم الشيخ ابن تافراجين كان وافاه رسولاً عن السلطان أبي يحيى ومجدداً للعهد فأمره السلطان أبو الحسن بالرحيل إلى سلطانه أبي يحيى أبي بكر بالبشارة، فدخل تونس

لسبع عشرة ليلة من يوم الفتح فعظم ذلك السرور عند السلطان أبي يحيى أبي بكر بمهلك عدوه والانتقام منه بثأره، فيقال: إن عدد القتلى الذين قتلوا أيام حصار تلمسان هذا من الفريقين ثمانون ألفاً.

وفي الليلة الموفية عشرين من جمادى الثانية سنة ست وثنتين وسبعمئة توفي الشيخ الفقيه الحافظ أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن راشد البكري القفصي بمدينة تونس، شارح ابن الحاجب أصله من قفصة ونشأ بها وقوي، ثم انتقل إلى تونس وأخذ عن ابن الغماز، ثم انتقل إلى المشرق فلقي أعلاماً كناصر الدين بن المنير الأبياري وشهاب الدين القرافي وتقي الدين ابن دقيق العيد وشمس الدين الأصفهاني وغيرهم، وأتقن القراءة في المعقولات وحج وزار.

ولما عاد من المشرق قدم لقضاء الجزيرة القبلية، ثم عزل وأخمل ذكره، وناوأه القاضي أبو إسحق بن عبد الرفيع، فلم يتركه يخرج رأسه طرفة عين حتى لقد منعه الجلوس للوعظ بجامع القصر الأعلى، وقال له: إن دخلته أكسر رجليك، فكان ابن راشد يقول: أتمنى أن أجلس أنا وهو للمناظرة حتى يظهر الحق، ومن هو المقدم في العلم، وله تصانيف منها تلخيص المحصول، ونخبة الراحل في شرح الحاصل، والفائق في الأحكام والوثائق في ثمانية أسفار، والشهاب الثاقب في شرح ابن الحاجب في ثمانية أسفار، المذهب في ضبط مسائل المذهب في ستة أسفار، وتحفة اللبيب في اختصار ابن الخطيب في أربعة أسفار، والمذاهب السنية في علم العربية، والمرتبة العليا في تفسير الرؤيا وغير ذلك.

قال الشيخ ابن عرفة: حضرت جنازته فقدر أن جلس الفقيه ابن الحباب بالجبانة مستنداً إلى حائط جبانة أخرى، وكان بالأخرى مستنداً إلى ذلك الحائط الشيخان القاضي ابن عبد السلام والمفتي ابن هارون، فأخذ ابن الحباب في الثناء على ابن راشد وذكر من فضائل علمه ما دعاه الحال إلى أن قال: ويكفي من فضله أنه أول من شرح جامع الأمهات لابن الحاجب، ثم جاء هؤلاء السراق وأشار إلى الجالسين خلفه، فعمد كل واحد معهم إلى وضع شرح عليه وأخذ من كلامه ما لولاه ما علم أين يمر ولا يجيء.

وفي التاسع والعشرين من جمادى الآخرة من سنة سبع وثلاثين وسبعمئة توفي بتونس الفقيه المؤرخ أبو محمد عبد الله بن محمد بن أبي القاسم بن علي بن عبد البر التنوخي، ك إماماً بجامع الزيتونة وخطيباً بجامع القصبة عدلاً ذا سمة حسن له عناية بالتاريخ والرواية اختصر ذيل السمعاني واقتضب تاريخ الغرناطي، وألف تاريخاً على طريقة الطبري مرتباً ع السنين من سنة البعثة المحمدية إلى زمنه أجاد فيه وتجزئته من ستة أسفار، وكان يجلس لرواية مقامات الحريري بدويرة جامع الزيتونة، وبه استدل الشيخ ابن عرفة على فعل مثل ذلك ذكره في مختصرة الفقهي وجعله حجة في العمل مع ما في المقامات من المثالب.

قال الشيخ أبو محمد عبد الواحد الغرياني لما ولي شيخنا القاضي عيسى الغبرين أمام جامع الزيتونة بعد شيخنا ابن عرفة سألني: هل عندك علم في سند النقارة التي تهز بدويرة الجامع أعلاماً بإقامة الصلاة، فأخبرته أن أبي حدثني عن شيخه عبد الله بن البر هذا، أنه كان إذا أتى للجامع أكثر ما يجلس على إسطبل بإزاء باب الجنائز، فإذا رآه المؤذن هنالك الصلاة.

وقليل جلوسه في الدويرة إلا لعذر أو لرواية كتاب عليه، فربما لا يعرف المؤذن هل هو هنالك أم لا، فتجد خدمة الجامع يهزون تلك النقارة أعلاماً بحضوره على وجه الندرة لا على وجه الكثرة، فاستحسن إخباري له بهذا والتزم طرح نقرها وقال: إني لم أدرك وجه للخلاص في فعلها، وبقي كذلك إلى أن مات، ولما ولي بعده الشيخ أبو القاسم البرزلي إمام الجامع أعاد النقارة اقتداء بشيخه ابن عرفة إلى أن مات، ومن بعده من أئمة زماننا بعضهم يتركها كالشيخ أبي الحين بن محمد اللحياني وبعضهم لا يتركها.

وفي عام ثمانية وثلاثين وسبعمئة فتح القائد مخاوف بن الكماد قشتيل جربة، واستخلصه من أيدي النصارى بعد أن حاصره أعظم محاصرة، وفي عام تسعة وثلاثين فتح القائد محمد بن عبد الحكيم المهدية واستخلصها من يد عبد الغفار بعد أن سكنها أعواماً.

وفي يوم الأربعاء الخامس عشر من ذي الحجة من العام المذكور توفي صاحب قسنطينة الأمير أبو عبد الله محمد ابن المولى، السلطان ابن يحيى أبي بكر بقسنطينة بمرض أصابه فق

شهوة الطعام وسنه يقرب من الثلاثين سنة، وترك من الأولاد الذكور سبعة فتوجّه منهم ولده الأمير أبو العباس أحمد إلى جده الخليفة السلطان أبي يحيى يطلب منه الإنعام له ولإخوته بقسنطينة سنه يومئذ إحدى عشرة سنة فرحّب به ودعا له وأسعفه بمطلوبه، وعقد لكبير الأولاد الأمير أبي زيد عبد الرحمن على عمل أبيه لنظر القائد نبيل مولاهم لمكان صغره، وبقي الخليفة يتفقد أحوالهم ويسأل عن حالهم.

أنشد الشيخ الفقيه القاضي أبو العباس أحمد بن محمد بيتين للمولى الأمير الأمجد الأسعد أبي عبد الله محمد ابن المولى الخليفة أبي يحيى في ذم الخمر:

ما الخمر إلا شبهة للفتى والمعالم أصبحت ناهبة
تزري بعقل المرء من حينها لا أحسن الله لها عاقبة

وفي الليلة السادسة والعشرين من شهر رمضان المعظم من عام أربعين وسبعمئة، توفي الشيخ الصالح أبو عبد الله محمد ابن الشيخ الصالح أبي علي حسن القرشي الزبيدي، وفي سنة إحدى وأربعين وسبعمئة كانت الواقعة الشنعاء على المسلمين من النصارى أخذت فيها محلة السلطان أبي الحسن المريني بما فيها حتى دافع النساء النصار عن أنفسهن فقتلوهن، وخلصوا إلى حظايا السلطان عائشة بنت عمه أبي يحيى بن يعقوب، وفاطمة بنت السلطان أبي يحيى أبي بكر وغيرهما فقتلوهن واستلبوهن.

وفي ليلة الخميس الخامس من جمادى الأولى من عام اثنين وأربعين توفي الشيخ الصالح الإمام أبو الحسن علي بن منتصر الصدفي ودفن بجبل الجلاز، كان من أهل العلم والصلاح لا يبالي بذي سلطان لسلطانه، ولا تأخذه في الله لومة لائم كتب للقاضي ابن عبد السلام: يا محمد وليت أمك لم تلدك وليت إذ ولدتك لم تتكلم، وليت إذ تكلمت لم تتعلم.

ورأى يوماً مكاساً فأخذ قرطاساً وكتب فيه: من أكل طعاماً من مكس ينظر عاقبة أمره، وطوى الكتاب ووجهه للخليفة، فلما نظر فيه قال: ما هذا فأخبر بقطعه، وكذلك أخبر بامرأة روية وقعت في الجناب العلي ورام بعض الأمراء عصمتها فكتب للخليفة، أخبروني إن كان أردتم عز الإسلام فأعزوه، وإلا ارتحلنا من تحتكم فإن مثل هذا الواقع وحمايته من فعلة ردة.

قال الشيخ البطرني: فوجه الخليفة في الحين للقاضي ابن عبد السلام وقال له: – ما قمت ولا قعدت لو أنك أنفذت الحكم الشرعي ما سمعت، أنا مثل هذا –، ثم أمر بالمرأة فرفعت للقاضي وتم الحكم عليها، وكان حجته رحمه الله عام تسعة وتسعين وستمئة، وصحبه في الطريق الشيخ ابن جماعة.

وحكى عن نفسه أنه رأى في النوم أنه نودي عليه في جمع من الناس هذا فلان المولى الصالح التقي قال: فانتبهت وقلت: هذه شهادة فقدمه ابن عبد الرفيع للشهادة عدلاً بتونس، وكان لا يأخذ أجراً على شهادته، ويأخذ الصدقة والزكاة.

وحكى الشيخ ابن عرفة عنه أنه قال – يجلس كل يوم الخضر عليه السلام بالمقصورة الشرقية من جامع الزيتونة من أول آذان الظهر إلى أن يكثر الناس فيخرج – يشير إلى أنه رأى الخضر مراراً، وفي عام اثنين وأربعين فرغ من بناء مدرسة عنق الجمل، وفي فاتح سنة أربع وأربعين وسبعمئة توفي الحاجب الشيخ أبو القاسم بن عبد العزيز الغساني فقدَّم السلطان على حجابته شيخ الحضرة أبا محمد عبد الله بن تافراجين.

وفي عام خمسة وأربعين وسبعمئة تحرك السلطان أبو يحيى أبو بكر على توزر ودخلها وعفا عن شيخها أبي بكر بن يملول، ثم عقد عليها لابنه الأمير أبي العباس أحمد صاحب قفصة، وأنزله بها ومكنه من أزمتها ورجع السلطان إلى الحضرة ظافراً عزيزاً.

وفي شهر صفر من السنة المذكورة توفي بالقاهرة الشيخ الإمام الحافظ النحوي المفسر أثير الدين أبو يحيى محمد بن يوسف بن علي بن حيان الأندلسي، كان إماماً عارفاً بالتفسير والعربية انتقل من الأندلس إلى مصر واستوطنها، وأخذ الناس عنه فأفاد واستفاد، وتمذهب بمذهب الإمام الشافعي وصنف تصانيف في علوم جمة أربت على خمسين تصنيفاً، منها البحر المحيط في تفسير القرآن الذي اختصر الصفاقسي إعرابه، وكان جيد الشعر والنثر، فمن شعره:

عداتي لهم فضل علي ومنة ... فلا أذهب الرحمن عني الأعاديا

هم بحثوا عن زلتي فاجتنبتها ... وهم نافسوني فاكتسبت المعاليا

ومن شعره أيضاً:

لا ترتجِ الخير يا ذا المرء من أحد فالشر طبع وفيه الخير بالعرض

ولا تظن امرأً أسدى إليك يدا من أجل ذاتك بل أسداه للفرض

وفي يوم منى من سنة ست وأربعين وفد على السلطان أبي يحيى أبي بكر كانت بالسلطان أبي الحسن المريني أبو القصب بن عبد الله بن أبي مدين وفقيه الفتيا بمجلسه أبو عبد الله محمد بن سليمان السطي، ومولاه عنبر الخصيّ برسم خطبة بنت السلطان أبي يحيى الأمير أبي الحسن المريني عوضاً عن أختها فاطمة المتوفاة في غزوة خريف كما تقدم.

وفي فاتح عام سبعة وأربعين خرج الوزير أبو العباس بن تافراجين في العساكر لجباية هوارة فوقد عليه سحيم من أولاد القوم وقومه وضايقوه في الطلب، ثم انتهزوا فرصته بعض أيام فأجلبوا عليه فانفض عسكره وكبا به فرسه فقتل وحمل إلى تونس فدفن بها.

وفي يوم الأحد الحادي عشر من ربيع الأول من العام المذكور توفي الأمير أبو زكريا نجل السلطان أبي يحيى ببجاية وهو إذ ذاك صاحبها، وترك ابنه الأمير أبا عبد الله محمداً في حجر مولاه فارح المعلوجي بن سيد الناس فأقام مع ابن مولاه ينتظر أم الخليفة، وبادر حاجبه الأول أبو القاسم ابن علناس إلى الحضرة، وأنهى البر إلى الخليفة فقعد على بجاية لابنه الأمير أبي حفص كان معه بالحضرة، وهو من أصاغر ولده وأنفذه إليها مع رجاله وأولي اختصاصه، وخرج معه أبو القاسم بن عاناس فوصل إلى بجاية ودخلها على حين غفلة، وحمله الأوغاد من البطانة على إرهاف الحد وإظهار السطو، فخشي الناس البوادر وانتصروا.

ثم كانت في بعض الأيام هيعة تمالأ فيها الكافة على التوثب بالأمير القادم، فطافوا بالقصبة في سلاحهم ونادوا بإمارة ابن مولاهم من تسوروا جدرانها، واقتحموا داره أي دار أبي حفص وملكوا أمره وأخرجوه برمته بعد أن انتبهوا جميع موجوده، وتمايلوا إلى دار الأمير أبي عبد الله محمد ابن أميرهم ومولاهم بعد أن كان معزماً على التقويض عنهم، واللحاق بالخليفة جده وأذن له بذلك عمه القادم، فبايعوه بداره من البلد، ثم نقلوه من الغد إلى قصر بالقصبة وملكوه أمرهم، وقام بأمره مولاه فارح ولقبه باسم الحجابة.

واستمر حالهم على ذلك ولحق الأمير أبو حفص بالحضرة آخر جمادى الأولى لشهر من يوم ولايته، وبعث السلطان إلى بجاية أبا عبد الله بن سليمان من مشيخة الموحدين وكبار الصالحين يسكنهم ويؤنسهم، وبعث معه كتاب العقد عليها لحفيده الأمير محمد المذكور، فسكنت نفوسهم، وفي شهر ربيع الأول من سنة سبع وأربعين وسبعمئة كتب صداق الحرة عزونة بنت السلطان أبي يحيى أبي بكر على سلطان المغرب أبي الحسن المريني بصداق جملته خمسة عشر ألف دينار ذهباً ومئتا خادم، وتوجهت إلى المغرب في البر في شهر جمادى الثانية من السنة صحبة أخيها شقيقها الأمير الفضل صاحب بونة.

وفي ليلة الأربعاء الثانية من رجب من السنة المذكورة توفي السلطان الخليفة أبو يحيى أبو بكر بتونس، ودفن في روضة جده الشيخ أبي محمد عبد الواحد بالقصبة، فبلغ عمره خمساً وخمسين سنة إلا أشهراً، وحكاية موته مشهورة حكاها ابن الخطيب في كتابه أن السلطان كان في نزهة في رياضه الكبير، فأدخل عليه رسم روية هلال رجب على مادة قضاء الحضرة فقال: لا إله إلا الله دخل رجب، وكرر ذلك، ثم نام وتطهر وأخلص التوبة، ثم ركب واخترق الأسواق وكشف عن وجهه، وكان قليل الظهور وتصدق بمال كثير.

ثم حك كتفه واستدعى إحدى أخواته لتنظر ما بكتفه، فوجدت حبة حميرة، ثم زادت الحمى بسببها، وهو يأمر بمهمات دفنه، وشأن تجهيزه إلى أن مات رحمه الله، ما يزال في ترجمان العبر كانت وفاته فجاء في اللية المذكورة فهب الناس من مضاجعهم متسائلين إلى القصر يستمعون أنباء النعي وأطافوا به سافر ليلتهم، تراهم سكارى وما هم بسكارى إلى أن ظهر لهم موته من الغد، ودفنوه فكانت مدة خلافته بتونس من حين وليها في المرة الأولى تسعاً وعشرين سنة وعشرة أشهر وخمسة وعشرين يوماً وعمره خمسة وخمسون عاماً غير شهر.

وولي بعده ولده الأمير أبو حفص عمر ابن المولى السلطان أبي يحيى أبي بكر ابن المولى الأمير أبي زكريا يحيى ابن الشيخ أبي محمد عبد الواحد ابن الشيخ أبي حفص أمه أم ولد اسمها حباب، كانت ولادته يوم السبت الخامس عشر من جمادى الأولى من سنة ثلاث وعشرين وسبعمئة، بويع له بالخلافة يوم الأربعاء الثاني من رجب الفرد من عام سبعة

وأربعين وسبعمئة، وذلك أنه لما مات السلطان بادر بملك القصر وضبط أبوابه، وبعث للقاضي ابن عبد السلام وقاضي الأنكحة الأجمي فقال لهما: تبايعاني ؟ فقالا: نحن شهدنا في بيعة أخيك أحمد صاحب قفصة، فأعطنا شهادتنا نقطعها فحينئذ نشهد في بيعتك.

قال الشيخ ابن عرفة: فخاض الناس بعضهم في بعض وهم جلوس في القبة الكبرى فأمر الشيخ ابن تافراجين أن لا يخرج أحد من القبة، وفسخ المجلس بقوله للقاضيين: نحن نمشي نشتغل بموته دفن السلطان وحينئذ نجتمع، واستدعى وجوه الموحدين وبعض وجوه البلد، وأخرج لهم الأمير عمر فبايعوه وما شعر القاضيان ومن معهما حتى سمعوا جلبة الطبول والبوقات والسلام فقالوا: ما هذا فقيل: قد بايع الناس الأمير عمر، واستدعى بالقاضيين ومن معهما فرأوا تمام القضية ووقوع البيعة وانعقادها من الجم الغفير، فكتبت وثيقة بعقد البيعة للأمير عمر لاختيار العامة والخاصة إياه عن ولي العهد، وهذا من حسن سياسة ابن تافراجين.

وكان السلطان خالد نجل السلطان برياض رأس الطابية، وكان قدم من بلدة المهدية وأتوا فبلغه الخبر ليلاً، فخرج فأوى بنفسه في نفر قليل من خدامه فتبعه من العرب أولاد منديل والكعوب مظهرين أنهم في خدمته، فلما أصبح قبضوا عليه وجاؤوا به إلى أخية الأمير أبي حفص فاعتقله، واستقام له الملك وتلقب بالناصر.

ولما بلغ الخبر للأمير أبي العباس أحمد صاحب قفصة بموت والده وتولية أخيه بادر بمن التف عليه من العرب إلى تونس، ولقيه أخوه أبو فارس عبد العزيز صاحب عمل سوسة بالقيروان، فآتاه طاعته وصار في جملته، وجمع السلطان أبو حفص عمر جموعه وخرج في غرة شعبان بمحلته من تونس، وصاحبه الشيخ أبو محمد بن تافراجين منذر منه بالهلكة، وعمل في أسباب النجاة حتى إذا تراءى الجمعان رجع الحاجب إلى تونس في بعض الشغل، وركب إلى المغرب من عمل قسنطينة.

وبلغ السلطان أبا حفص عمر خبر مقر الحاجب فاختلت مصافه، وتحيز على باجه وتخلف عنه أهل العسكر، ولحقوا بأخيه الأمير أبي العباس وسار الأمير أبو العباس بجيوشه

فملك تونس وبويع بها يوم السبت التاسع لشهر رمضان المعظم من السنة ونزل برياض رأس الطابية، وكانت أمه أم ولد أصلها رومية واسمها سعد السعود، وتلقب بالمحمد على الله، وأطلق أخاه خالداً من معتقله، ودخل إلى قصرة لسبع ليال من ملكه.

ثم إن الأمير أبا حفص عمر رحل من باجة، وأصبح على تونس يوم السبت سادس عشر شهر رمضان المعظم، وفرق خيله ورجله على أبواب المدينة وكسرت الأقفال وفتحت الأبواب، وقامت معه العامة فلم يجئ وقت الضحى إلا وقد استولى على المدينة، وقتل أخاه الأمير أحمد ونصب رأسه على قناة، وقطع أيدي أخويه خالد وعبد العزيز، فمات عبد العزيز في الحين وكمل على خالد.

وقتل في ذلك اليوم في المدينة وفي الربض نيف وثمانون رجلاً من العرب الواصلين صحبة الأمير أبي العباس أحمد بتونس، منهم أبو الهول بن حمزة بن عمر بن أبي الليل، فكانت دولة الأمير أبي العباس أحمد بتونس سبعة أيام، واستوثق للأمير أبي حفص عمر ملك الحضرة.

ثم بلغ الأمير أبا الحسن علي المريني أن الأمير عمر قتل أخاه أبا العباس أحمد صاحب قفصة، وولي العهد وكان يستظهر على عهده بكتاب أبيه، وما أودعه السلطان أبو الحسن المريني بطرته من الوفاق على ذلك بخطه اقتضاه منه حاجبه أبو القاسم بن عبر في سفارته إليه، فتنغض السلطان من ذلك ورأى أن الأمير عمر ارتكب مذاهب العقوق في إخوته، وخرق السياج الذي فرضه بخطه عليهم فأجمع أبو الحسن الحركة على إفريقية، وقوي عزمه على ذلك قدوم الوزير ابن تافراجين.

ولما قضي عيد الأضحى من سنة سبع وأربعين وسبعمئة عقد لابنه أبي عنان على المغرب الأوسط تلمسان وأحوازها، وتحرك هو إلى إفريقية رحل من ظاهر تلمسان في صفر عام ثماني وأربعين يجر الدنيا بما حملت، وأوفد عليه أبناء حمزة بن عمر بن أبي الليل أمراء البدو، ورجالات الكعوب أخاهم خالداً يستصرخه بثأر أخيهم أبي الهول ونزع إليه أهل القاصية من إفريقية بطاعتهم.

فجاؤوا في وفد واحد وابن مكي صاحب قابس وابن يملول صاحب توزر وابن العابد صاحب قفصة ومولاهم ابن أبي عنان صاحب الحامة وابن الخلف صاحب نقطة، فلقوه بوهران وأتوه ببيعتهم رغبة ورهبة، وأدوا بيعة ابن ثابت صاحب طرابلس، ولم يتخلف عنهم إلا لبعد داره، ثم جاء على الرغم صاحب الزاب يوسف بن منصور ابن مزني، ومعه مشيخة الزواودة وكبيرهم يعقوب ابن علي فلقيهم ببني الحسن من أعمال بجاية، وأوسع إليهم النيل تكرمه، وعقد لكل منهم على بلدة وعمله وبعث مع أهل الجريد عسكراً للحماية والجباية لنظر مسعود ابن إبراهيم اليرساوي من وزارته.

ولما أطل على بجاية خرج له أميرها الأمير أبو عبد الله محمد ابن الأمير أبي زكريا فأتاه طاعته فصرفه إلى المغرب مع إخوانه، وأنزله بلد ندرومة، ثم سار القسنطينة فخرج إليه بنو الأمير أبو عبد الله محمد يقدمهم كبيرهم الأمير أبو زيد، فأتوه طاعتهم فقبل منهم وصرفه إلى المغرب وأنزلهم بوجدة وأقطعهم جبايتها، وأنزل قسنطينة خلفاءه وعمال وأطلق المعتقلين بها من القرابة.

وورد عليه هنالك بنو حمزة بن عمر ومشايخ قومهم الكعوب وأخبروه بإجفال الأمير أبي حفص عمر من تونس مع أولاد مهلهل، واستحثوه لاعتراضهم قبل لحاقهم بالقفر فوجه السلطان أبو الحسن في طلبه وزيره حمو العسكري في ملحاء كبية وبعث معه أولاد أبي الليل، وسرح عسكراً إلى تونس لنظر يحيى بن سليمان من بنى عسكر ومعه أحمد بن مكي، فسار حمو ومن معه حتى أدركوا السلطان أبا حفص ومن معه بأرض الحامة من جهات قابس، بموضع يسمى المباركة بثوب جبل السباع فصبحوهم فدافعوا عن أنفسهم بعض الشيء، ثم انفضوا فقبض على الأمير عمر وعلى مولاه ظافر وسيقا إلى الأمير حمو، فاعتقلهما إلى الليل فذبحهما وبعث برأسيهما إلى السلطان أبي الحسن المريني فأدركه بباجة.

وخلص الملا إلى قابس فتقبض عبد الملك بن مكي على رجال من كبار الدولة منهم أبو القاسم بن عبو وصخر بن موسى وعلي بن منصور وغيرهم فبعث بهم ابن مكي إلى السلطان أبي الحسن فقطعهم من خلاف، فكان مقتل الأمير عمر يوم الأربعاء سابع عشر جمادى الأولى

من عام ثمانية وأربعين، فكانت مدة خلافته بتونس عشرة أشهر وخمسة وعشرين يوماً منها سبعة أيام لأخيه أبي العباس أحمد كما تقدم.

وملك تونس وبلادها السلطان أبو الحسن ابن السلطان أبي سعيد عثمان ابن أبي يوسف يعقوب ابن عبد الحق المريني، دخل تونس في الثامن من جمادى الآخرة من سنة ثمان وأربعين وسبعمئة، ودخل معه الشيخ أبو محمد عبد الله بن تافراجين، وأعطاه فرسه بسرجه ولجامه، ودخل معه إلى حجر القصر ومساكن الخلفاء فطاف عليها، ودخل معه إلى الرياض المتصلة به المدعوة برأس الطابية فطاف على بساتينه، وخرج منه إلى معسكره.

وأنزل يحيى بن سليمان بقصبة تونس في عسكر لحمايتها، ثم صرف للبلاد المغربية ولاتها ورحل بعد مدة إلى القيروان، فزار من بها من الصالحين والعلماء، ثم إلى سوسة والمهدية ووقف على آثار ملوك الشيعة وصنهاجة، ومر بقصر الجم ورياض المنتير، وانكفأ راجعاً إلى تونس فحل بها غرة شهر رمضان المعظم من العام المذكور.

ولما استوثق له ملك إفريقية منع العرب من الأمصار التي ملكوها بالإقطاعات فوجسوا لذلك، وتربصوا الدوائر وأغاروا بعض الأيام في ضواحي تونس فاستاقوا الظهر الذي كان للسلطان في مراعيه، وتوقعوا بأسه ووفد عليه أيام الفطر خالد بن حمزة وأخوه أحمد من أولاد أبي الليل وخليفة بن عبد الله بن مسكين وخليفة بن أبي زيد بن حكيم وساءت ظنونهم، فداخلوا عبد الواحد بن اللحياني في الخروج على السلطان.

فرفع الخبر إلى السلطان فقبض على أربعتهم، وأحضرهم مع عبد الواحد فأنكروا وبهتوا، ثم وبخهم واعتقلهم وعسكر بساحة الحضرة لغزوهم وتلوم لبث الأعطيات وأزاح العلل، فبلغ الخبر إلى أحيائهم فانطلقوا يحزبون الأحزاب وينظرون لمن يقيم الملك وكان أولاد مهلهل أقيالهم وعديلة حملهم قد أيأسهم السلطان من القبول والرضا بها بالغوا في فضيحة السلطان أبي حفص عمر فلحقوا بالقفر ودخلوا الرمال فركب إليهم قتيبة بن حمزة وأمه ومعهم ظعائن أبنائها متذممين لأولاد مهلهل بالعصبية فأجابوهم.

واجتمعوا بقسنطينة وتواهبوا الدماء وتآمروا في من ينصبونه للأمر، وكان بتوزر أحمد بن عثمان بن أبي دبوس آخر خلفاء بني عبد المؤمن، وكان خياطاً فجاؤوا به ونصبوه للأمر وتبايعوا على الموت، وزحف إليهم السلطان أبو الحسن فالتقوا بالثنية دون القيروان فغلبهم، وأجفلوا أمامه إلى القيروان، ثم رجعوا مستميتين ثاني المحرم من سنة تسع وأربعين، وتوافقوا فاختل مصاف السلطان ونهبت محلته بكل ما فيها، وكان جيشها يزيد على ثلاثين ألف فارس، ونجا السلطان بنفسه في شرذمة فتحصن بالقيروان وأخذوا بمخنقه.

وكان الشيخ ابن تافراجين لم يجره السلطان أبا الحسن على مألوفه، كما كان مع السلطان أبي يحيى أبي بكر لكون هذا قائماً على أمره، فكان في قلبه مرض وكان العرب يفاوضونه بذات صدورهم من الخلاف والأجلاب، فلما أحاطوا بالسلطان بعثوا في لقائه وأن يحملوه حديث بيعتهم إلى الطاعة، فأذن له السلطان فخرج إليهم فقلدوه حجابة سلطانهم أحمد بن أبي دبوس، ثم دفعوه لمحاربة مَنْ بقصبة تونس فنازلها ونصب المجانيق عليها فلم تغن شيئاً.

فجعل يحاول نجاة نفسه لاضطراب الأمور إلى أن بلغه خلوص السلطان من القيروان إلى سوسة وكان السلطان داخل أولاد مهلهل وحكياً في الصلح على أموال اشترطها لهم، فاختلف رأي العرب لذلك ودخل إليه قتيبة ابن حمزة بمكانه من القيروان إلى سوسة، وكان السلطان داخل أولاد مهلهل وحكياً في الصلح على أموال اشترطها لهم.

فاختلف رأي العرب لذلك ودخل إليه قتيبة ابن حمزة بمكانه من القيروان زعماً بالطاعة، فقبله وأطلق أخويه خالداً وأحمد ولم يثق إليهم، ثم دخل إليه محمد بن طالب من أولاد مهلهل وجماعته فأسرى معهم بعسكره إلى سوسة فصبحها وركب منها في البحر إلى تونس، وسبق الخبر لابن تافراجين فتسلل عن أصحابه وركب البحر إلى الإسكندرية في ربيع الآخر، فأصبحوا وقد تفقدوه فاضطربوا وأجفلوا عن تونس.

ولما دخل السلطان تونس من البحر أصلح أسوارها وأدار الخندق بها، ثم أجلب أولاد أبي الليل وسلطانهم أحمد بن عثمان ابن أبي دبوس بتونس، ونازلوها والسلطان أبا الحسن فامتنعت عليهم، وخلصت ولاية أولاد مهلهل للسلطان.

فلما أحس بهم أولاد أبي الليل رجعوا إلى مهادنتهم فعقد لهم السلم، ودخل عمر كبيرهم إليه وافداً في شعبان من السنة فحبسه إلى أن قبضوا على سلطانهم أبي دبوس وقادوه إلى السلطان أبي حسن مبالغة في الطاعة، فقبل ذلك منهم وأودع سلطانهم المذكور السجن، ولم يزل فيه إلى أن رحل إلى المغرب ولحق هو بالأندلس، وأقام السلطان أبو الحسن بتونس ووفد عليه أحمد بن مكي فعقد لعبد الواحد اللحياني على الثغور الشرقية طرابلس وقابس وصفاقس وجربة وسرحه مع ابن مكي فهلك عبد الواحد عند وصوله في الطاعون الجارف، وعقد لابن عبو على قسنطينة وسرحه إليها، وعقد السلطان أبو الحسن لابنه أبي الفضل على ابنة عمر بن حمزة وكان أمر الله قدراً مقدوراً.

ولما وقع على السلطان أبي الحسن ما وقع في القيروان هربت بنو مرين مشاة بالمرقعات إلى المغرب، فقدموا على الأمير أبي عنان وشاع الخبر أن السلطان أبا الحسن توفي على القيروان، وكتب بذلك رسم شهد فيه خلق كثير من الواصلين من بني مرين، فدعا الأمير أبو عنان لنفسه فبويع في أول عام تسعة وأربعين بتلمسان، ثم خرج لفأس بعد أن استعمل على تلمسان عثمان بن يحيى بن محمد بن جرار من بني عبد الواحد، فعندما انفصل أبي عنان عن تلمسان دعاه عثمان بتلمسان لنفسه، وعاد ملك بني عبد الواحد إلى تلمسان، وكان مع السلطان أبي الحسن بتونس طائفة من بني عبد الواحد، فسلما.

أصاب أبا الحسن ما أصابه في وقعة القيروان اجتمع بنو عبد الواحد بتونس واتفقوا بعد الشورى على مبايعة عثمان بن عبد الرحمن بن يحيى بن يغمراسن بن زيان، ورحلوا إلى تلمسان فقام أهلها على المستبد بها عثمان بن يحيى فاستأثر بها لنفسه من السلطان عثمان بن عبد الرحمن فإنه ودخل إلى حضرته آخر جمادى الآخرة، ثم قبك على عثمان بن يحيى فأودعه الطبق إلى أن مات، وكان السلطان أبو الحسن لما قدم إفريقية وأخرج صاحب بجاية وصاحب قسنطينة وصرفهم للغرب كما تقدم، أبقى الأمير أبا العباس الفضل ببلده بوفة لما غلب على ظنه من عافيته وسابق معرفته به بمصاهرته بأخته.

فلما وقعت الواقعة التي وقعت على السلطان أبي الحسن كاتب الأمير الفضل أهل قسنطينة، ثم قدمها وحاصرها فدخلها صبيحة يوم الجمعة غرة المحرم فاتح سنة تسع وأربعين وسبعمئة، وقصد القصبة فأنطقت في وجهه ومرت أسوارها فقصد جامع البلد، وصلى فيه الجمعة ولم يصل فيه خليفة حفصي قبله، ثم بعث بالأمان ففتحوا له فدخلها عصر ذلك اليوم واحتوى الأمير الفضل على أموال كثيرة في القصبة، وهي ما أتت به الوفود من الهدايا لأبي الحسن وما كان بالقصبة من المجابي وأقام بها ثلاثة أشهر، ثم تحرك إلى بجاية فأخذها بقيام أهلها على بني مرين وارتفع له بذلك صيت، وعزم على الرحيل إلى الحضرة والسلطان أبو الحسن مقيم بها.

ولما تبين للأمير أبي عنان حياة والده خاف من عقوبته، فبعث صاحب بجاية وصاحب قسنطينة كلاً لبلده ليعظم الأمر على أبيه، وليكونوا حائلين بينه وبين بلاده وربط معهم في ذلك ربوطاً. فقصد كل بلده ورجعت البلاد إلى أربابها، وتوجه الأمير الفضل من بجاية إلى بونة في البحر بعد أن أخذ بيده وسيق للأمير أبي عبد الله الداخل طيه بيجاية، فعفا عنه ووجهه إلى بلده بونة في البحر، وذلك في شوال من سنة تسع وأربعين فوجد بعض قرابته قد ثار ببونة، ولم يتم لهم ذلك فدخل إلى قصره واستغلت الثغور الغربية بأمرائها.

وفي السنة المذكورة توفي المحافظ عبد المهيمن الحضرمي السبتي الدار التونسي القرار، كان إماماً في علم الحديث وحجته في حفظه ورجاله، له أربعينيات في الحديث جلس للتدريس بتونس أيام الدولة المرينية بمجلس السلطان أبي الحسن، فقرأ القارئ وهو الشيخ ابن عرفة في كتاب مسلم حديث مالك بن مقول بكسر الميم وفتح الواو من مقول، فقال له عبد المهيمن أو الفقيه ابن الصباغ: مقول بفتح الميم وكسر الواو، فأعادها الفلوي قاصداً خلافه كما قرأها، فضحك السلطان وأدار وجهه إلى عبد المهيمن وقال له: تراه لم يسمع منك، فأجابه بقوله: لا تبديل لخلق الله، وقد ضبط النوري اللفظ بالوجهين في كتاب الإيمان، إلا أنه قال ما قاله غير القارئ هو الفصيح فأنكره، ومن نظم أبي حيان في عبد المهيمن:

لـــــيس في الغـــــرب عــــالم غـــــير عبــــد المهـــيمن

نحـــــن في العلـــــم هكـــــذا إنــــا منــــه وهــــو منـــي

وفي السنة المذكورة توفي بتونس الشيخ أبو عبد الله محمد بن يحيى بن عمر المعافري المعروف بابن الحباب كان ابن عرفة يثني عليه بتحصيل العلم وتحقيقه وهو أحد أشياخه، قال ابن عرفة: وكنت أسمع أن ابن عبد السلام قرأ عليه فكنت أستبعد ذلك إلى أن حضرت تقييد كتب القاضي ابن عبد السلام بعد موته، فعثرت على اختصار المعالم لابن الحباب، وألقيت بخط ابن عبد السلام على ظهره أنه استدعاه أن يبيحه روايته، وأنه قرأ عليه فكتب ابن الحباب بخطه تحت خطه ما قاله صاحبنا الفقيه محمد بن عبد السلام صحيح إلى آخره.

ويحكى أنه دخل يوماً على بعض أصحابه الأدباء فلقيهم قد فرغوا من أكل جدي مشوي فقال له أحدهم: لقد فاتك الجدي يا ابن الحباب، فقال ثانيهم: وخبز سميد كثير اللباب، فقال ثالثهم: ولم يبق منه سوى عظمه ففطن هو لمرادهم فأجاب سريعاً: طعامكم طعامكم، فقال رابعهم: دعنا من هذا إنما هو لعمري طعام الكلاب، قال ابن عرفة ولما مات ابن الحباب حضرت جنازته وكنت سادس ستة، كان توفي في ذلك اليوم السكوتي فضاق اللجاج بالازدحام على نعشه؛ لأن منزلة ابن الحباب عند العامة لا تكون بذلك.

وفي السنة المذكورة توفي إمام جامع الزيتونة الفقيه المدرس أبو عبد الله محمد بن عبد الستار التميمي، وفي الثامن والعشرين من رجب السنة المذكورة توفي القبح العالم الشهير قاضي الجماعة محمد بن عبد السلام بن يوسف الهواري، وقبله بثلاثة أيام مات ولده ودفنا بالجلاز، وبعد وفاته ذكر لقضاء الجماعة الشيخ الفقيه المفتي أبو عبد الله محمد بن محمد بن هارون الكناني، فنصب منصبه فيه بولاية قاضي الأنكحة أبي عبد الله محمد الأجمي يقال: إن ابن عبد الرفيع رمى بنفسه على ابن تاسكرت، وكان مكيناً في الدولة المرينية، وقال له: إن توسطت لي في خطة القضاء فأنا أوليك عدالاً بتونس، فلم يزل الآخر يتمثل إلى أن وقع الشرط ومشروطه.

وذلك أن الأجمي كان قاضي الأنكحة فنقل لقضاء الجماعة واحتال ابن فاسكرت في تولية ابن عبد الرفيع قاضي الأنكحة، ثم إن الأجمي أقام مدة يسيرة وتوفي، فقيل يقدم ابن هارون فقال ابن تاسكوت: جرت العادة بأن قاضي الأنكحة هو الذي يتولى قضاء الجماعة، ووطد ذلك بأنه من بيوتات تونس فولاه السلطان بواسطته، وحين لقب ابن هارون بالفتيا بقي مفتياً إلى أن مات في عام خمسين وسبعمئة هو وزوجه في يوم واحد، وحفر لهما قبران متدانيان وحضر لدفنهما السلطان أبو الحسن المريني، فسأل الشطي أيهما يقدم فقال: الأمر في ذلك واسع.

وفي السنة المذكورة انتفض العرب على السلطان أبي الحسن واستقدموا السلطان أبا العباس الفضل من بونة لطلب حقه واسترجاع ملك آبائه، فأجابهم ووصل إليهم آخر سنة تسع وأربعين وسبعمئة فنازلوا تونس، ثم أفرجوا عنها وعادوا لمنازلتها أول سنة خمسين، وأفرجوا عنها آخر المصيف واستدعوا أبا القاسم بن عبو صاحب الجريد عليها، واتبعه في ذلك بنو مكي وانقضت إفريقية عن السلطان أبي الحسن من أطرافها، فلما رأى الأحوال تغيرت بإفريقية خرج من تونس إلى المغرب في البحر في أوائل شوال من سنة خمسين وسبعمئة، وعقد لابنه الفضل على تونس خرقاً من توارث الغرفاء ومصرة هيعتهم.

وأقلع من مرسى تونس ولخمس دخل مرسى بجاية وقد احتاجوا إلى الماء فمنعهم صاحب بجاية الورود، وبعث إلى سائر سواحله أن يمنعونه فقاتلوا من منعهم واستقوا وأقلعوا، فطرق الأسطول هول البحر ففرقت شذر مذر وتكسر الجفن المختص بالسلطان ببعض سواحل بجاية، فبينما السلطان بين الغرق والسلامة وقد تعلق بحجر قريباً من البر، وهو ينظر مصارع الفقهاء مثل المطر وابن الصباغ، ويشاهد اختطاف البحر أيام تداركه الله بجفن رفعه وقد حفت البحر فأدرك مدينة الجزائر واستقر بها، وقد تمسكت بطاعته فاستنشق بها ريح الحياة.

وكان الشيخ أبو عبد الله الأبلي من فقهاء المغرب لما عزم السلطان أبو الحسن على السفر من تونس في البحر اختفى هو تلكؤاً عن السفر دون غيره من الفقهاء، قال: وذلك أني رأيت

في النوم كأن قائلاً يقول لي: الفلك الفلك يكرر ذلك عليّ فانتبهت وما أدري ما هذا، فأخبرت بالرؤيا صاحبنا ابن رضوان فأخبر بها السلطان أبا الحسن فقال: لعله يريد السفر في البحر فاشتد عزمه في ذلك فجرى ما جرى، قال الشيخ ابن الفصار: فقلت للأبلي: إنما مراده أن الفلك جمع تكسير فلك.

واتصل بالسلطان أبي العباس الفضل وهو بالجريد خبر السلطان أبي الحسن وخروجه في البحر فأغذ السير إلى تونس ونزل عليها محاصراً لابن السلطان أبي حسن ومن كان معه فغلبهم عليها، واتصل أهل تونس به وأحاطوا يوم منى بالقصبة، واستنزلوا الأمير أبا الفضل بن أبي الحسن المريني على الأمان من القصبة، وخرج إلى بيت أبي الليل بن حمزة فأنفذ معه من بلغه إلى مأمنه فلحق بالجزائر بأبيه، فقدم السطان أبو الحسن بالجزائر عاملاً وخرج إلى المغرب فبعث له ولده الأمير أبو عنان جيشاً فكسره وهو ومن معه وقتلوا ولده الناصر.

فارتحل السلطان أبو الحسن إلى سجلماسة فارتحل له ابنه الأمير أبو ضأن إليها، فلما بلغ السلطان أبا الحسن الخبر بمجيء ابنه أبي عنان إليه بجيش لا طاقة له به، وحل عن سجلماسة ودخلها الأمير أبو ضأن ونهب أطرافها وقدم عليها عاملاً من قبله، وسار السلطان أبو الحسن إلى مراكش في سنة إحدى، وخمسين فرحل الأمير أبو عنان من فاس بعد أن جرد محلته إلى مراكش فالتقى الجمعان في أواخر صفر من السنة المذكورة، فانهزم عسكر السلطان أبو الحسن ولحق به أبطال بني مرين، فرجعوا عنه حياء وهيبة، وكبا به فرسه فسقط إلى الأرض والفرس تحوم حوله، واعترض دونه أبو دينار شيخ الزواودة، فدافع عنه حتى ركبه وخلص إلى جدد هتانة، ومعه كبيرهم عبد العزيز بن محمد بن علي فنزل عليه وأجاره.

واجتمع عليه الملأ من هتانة وبايعوه على الموت، وجاء الأمير أبو عنان على أثره ونزل بعساكره على جبل هتانة، وطلب السلطان أبو الحسن من ابنه أبي عنان الإبقاء وأن يبعث له حاجبه محمد بن أبي عمر، فبعثه فحصر عنده واعتذر عن الأمير أبي عنان، وطلب له الرضاء فرضي عنه وكتب له بولاية عهده، واعتل السلطان أبو الحسن خلال ذلك فمرضه أولياءه

وخاصته واقتصد لإخراج الدم، ثم باشر الماء بعضده للطهارة، فتورم وهلك رحمه الله لليال من قدومه لثلاث وعشرين من ربيع الثاني من سنة ثنتين وخمسين وسبعمئة.

وبعث أولياؤه بالخبر إلى أبي عنان ابنه بساحة مراكش ورفعوه على أعواد إليه فتلقاه حافياً حاسراً، وقبل أعواده وبكى واسترجع ورضي عمن كان معه وأكرمهم ودفنه بمراكش إلى أن نقله إلى مقبرة سلفهم بشالة في طريقه إلى فاس.

ولنرجع إلى ما كان من أمر تونس، وذلك أنه لما خرج الفضل ابن السلطان أبي الحسن المريني من القصبة على الأمان ملك تونس بعده الأمير أبو العباس الفضل ابن المولى السلطان أبي يحيى أبي بكر ابن الأمير أبي زكريا يحيى ابن المولى السلطان أبي إسحق إبراهيم ابن الأمراء الراشدين، أمه أم ولد رومية اسمها عطف كانت من أجمل الناس صورة وأحسنهم حظاً وأركنهم إلى صحبة من يضحكه، وكانت ولادته في شهر رمضان المعظم سنة إحدى وعشرين وسبعمئة.

وبويع بتونس في التاسع والعشرين من ذي القعدة من عام خمسن وسبعمئة وتلقب بالمتوكل، عقد على حجابته لأحمد بن محمد بن عبو نائباً عن عمه أبي القاسم، ريثما يفي من الجريد وعقد على جيشه وحربه لمحمد بن الشواش وكان وليه المطارد به أبو الليل فتيتة بن حمزة مستبداً عليه في سائر أحواله، فألف له بطانته من ذلك فحملوه على التنكر له وأن يبدله بأخيه خالد بن حمزة، وبعث لأبي القاسم بن عبو وقد قلده حجابته، وفوض إليه في أمره.

فركب إليه البحر من سوسة، واستألف له خالد بن حمزة ظهيراً على أخيه بعد أن نبذ إليه عهده وفاوضهم أبو الليل فتيتة بن حمزة قبل استحكام أموره، فغلب على السلطان وحمله على عزل قائده محمد بن الشواش فدفعه إلى بونة على عساكرها، واضطربت الفتنة بين أبي الليل بن حمزة وأخيه خالد وكاد شملهم أن يتصدع، وبينما هم يجمعون الجموع والأحزاب للحرب إذ قدم كبيرهم عمر بن حمزة والشيخ أبو محمد عبد الله بن تافراجين من حجيهما.

كان ابن تافراجين لمّا احتل بالإسكندرية بعث السلطان أبو الحسن فيه إلى ملوك مصر في التحكيم فيه، فأجاره الأمير المستبد على الدولة حينئذ خرج من مصر للقضاة فرضه، وخرج

عامئذ عمر بن حمزة في قضاء فرضه أيضاً، فاجتمعا في مشاهد الحج آخر سنة خمسين وسبعمئة، وتعاقدا المرجوع لإفريقية والتظاهر على أميرها، وقفلا فألفيا خالداً وأخاه أبا الليل فتيتة على الصفين فأشار الحاج عمر بردائه فاجتمعوا وتوافقوا وتواطؤوا جميعاً على المكر بالسلطان.

وبعث إلى السلطان الفضل وليه فتبته بالمراجعة فقبله واتفقوا على أن يقلد حجابته ابن تافراجين حاجب أبيه وكبير دولتهم ويزيل ابن عبو فأبى، ثم وافق ونزلت أحبارهم طاهر تونس وطلبوا السلطان الفضل للخروج إليهم ليكملوا عقد ذلك معه، فخرج ووقف بطاهر تونس إلى أن أحاطوا به، ثم اقتادوه إلى بيوتهم وأذنوا بابن تافراجين في دخول تونس، فدخلها في الحادي عشر من جمادى الأولى سنة إحدى وخمسين، فكانت مدة السلطان أبي العباس الفحل بتونس خمسة أشهر واثني عشر يوماً، وكان عمره تسعاً وعشرين سنة وثمانية أشهر.

ثم بويع بتونس بعده أخوه المولى الأمير أبو إسحق إبراهيم بن المولى السلطان أبي يحيى أبي بكر ابن الأمراء الراشدين، أمه أم ولد اسمها قوب الرضا كانت ولادته في شهر ربيع الأول سنة سبع وثلاثين وسبعمئة، وبويع في الحادي عشر من جمادى الأولى من سنة إحدى وخمسين وسبعمئة، وكان سبب بيعته أن الشيخ أبا محمد بن تافراجين لما دخل تونس بعد القبض على السلطان أبي العباس الفضل، كما ذكر عمد إلى دار المولى أبي إسحق إبراهيم المذكور، فاستخرجه بعد أن بذل لأمه من العهود والمواثيق ما رضيها.

وجاء به إلى القصر وأقعده على كرسي الخلافة وبايع له الناس خاصة وعامة، وهو يومئذ غلام مناهز فانعقدت بيعته، ودخل بنو كعب فأتوه طاعتهم وسيق إليه أخوه الفضل ليستوثقه فاعتقله، ثم غط بجوف الليل بمحبسه حتى فرحت نفسه وملك، ولاذ حاجبه أبو القاسم بن عبو بالاختفاء فعثر عليه لليال فاعتقل وامتحن وهلك في امتحانه، وخوطب العمال في الجهات بأخذ البيعة على من قبلهم فبعثوا بها، واستقام ابن يملول صاحب ترزر على الطاعة وبعث الجباية والهدية، واتبعه صاحب قفصة وصاحب نقطة وخالفهم ابن مكي

وذهب إلى الأجلاب على ابن تافراجين، لما كان قد كفل السلطان وحجره على التصرف في أموره إلى أن كان من أمره ما يذكر بعد.

ووقف الشيخ أبو محمد عبد الله بن تافراجين بين يدي المولى إبراهيم ومهد أموره وأحكم دولته ولقب بالمستنصر بالله وكانت سيرة الشيخ ابن تافراجين في مدته سيرة حسنة مع جميع أهل تونس، إلا أنه لم يكن له في أعرابها وطرقها قوة ظهور، وأعظم جبايته من سفار البحر، وكانت له مواصلة بالهدية مع ملك المغرب السلطان أبي عنان لكنها فسدت بإباءة ابنة المولى الخليفة أبي يحيى أبي بكر من قبول خطبته، وقالت: بلغني أن فيه قلقاً يمنع عشرته.

وفي سنة اثنتي وخمسين وسبعمئة جهز صاحب قسنطينة المولى أبو زيد عبد الرحمن ابن المولى أبي عبد الله محمد ابن السلطان أبي يحيى أبي بكر من قسنطينة إلى تونس جيشاً كبيراً أنفق عليه مالاً كثيراً وأمر عليه عتيقهم القائد ميمون.

فلما أحس بذلك الشيخ ابن تافراجين سرح جيشاً من الحضرة للقائهم مع فتيتة ابن حمزة، فالتقى الجمعان ببلاد هوارة فكانت الدائرة على أولاد أبي الليل، وقتل يومئذ فتيتة ورجع فلهم إلى تونس، وامتدت العساكر في البلاد والأوطان وجبوا الأموال وانتهوا إلى المدينة، ثم قفلوا إلى قسنطينة.

وتولى على أولاد أبي الليل مكان فتيتة أخوه خالد بن حمزة وكان أحمد بن مكي أثناء ذلك كان المولى أبا زيد من قابس يعده من نفسه الوفادة معه حتى إذا انصرم الشتاء وفد عليه مع أولاد مهلهل فلقيه وعقد له على حجابته وجميع عساكره، ورحل من قسنطينة سنة ثلاث وخمسين في صفر وجهز الشيخ أبو محمد بن تافراجين المولى أبا إسحق إبراهيم بما يحتاج إليه من العساكر والآلة، وجعل على حربه ابنه محمداً، وعلى حجابته أبا عبد الله بن نزار من طبقة الفقهاء حتى تلاقى الجمعان بمرماجنة، فاختل مصاف المولى أبي إسحق وتفرقت جموعه.

واتبعتهم القوم عشية يومهم ولحق السلطان بحاجبه أبي محمد بن تافراجين بتونس، وجاؤوا على أثره ونازلوا تونس أياماً، فامتنعت عليهم وارتحلوا عنها، ثم بلغهم الخبر أن ملك الغرب الأقصى السلطان أبا عنان بعد استيلائه على المغرب الأوسط وزحف إلى التخييم

الشرقية وانتهى إلى المدية، وكان الأمير أبو عبد الله محمد صاحب بجاية خالفهم في قسنطينة بمداخلة ابن تافراجين ونازل حمايتها، فبلغهم أنه رجع إلى بجاية منكمشاً من بني مرين.

فعزم المولى أبو زيد على مبادرة قسنطينة ورغب إليه ابن مكي وأولاد مهلهل أن يخلف بينهم من إخوانه من ممن يجتمعون إليه، فولّى عليهم أخاه المولى أبا العباس أحمد، فأقام عندهم هو وشقيقه المولى أبو يحيى زكريا إلى أن كان من شأنه ما يذكر، عاد وانصرف المولى أبو زيد إلى قسنطينة متوقعاً قدوم جيش بني مرين، وبعد استيلاء السلطان أبي عنان على المغرب الأوسط في خبر يطول ودخوله تلمسان سرح عسكراً لافتتاح الثغور وورد القاصية.

فأخذ العسكر الجزائر ومليانة والمدية وفر أبو ثابت ومن معه إلى جهة بجاية فقبض عليهم صاحبها أبو عبد الله محمد، وأدخلهم إلى بجاية وكان أبو عنان بعث إليه ليأخذ عليهم الطرف، فلما أخذهم خرج للقاء السلطان أبي عنان، واقتادهم في قبضة أسره فلقيه بظاهر المدينة، فشكر صنيعه وانكفأ راجعاً بهم إلى تلمسان فدخلها في يوم مشهود، وأبو ثابت الزعيم ووزيره على جملين، ثم أمر بهما ثاني يوم دخوله فأخرجا إلى صحراء البلد وقتلا معاً بالرماح، واعتقل أبا زيان محمد ابن السلطان أبي سعيد ضمان المذكورة بالسجن، وتركه وانقرض ملك بني عبد الواحد مرة ثانية من تلمسان.

ثم أمر من دس للأمير محمد صاحب بجاية وأغراه بالنزول على بجاية رغبة فيها عند السلطان، وأن يعوضه بها بمكتلتة المغرب فأجابه على إياس وكره فأقطعت له مكناسة، وانتزعت منه لأيام قلائل وأمره بالرحيل إلى المغرب، وعقد على بجاية لعمر بن علي بن الوزير بن أبي وطاس، وفي فاتح شهور عام خمسة وخمسين وسبعمئة عقد السلطان أبو عنان على بجاية وأعمالها لوزيره عبد الله بن علي بن سعيد وسرحه إليها فدخلها، وزحف إلى قسنطينة فحاصرها فامتنعت عليه ورجع إلى بجاية.

وفي عاشر ربيع الآخر من العام المذكور أخذ النصارى مدينة طرابلس غدراً أظهروا أنهم تجار فصدقهم صاحبها ابن ثابت، فلما كان عند الصباح نصبوا السلالم وصعدوا الأسوار، واستولوا عليها وفر صاحبها فحصل بأيدي ففتلوه وأخاه لدم كان أصابها منهم، وأسر

النصارى جميع البلاد ومكنوا فيها نحواً من أربعة أشهر، وكان خروجهم منها ثاني صفر شعبان من العام المذكور، بعد نقلوا جميع ما فيها لبلدهم جنوة وتركوها خاوية.

والعرب في أثناء ذلك يردون من أراد قتالهم من المسلمين إلى أن داخلهم ابن مكي صاحب قابس في فدائها، فاشترطوا عليه خمسين ألفاً من الذهب العين، فبعث فيها لملك المغرب السلطان أبي عنان يطرفه بمثوبتها، ثم تعجلوا عليه فجمع ما عنده واستوهب ما بقي من أهل قابس والحامة، وبلاد الحردي فوهبوها له رغبة في الخير، ومكنه النصارى من طرابلس فملكها، وبعث السلطان أبو عنان بالمال إليه صحبة الخطيب أبي عبد الله بن مرزوق، وأبي عبد الله محمد حفيد المولى أبي علي عمر بن سيد الناس، وأن يرد على الناس ما أعطوه ويتفرد بمثوبتها، فامتنعوا ووضع المال عند ابن مكي لذلك وعقد السلطان أبو عنان على طرابلس لأحمد بن مكي وعلي قابس وجربة لأخيه عبد الملك.

وفي سنة خمس وخمسين ارتفع سعر الطعام بتونس إلى أن بلغ سعر القفيز من القمح أحد عشر ديناراً ذهباً والشعير إلى النصف من ذلك، وفي سنة خمس وخمسين توفي أمام جامع الزيتونة الشيخ أبو إسحق إبراهيم البسيلي وتولى بعده الإمامة بالجامع المذكورة شيخ الشيوخ بتونس أبو عبد الله محمد بن عرفة الورغمي، وفي سنة سبع وخمسين وسبعمئة زحف صاحب بجاية الوزير عبد الله بن علي بن سعيد بجيوشه إلى قسنطينة فحاصرها، فامتنعت عليه فبقي محاصراً لها.

وكان المولى أبو زيد صاحبها قد دبر في النقلة إلى الصحراء أو غيرها لما غلب عليه من الحصار، وكان خالد بن حمزة قد فسد ما بينه وبين الشيخ أبي محمد بن تافراجين فعدل عنه إلى اقتتاله أولاد مهلهل واستدعاهم للمظاهرة، فأقبلوا إليه وتحيز خالد بن حمزة إلى السلطان أبي العباس أحمد، وزحفوا معاً إلى تونس فنازلوها في السنة المذكورة وامتنعت عليهم فأفرجوا عنها.

واستقدم المولى أبو زيد إثر ذلك أخاه المولى أبا العباس لينصره من عساكر بني مرين، عندما ضاق به الحصار، فأجاب وقدم عليه بخالد وقومه فخرج المولى أبو زيد مع خالد إلى

منازلة تونس، ووقع مجلس فيمن يبقى بقسنطينة، فأشار المزوار القائد نبيل بجلوس أخيه المولى أبي العباس فدخلها والياً، وارتحل المولى أبو زيد متوجهاً إلى تونس ولم يتمكن من نزولها وافترقت عربه فرجع إلى بونة وشوقت نفسه في الرجوع إلى قسنطينة، فتمسك أهل قسنطينة بواليهم المولى أبي العباس أخيه لديانته وعقله.

فوقف وباشر المحاصرين قبل مبايعته، وكتب رسم شهد فيه جماعة من عدول البلد وكبرائها أن الأمير أبا زيد لا قدرة له على مدافعة ما وقع بالبلد، ولا على القيام بأمرها لعجزه عن ذلك وأن أولى الأمراء بالمبايعة للمدافعة إخوة المولى أبو العباس أحمد، فبويع في شعبان من سنة ست وخمسين، فأيس المولى أبو زيد من قسنطينة لاستبداد أخيه بأمرها ولم يركن لمقامه ببونة.

فراسل الشيخ ابن تافراجين في السكنى بتونس والنزول عن بونة لعمه السلطان أبي إسحق فأجيب وتحول إلى الحضرة بمن بقي معه من خواصه فأوسعوا له المنازل وأسسوا الجرابات وأقام تحت نظرهم بعد أن كان طالباً لهم، ووقف المولى أبو العباس للأمر بقسنطينة ونوب الزعماء وباشر المحاصرين بنفسه.

ولما كان في آخر سنة سبع وخمسين شاع في محلة المحاصرين لقسنطينة أن الملك أبا عنان توفي وكان مريضاً، وذلك أن الوزير عبد الله بن علي رحل عن قسنطينة، ونزل وادي القطن وإذا بفارس أتاه بكتاب من السلطان أبي عنان بأمره بالرجوع إلى بجاية، فأحرق المجانيق وغيرها من الآلات الثقيلة.

ورحل فشاع من أجل ذلك خبر موته وبلغ السلطان أبا العباس فجهز جيشاً بعد الكلام مع اليوسفيين وبعض أهل الوطن فضربوا على محلة المحاصرين لهم ليلاً، وذلك في ذي الحجة من سنة سبع وخمسين، فنهبوها وهزموا الفرسان وقتلوا بعض أولاد موسى بن إبراهيم، وفر الوزير بنفسه جريحاً إلى المغرب، فوصل الخبر إلى السلطان أبي عنان في أيام التشريق من السنة وان قد أفاق من مرضه فاشتد حنقه وحزن لهذا الأمر وتحرك لقسنطينة.

ولما وصل خبر حركته إلى المولى السلطان أبي العباس بعث أخاه المولى أبا يحيى زكريا إلى تونس صريخاً لعمه السلطان أبي إسحق فأعجله الأمر عن ذلك، وارتحل السلطان أبو عنان بعسكره وبعث في مقدمته وزيره فارس بن ميمون، فنزل محاصراً قسنطينة في العشرين من رجب سنة ثمان وخمسين، وجد في القتال وكان المولى أبو العباس لا يفارق السور إلا وقت الوضوء للصلاة، فرصده أحد رماتهم ورماه بسهم تخلل عارضاً في لوية حمامته تحت حلقه، ودهشت الناس وسلمه الله.

ثم قدم السلطان أبو عنان يسوق الدنيا خلفه فنزل على قسنطينة في ثاني عشر شعبان من السنة، وطاف بها قبل نزوله متنكراً فأيس منها فبات ليلة مهتماً، ثم أدرك أهل البلد الدهش مما رأوا من كثرة الخلف فانفضوا وتسللوا إليه، وتحيز المولى السلطان أحمد إلى القصبة فامتنع بها، ثم طلب للصلح فأجاب وتوثق لنفسه بالعهد وشرط أماناً تاماً لأهل البلد، فكتبه السلطان أبو عنان بخط يده ملتزماً فيه ما طلب بأشد إيمانه، وخرج السلطان أحمد في جملة ناس واجتمع به وحده بالليل، ثم انصرف إلى المضارب التي ضربت له في جواره.

ثم بدا له لأيام قلائل فنقض عهده وأركبه البحر إلى المغرب وأنزله بسبتة ورقب عليه الحرس وأشخص كبار قسنطينة في البر إلى المغرب، ولما ملك قسنطينة بعث رسله إلى أبي محمد بن تافراجين في الأخذ بطاعته والنزول عن تونس فردهم، وأخرج سلطان المولى أبا إسحق إبراهيم مع أولاد أبي الليل بعد أن جهز لهم عسكراً وما يصلح من الآلة والجند وأقام هو بتونس، وأجمع السلطان أبو عنان النهوض إليه، ووفد عليه أولاد مهلهل يستحثونه لذلك فأرسل إلى تونس أسطولاً في البحر مقدمه القائد أبو عبد الله محمد الأحمر وجيشاً في البر مع أولاد مهلهل مقدمه يحيى بن رحو.

فسبق الأسطول إلى تونس فملكها بعد أن قاتلها يوماً أو بعض يوم وخرج عنها ابن تافراجين ولحق بالمهدية، واستولت عساكر بني مرين على تونس في شهر رمضان المعظم من سنة ثمان وخمسين، ولحق ابن رحو بعسكره فدخل البلد وأمضى فيها أوامر السلطان، ثم دعاه

أولاد مهلهل إلى الخروج لمباغتة أولاد أبي الليل وسلطانهم أبي إسحق، فخرج معهم لذلك وأقام ابن الأحمر وأهل الأسطول بتونس.

ومكث السلطان أبو إسحق إبراهيم صاحب تونس مع خالد بن حمزة بالجريد وعياله ونقلته بالمهدية مع الشيخ عبد الله بن تافراجين، وكان السلطان لما وجه جيشه في البر إلى تونس بعث معه الفقيه المحدث الخطيب ابن مرزوق برسم خطبة بنت السلطان أبي يحيى أبي بكر فوقف الفقيه على والدتها فقالت له: هذا إن شاء الله يكون الحديث بمحضر القاضي وغيره، فرجع إليها من الغد فاختفت عنه وجد الطلب عليها فلم يجدها.

وكان في خلال ذلك قد وصل إلى السلطان أبي عنان بمعسكره من ساحة قسنطينة بيعة يحيى بن يملول وبيعة علي بن الخلف صاحب نقطة ووفد أيضاً ابن مكي مجدداً طاعته والشيخ يعقوب بن علي من مشيخة رباح وأضافهم بالبلد ضيافة خرجت عن الأمثال، ثم جاهر يعقوب بالخلاف لما تبين من مكر السلطان أبي عنان، وأرهق حدة بالعرب ومطالبتهم بالرهن وقبض أيديهم عن الإتاوات فلحق بالرمل، وأتبعه السلطان فأعجزه قعداً على قصوره ومنازله بالتل والصحراء فخربها وانتسفها، ثم رجع إلى قسنطينة وارتحل منها قاصداً تونس، ونهض إثر ذلك المولى أبو إسحق بمن معه من الجريد للقائه وانتهوا إلى فحص تبسمة.

فتحدث رجال بني مرين في الرجوع عن سلطانهم حذراً من أن يصيبهم بإفريقية ما كان أصابهم من قبل فانفضوا متسللين إلى المغرب، ولما خف المعسكر من أهله نادى من بقي فيه المغرب المغرب فقال: ما هذا فأخبر فأمر بالرجوع إلى المغرب، واتبع العرب آثاره وبلغ الخبر إلى أبي محمد بن تافراجين بمكان منجاته ومن المهدية فنهض إلى تونس فأدرك من بها من بني مرين خبر قدومه، وقد ثار أهل البلد بهم فركبوا البحر وفروا إلى المغرب.

ودخل الشيخ ابن تافراجين تونس وكانت مدة غيبته سبعين يوماً، وبلغ الخبر بذلك المولى السلطان أبا إسحق فأقبل إلى حضرته فدخلها في الرابع من ذي الحجة من سنة ثمان وخمسين المذكورة بعد أن بعث المولى أبا زيد في عسكر الجنود والعرب لأتباع أثر بني مرين ومنازلة

قسنطينة، فاتبعهم إلى تخوم عملها ورجع إلى قسنطينة، فقتلها أياماً فامتنعت عليه فانكفأ راجعاً إلى الحضرة، ولم يزل مقيماً بها إلى أن مات.

ولما وصل السلطان أبو عنان لفاس وحل بها غرة ذي الحجة من السنة المذكورة عاقب أكثر الناس لامتناعهم من المسير معه إلى تونس، وثقف في غداة يوم وروده أربعة وتسعين شيخاً من شيوخ بني مرين، وقتل وزيره فارس بن ميمون وجماعة من وجوه الجند، وثقف الفقيه أبا عبد الله بن مرزوق فقال له: لِمَ لَمْ تضع اليد فيها حين ذهبت لتخطبها لي، فقال: بنت ملك يخطبها سلطان كيف أضع يدي فيها، فأبقاه في الثقاف بسبب ذلك ستة أشهر.

وفي جمادى من سنة تسع وخمسين وسبعمئة تحرك المولى أبو إسحق الحركة التي افتتح فيها المهدية، وكان فتحه إياها في شعبان، وسبب انتفاضها عليه أنه عقد عليها لأخيه الأمير أبي زكريا، وبعث على حجابته أحمد بن خلف من أولياء ابن تافراجين مستبداً عليه، فأقام على ذلك حولاً أو بعضه وذلك بعد انصراف السلطان أبي عنان، ثم ضجر السلطان أبو يحيى من الاستبداد عليه فبيت على أحمد بن خلف وقتله، وبعث لأبي العباس أحمد بن مكي صاحب جربة وقابس ليقيم له رسم الحجابة، لما كان مناوياً لابن تافراجين، فوصل إليه وطيروا بالخبر إلى السلطان أبي عنان، وبعثوا إليه بيعتهم واستصرخوه.

وسرح الشيخ ابن تافراجين إليها العسكر فأجفلوا أمامه، ولحق المولى أبو يحيى زكريا بقابس واستولى العسكر على المهدية، واستعمل ابن تافراجين عليها محمد بن الدكداك، وأقام المولى أبو يحيى بقابس وأجلب به أبو العباس ابن مكي على تونس، ثم لحق بالذواودة ونزل على يعقوب بن علي وأصهر إليه في ابنة أخيه سعيد وعقد له عليها، وبقي بينهم على أن أجلب به على الحضرة أيام المولى السلطان أبي العباس كما سيذكر.

وفي آخر سنة تسع وخمسين كانت وفاة السلطان أبي عنان وسنه ثلاثون سنة، ومدته عشرة أعوام فولي بعده ولده محمد السعيد تحت نظر وزير أبيه الحسن بن عمر البودودي قاتل السلطان أبي عنان، وثار على السعيد منصور بن سليمان بن منصور بن عبد الحق ونازل البلد الجديد (أي فاس الجديد) دار الملك، ودخل في طاعته سائر الممالك والأعمال وبعث في

السلطان أبي العباس صاحب قسنطينة ليصرفه إلى بلده، واستدعاه من محبسه بسبتة فخرج في رجب من سنة ستين.

وفيها تحرك المولى أبو إسحق صاحب تونس إلى قسنطينة وأقام عليها مدة، وبها بنو مرين، ثم رحل إلى بجاية، فقام أهلها على من بها من بني مرين وقائدهم يحيى بن ميمون بن محمود فكبل وصرف في البحر إلى تونس، واعتقل بها ودخل المولى أبو إسحق إلى بجاية سنة إحدى وستين، واستبد بها وأقام بها خمس سنين وحاجبه وكافله الشيخ أبو محمد بن تافراجين يمده من تونس، وبقي السلطان ببجاية حتى دخلها عليه صلحاً صاحبها ابن أخيه وهو الأمير أبو عبد الله محمد ابن الأمير أبي زكريا ابن المولى السلطان أبي يحيى أبي بكر بعد ترداده إليها مدة، وخرج المولى أبو إسحق إلى تونس في البر.

وفي العام المذكور خرج الأمير أبو سالم ابن السلطان أبي الحسن المريني مختفياً من غرناطة إلى ملك النصارى بإشبيلية، مستغيثاً به على ملك آبائه لما بلغه موت أخيه السلطان أبي عنان، واضطراب الوطن بعد أن أيس من إسعاف سلطان الأندلس على هذا الغرض، فرثى له ملك النصارى وجهز له جفنها من أسطوله أركبه إياه ومن معه، وقصد سواحل البلاد الغربية فنزل في جب الصفيحة على طريق سبتة، فوافق مجيء السلطان أبي العباس من سبتة لما أطلق.

وفي هذا الطريق ولد للمولى أبي العباس ولده الأمير أبو إسحق إبراهيم فأتى المولى أبو العباس الأمير أبا سالم وليس معه إلا رجال من الأندلس نحو الثمانية، فطلبه الأمير أبو سالم في الإقامة معه، وعاهده أنه إن تمكن من غرضه رده إلى قسنطينة بلده فوقف المولى أبو العباس معه بجملة عبيده القائد بشير وغيره، ثم ظهر حال الأمير أبي سالم وجاءته القبائل من الجبال.

وكان الثائر منصور بن سليمان قد وجه عسكراً مع أخويه عيسى وطلحة لدفاع الأمير أبي سالم ووقع بينهم القتال، ثم تفرق الجيش عن ابن سليمان، ولحق بالأمير أبي سلام وخلع الحسن بن عمر البودودي محمد السعيد بن أبي عنان بفاس وبايع الأمير أبا سالم، فملك أبو سالم المغرب بأسره ودخل إلى فاس الجديدة يوم الجمعة منتصف شعبان من سنة ستين، واصطفى خطيب أبيه العالم أبا عبد الله محمد بن أحمد بن مرزوق، وجعل توقيعه وكتابة سره

إلى الفقيه الحافظ أبي زيد عبد الرحمن بن خلدون صاحب ترجمان الغير، وكان نزع إليه من عسكر القائد منصور بن سليمان لما رأى من اختلال أحواله ومصير الأمر إلى السلطان أبي سالم، فأقبل عليه واستخدمه لكتابته.

ولما حل السلطان أبو سالم بفاس ومعه السلطان أبو العباس أحمد أمر بتصريح الأمير أبي عبد الله محمد صاحب بجاية من اعتقاله، ثم إن السلطان أبا سالم تحرك إلى تلمسان في سنة إحدى وستين، فدخلها وأقام بها مدة في خلالاها زار المولى أبو العباس سيدي أبا مدين وعاهد الله هنالك أنه لا يكافئ من فعل معه سيئة إلا بخير، ثم كتب السلطان أبو سالم لمنصور ابن الحاج خلوف الذي كان أخلفه أبو عنان عاملاً على قسنطينة أن ينزل عن المدينة للمولى أبي العباس وصرفه إليها بالإكرام، فدخلها في شهر رمضان المعظم من السنة المذكورة، وكان المولى أبو يحيى زكريا منذ بعثه أخوه المولى أبو العباس إلى عمهما السلطان أبي إسحق صريخاً، كما تقدم لم يزل مقيماً بتونس.

ثم لما عاد أبو العباس من المغرب واستولى على قسنطينة خشي الحاجب عبد الله بن تافراجين بادرة منه وتوقع زحفه ورأى أن يخفض جناحه في أخيه ويتوثق به فاعتقله بالقصبة وتحت كرامة ورعي وبعث فيه المولى السلطان أبو العباس بعد مراوضة في السلم، فأطلقه ووقع بينهما الصلح، ولما وصل المولى أبو يحيى زكريا إلى أهله بقسنطينة عقد له على العساكر وزحف إلى بونة، فملكها سنة ثنتين وستين وعقد له عليها وأنزله بها مع العساكر وصيّرها تخماً لعمله واستمرت حالها على ذلك.

وفي ليلة الثلاثاء السابع عشر من ذي القعدة من السنة المذكورة قام عمر بن عبد الله بن علي بفاس الجديد على السلطان أبي سالم وبايع تشفين الموسوس ابن السلطان أبي الحسن المريني، وخرج إليه السلطان أبو سامل من فاس القديم، فانهزم عنه جنده إلى فاس الجديد، وفرَّ هو بنفسه فلحق وقتل وأتي برأسه إلى فاس الجديد، ثم إن الناس نفروا على عمر بن عبد الله في تقديمه لتاشفين، وكان لا عقل له فبعث الأمير محمد ابن الأمير عبد الرحمن ابن

السلطان باي الحسن، وكان ببلاد النصارى فرَّ إليها خائفاً من عمه السلطان أبي سالم فقدم إليه فبايعه في أواسط صفر من عام ثلاثة وستين، وخلع تاشفين وأنزل بداره مع حرمه.

وفي العام المذكور نقم أهل جربة على ابن مكي سيرته فيهم ودسوا على الحاجب أبي محمد بن تافراجين بذلك فسرح إليها ابنه أبا عبد الله بالعساكر في الأسطول، ونزل بالجزيرة وضايق قشتيلها إلى أن فتحه عنوة وملك الجزيرة وأقام بها دعوة صاحب تونس، واستعمل عليها كاتبه محمد بن أبي القاسم ابن أبي العيون وانكفأ راجعاً إلى الحضرة، وفي فاتح سنة ست وستين وسبعمئة توفي الشيخ الحاجب أبو محمد عبد الله بن تافراجين بتونس، ودفن بمدرسته الكائنة بقنطرة ابن ساكن داخل باب السويقة، وحضر دفنه المولى الخليفة أبو إسحق حتى وضع بملحده واستبد السلطان بملكه من بعده وأقام سلطانه بنفسه.

وكان السلطان عند خروجه من بجاية في البر كما قدمنا مر في طريقه بقسنطينة، فنزلها في ضيافة أميرنا ابن أخيه المولى السلطان أبي العباس، وارتحل بعد راحته بها أياماً في عياله وخدمه إلى الحضرة، وعقب حلوله بها أصهر إلى الحاجب الشيخ أبي محمد المذكور في كريمته فعقد له عليها وأعرس السلطان بها، ثم كان مهلك الحاجب عقب ذلك، وكان ابنه أبو عبد الله وقت مهلك أبيه غائباً في الجباية والتمهيد، فلما بلغه مهلك أبيه داخلته الظنة وأوجس الخيفة، فصرف العسكر إلى الحضرة ورحل مع حكيم من بني سليم، وعرض نفسه على معاقل إفريقية التي كان يتظنن أنها خالصة لهم كجوبة والمهدية فصده ولاتها عنها.

فر وبعث إليه السلطان بما رضه من الأمان فأسحب بعد النفور وبادر إلى الحضرة، فتلقاه بالترحيب وقلده بحجابته، ثم أنكر هو مباشرة السلطان للناس، ورفعه للحجاب لما ألفه من الاستبداد منذ عهد أبيه، فأظلم الجو بينه وبين السلطان ودبت عقارب السعاية بينهما، فتنكر وخرج لقسنطينة ونزل بها على المولى السلطان أبي العباس مرغباً له في ملك تونس ومستحثاً، فأنزله خير نزل ووعده بالنهوض معه بعد الفراغ من أمر بجاية لما كان بينه وبين ابن عمه صاحبها من الفتنة، واستبد المولى إبراهيم بعد مفر ابن تافراجين عنه، وعقد على حجابته لأحمد بن إبراهيم المالقي ورفع الحجاب بينه وبين الناس.

وفي السنة المذكورة مات قاضي الجماعة الفقيه عمر بن عبد الرفيع فوقع الكلام في مجلس السلطان في تقديم قاض وحضر المجلس إمام الجامع الشيخ ابن عرفة فقال بعض الناس: جرت العادة أن قاضي الأنكحة يولى القضاء، وكان إذ ذاك قاضي الأنكحة الشيخ ابن حيدرة فقال الشيخ ابن عرفة: الله يوفق الناس في خلقه فالأولى تقديم ابن القطان من أهل سوسة فقال السلطان: ما نأتي به من القرى حتى تكون تونس قد خلت ممن يصلح. وأمر بتقديم محمد بن خلف الله النفطي، وكان قد نزع إليه من بلده نفطة مغاضباً لمقدمها عبد الله بن علي بن الخل، فرعى له السلطان نزوعه إليه.

ثم ولاه قود العساكر إلى الجريد وحربهم فكان له فيها عناء واستدفعوه مرات بجباياتهم يبعثون بها إلى السلطان ومرات بمصانعة العرب على الإرجاف بعسكره، وكان ابن المالقي يغص بمكانه عند السلطان، ولم يزل في نفسه منه إلى أن هلك السلطان وتقبض عليه كما سيذكر، وفي سنة سبع وستين تحرك السلطان أبو العباس أحمد من قسنطينة إلى بجاية باستدعاء أهلها إياه لسوء سيرة صاحبها أميرهم أبي عبد الله فيهم، ففرَّ من بين يديه ولحقه من رغب في الظهور عليه، ولم يتمكن منه إلا بضربه فمات، ودخل السلطان أحمد بجاية تاسع عشر شعبان من السنة المذكورة، فلما ملك بجاية جاءه كتاب الأمير أبي عبد الله وحاجبه الفقيه الوزير أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون فتلقاهم بالمرية وعفا عنهم.

في الثالث عشر من جمادى الأولى من السنة المذكورة توفي قاضي الجماعة بغرناطة الفقيه الموثق أبو القاسم بن سلمون بن علي بن عبد الله الكناني البياشي الأصل الغرناطي المولى والمنشأ المعروف بابن سلمون صاحب التأليف في الأحكام المسمَّى « العقد المنظم للحكام فيما يجري بين أيديهم من الوثائق والأحكام ».

وبعد تحرك السلطان أبي العباس أحمد من بجاية نازل تونس فافتتحها وغلب عليها، وعلى من كان بها من عمال بني عبد الواحد، وانتظمت الثغور الغربية كلها في ملكه كما كانت في ملك جده الأمير أبي زكريا الأوسط وبقي الأمي وأبو العباس أحمد يتردد بين بجاية وقسنطينة إلى أن تحرك إلى تونس كما يذكر بعد.

ولما فرغ من فتح بجاية سرح المولى أبا يحيى زكريا في العساكر مع أولاد المهلهل وكانوا قد قدموا عليه صحبة أبي عبد الله محمد بن الحاجب أبي محمد عبد الله بن تافراجين، فساروا معه إلى حضرة تونس وابن تافراجين في جملتهم، فنازلوها أياماً فامتنعت عليهم فأقلعوا على سلم ومهادنة انعقدت بين صاحب الحضرة وبينهم، وقفل المولى أبو يحيى إلى عمله بونة ولحق ابن تافراجين بالمولى أبي العباس.

وفي سنة تسع وستين وسبعمئة عقد السلطان إبراهيم لابنه أبي البقاء خالد على عسكر، لظر محمد بن رافع من طبقات الجند من مغراوة مستبداً على ابنه، وبعثه مع منصور بن حمزة وأمرهم بتدويخ ضواحي بونة وجباية أموالها، فساروا إليها وسرح المولى أبو يحيى صاحب بونة عسكره مع أهل الضاحية فأفنوا في مدافعهم وانقلبوا على أعقابهم.

ولما رجعوا إلى الحضرة تنكر السلطان لمحمد بن رافع قائد العسكر فخرج ولحق بقومه بمكانهم من تجبّة من عمل تونس واستقدمه السلطان بعد أن استعتب له، فلما قدم قبض عليه وأودعه السجن وعلى أثر ذلك كان مهلك السلطان فجأة في ليلة من رجب سنة سبعين وسبعمئة، بعد أن قضى وطراً من محادثة السمر، وغلبه النوم آخر الليل فنام، ولما أيقظه الخادم وجده ميتاً، فكانت مدة خلافته بتونس ثمانية عشر عاماً وعشرة أشهر ونصف شهر وترك من الأولاد الذكور خمسة ومن الإناث إحدى عشرة بنتاً.

ولما توفي السلطان فجأة غلب على البطانة الدهش، ثم راجعوا بصائرهم واتفقوا على مبايعة الأكبر من أولاد سلطانهم، فبويع الأمير أبو البقاء خالد ابن السلطان أبي إسحق إبراهيم ابن المولى السلطان أبي يحيى أبي بكر ابن الخلفاء الراشدين بويع بتونس في رجب من سنة سبعة وسبعمئة، صبيحة موت أبيه أخذ له البيعة من الناس مولاه منصور وعتيقه من العلوج وحاجبه أحمد بن إبراهيم المالقي، وحضر لها الموحدون والفقهاء والكافة وانفض المجلس، وقد انعقد أمره إلى جنازة أبيه حتى واروه التراب.

واستبد عليه منصور وعتيقه وابن المالقي فلم يمكن له حكم عليهما، وكان أول ما افتتحا به أمرهما أن تقبضا على قاضي الجماعة حينئذ محمد بن خلف الله من طبقة الفقهاء، لما كان في نفس المالقي منه، وأودعاه السجن مع محمد بن رافع المتقدم الذكر.

ثم إن المالقي بعث إليهما من داخلهما في الثوار من الاعتدال حتى دبراه معه، وظهر على أمرهما فقتلهما في محبسيهما خنقاً، وقدم بعد محمد بن خلف الله لقضاء الجماعة بتونس قاضي الأنكحة هذا الشيخ الفقيه العالم الحافظ أبو العباس أحمد بن حيدرة، وفي حدود إحدى وسبعين تولى الشيخ الفقيه القاضي أبو البركات محمد بن أبي بكر المعروف بابن الحد ولي القضاء والخطبة ببلد المرية ومالقة، ثم ولي قضاء الجماعة وخطبة الحضرة بغرناطة.

ولما قدم على السلطان أبي عنان سأله عن عمره فقال له: ليس من المروءة أن يخبر الرجل بسنه كذا قال مالك، فتغافل عنه وأخذ يسأله عن انتقالاته في البلاد، وعن زمن رحلته لبجاية، فأخبره بالتاريخ فسمّت له الكلام وقال: أترى عمرك حينئذ كم. فبادره بأن قال: أتسرقني أنت، وتفطن لما أراد منه.

وفي رابع ذي الحجة من السنة المذكورة توفي الشيخ العلامة الشريف أبو عبد الله محمد بن أحمد الحسن شارح الجمل الخونجي بتلمسان، وكان إماماً ذا عقل وذهن ثابت قال الشيخ أبي عرفة: رأيته وقد وفد لتونس فرأيت منه علماً تاماً ومعرفة وحكى عنه ولده قال: أنشدني أبي في المنام:

لأنت خليلي في الملاء وفي الخلا وأنت أنيسي والعباد هجوع

ولنرجع إلى ما كان من أمر تونس بعد ولاية الأمير خالد بها وذلك أن ابن المالقي ومنصور عتيقه وأتباعهما ساروا في الناس سيرة غير مرضية، وأشخصوا لوقتهم منصور بن حمزة شيخ أولاد أبي الليل وبني كعب بما أطمعوه في شركته لهم في الأمر، ثم لم يكملوا له بذلك فسخطهم ولحق بالمولى السلطان أبي العباس أحمد وهو مستجمع للوثوب بهم، فاستحثه لملكهم فأجاب صريخه، وكان أهل قسنطينة قد بعثوا إليه لمثل ذلك فسرح إليهم أبا عبد الله بن الحاجب أبي محمد بن تافراجين، فسار إليهم واقتضى بيعتهم وطاعتهم.

وسارع إلى ذلك يحيى بن يملول مقدم توزر والخلف بن الخلف مقدم نقطة، ثم خرج السلطان من بجاية في العساكر إلى الحضرة، وعقد على بجاية لولده المولى أبي عبد الله محمد وتلقته وفود إفريقية جميعاً بالطاعة، وانتهى إلى تونس فخيم بساحتها أياماً يغاديها القتال ويراوحها، ثم زحف إلى أسوارها وقد ترجل أخوه والكثير من بطانته.

فلم يقم لهم شيء حتى تسنموا الأسوار برياض رأس الطابية فنزل عنها المقاتلة، وفروا إلى داخل البلد ودهش الناس وتبرأ بعضهم من بعض وأهل دولة الأمير أبي البقاء في موكبهم وقوف بباب الغدر من أبواب القصبة، فلما رأوا أنهم أحيط بهم ولوا الأعقاب وقصدوا باب الجزيرة، فكسروا أقفاله وثار أهل البلد جميعاً بهم، فخلصوا بسلطانهم من البلد بعد مخنقة واعتنى الجند في أتباعهم، فأدرك أحمد بن المالقي فقتل وسيق رأسه إلى السلطان، وتقبض على الأمير خالد فاعتقل ونجا العلج منصور.

ودخل السلطان أحمد قصبته في يوم السبت الثامن عشر من ربيع الثاني من عام اثنين وسبعين وسبعمئة، وانطلقت أيدي العبث في ديار أهل الدولة لما كانوا يقطعون بالناس من اغتصاب أموالهم وتحاملهم عليهم، واضطرمت نار العبث في دورهم ومخلفهم فلم تكد أن تنطفئ.

وبعث السلطان أبو العباس أحمد بالأمير خالد وأخيه في الأسطول إلى قسنطينة، فعصفت بهما الريح وانخرقت السفينة وترادفت الأمواج إلى أن هلكا، فكانت مدة الأمير خالد سنة وتسعة أشهر ونصف، وولي بعده تونس السلطان أبو العباس أحمد ابن الأمير المرحوم أبو عبد الله محمد ابن المولى السلطان أبي يحيى أبي بكر ابن الخلفاء الراشدين امه أم ولد اسمها نقرال، بويع له بتونس يوم السبت الثامن عشر من ربيع الثاني من عام اثنين وسبعين المذكور، وكانت ولادته بقسنطينة في سنة تسع وعشرين.

ولما وصل إلى تونس سكن ما تزلزل وقوم ما تحول ورفع أنواع الفساد عن البلاد، واختصَّ خواصاً بمجلسه منهم الشيخ أبو عبد الله محمد ابن الشيخ أبو العباس أحمد بن تافراجين التميلي كان يقرر أصول المسائل السلطانية، ويذكر العادة فيما التبس منها إذا سُئل

عنها ورجع إليه في ذلك، وعقد على حجابته للمولى أبي زكريا أخيه ورعى لأبي عبد الله بن الحاجب أبي محمد بن تافراجين حق الحامية إليه، فجعله رديفاً في الحجابة لأخيه، وقدم من خواصه الواصلين معه أربعة الوزير أبو إسحق إبراهيم بن الزير أبي الحسن علي بن إبراهيم ابن أبي هلال عياد الهتاني وشقيقه الشيخ أبو عبد الله محمد، وأبو هلال هذا هو صاحب بجاية بعهد السلطان المنتصر والكاتب أبو إسحق إبراهيم بن أبي محمد عبد الكريم من كماد من كبار قسنطينة.

وأول من كتب علامته بتونس الفقيه أبو زكريا ابن الشيخ أبي إسحق إبراهيم بن وحاد الكومي القسنطيني وطالت في ذلك مدته إلى أن توفي فكتبها بعده الفقيه أبو عبد الله محمد قاسم بن عبد الرحمن بن الحجر من بيوتات قسنطينة العدول وطالت كتابته مع حسن الخط وجازة اللفظ إلى وفاة الخليفة، وأحدث المولى السلطان أحمد بتونس حسنات دائمة فمنها إنشاؤه لسبلة المدينة ببطحة ابن مردوم، ومنها إقامة القراءة في الأسباع في المقصورة غربي جامع الزيتونة في كل يوم بالوقف المؤبد، ومنها بناؤه البرج الكبير المعروف بقرطيل النجار شرقي بلد قمرت قرطاجنة وجعله للحراسة، ومنها رفع التضييف من قرى قرطاجنة، وقت خروج السلطان إلى ذلك المكان إلى غير ذلك من محامد أفعاله.

وفي سنة ثنتين وسبعين قدم الشيخ الفقيه الإمام العلامة أبو عبد الله محمد بن عرفة للخطابة بجامع الزيتونة وفي العام الذي بعده قدم للفتيا به، ثم إن السلطان أبو العباس أحمد لما تمهد له ملك تونس انتزع ما بأيدي العرب من الأمصار، فأهمهم ذلك وتنكر منصور بن حمزة شيخ بني كعب وأولاد أبي الليل فنزع يده من الطاعة وتابعه على خروجه على السلطان أبو صعنونة أحمد بن محمد بن عبد الله بن مسكين شيخ حكيم، وارتحل إلى الذواودة صريخاً بالأمير أبي يحيى زكريا ابن المولى السلطان أبي يحيى، فبايعوه وأوفدوا مشيختهم على يحيى بن يملول يستخدمونه للطاعة، فبايع له وبعث السلطان أخاه زكريا بعسكر للقياهم فالتقوا، فانهزمت عساكر المولى أبي يحيى ونزل العرب على تونس بسلطانهم.

ونُمي إلى السلطان أبي العباس أحمد أن حاجبه أبا عبدالله محمد بن الحاجب أبي محمد بن تافراجين داخل العرب في أخذ تونس، فتقبض عليه وأشخصه في البحر إلى قسنطينة، فلم يزل بها معتقلاً إلى أن هلك سنة ثمان وسبعين، ثم إن السلطان بعث إلى قوم منصور بن حمزة فانتقضوا عليه، فلما أحس بذلك عاود الطاعة ورهن ابنه ونزع طاعة سلطانهم زكريا، ورجع على عقبيه إلى الذواودة والتزم طاعة السلطان إلى أن هلك مقتولاً، قتله محمد ابن أخيه، وقام بأمره بعده صولة بن خالد بن حمزة وعقد له السلطان على ذلك.

وفي عام ثلاثة وسبعين عقد السلطان على قسنطينة للقائد بشير، وفي ليلة الثلاثاء الثالث والعشرين من ربيع الثاني من سنة أربع وسبعين توفي صاحب فاس السلطان عبد العزيز ابن السلطان أبي الحسن، بمرض مزمن فولي بعده ولده محمد السعيد، وكان صغيراً خماسياً فبقي إلى أن دخل عليه الأمير أبو العباس أحمد ابن الأمير أبي سلام في سنة خمس وسبعين، ولما دخل إلى فاس بادر إلى القبض على ابن الخطيب الأندلسي لما كان أوصاه به ابن الأحمر صاحب الأندلس فأودعه السجن.

ثم قدم رسول ابن الأخضر يهنته بالملك، فقتل ابن الخطيب بمحبسه خنقاً، وكان كاتباً بليغاً أديباً مؤرخاً جيد النظم عارفاً بالنجامة، سمعت بعض الشيوخ يحكي أن من نظمه في اليوم الذي قتل فيه:

قف كي ترى مغرب شمس الضحى   بين صلاة العصر والمغرب
واسترحم الله قتيلاً بها   كان وحيد العصر في المغرب

وفي آخر ربيع الأول من سنة ثمان وسبعين توفي قاضي الجماعة بتونس الفقيه الحافظ أبو العباس أحمد بن محمد بن قاسم بن محمد بن حيدرة، ودفن بالجلاء فتولى بعده قضاء الجماعة الفقيه أبو علي حسن بن أبي القاسم بن باديس القسنطيني، وفي سنة تسع وسبعين توفي صاحب قسنطينة القائد بشير فعقد السلطان عليها لولده أبي إسحق إبراهيم مستقلاً، وقد كان قبل ذلك بها لكن مع القائد نبيل وهو المستبد عليه لمكان صغره.

وفي سنة تسع وسبعين نهض السلطان أبو العباس أحمد من الحضرة في عساكره ومن التفّ عليه من أولاد مهلهل وحكيم قاصداً للجريد؛ لما بلغه عن مشيختها من الاستبداد والعتو، فسار إلى القيروان وارتحل منها يريد قفصة فنازلها، فقاتلوه فأمر بقطع نخيلهم فتسللت إليه الرعية من أماكنهم، وأسلموا أحمد بن العابد مقدمهم وابنه محمداً المستبد عليه، فخرج محمد إلى السلطان واشترط له ما شاء من الطاعة والخراج، ثم رجع إلى البلد فلقيه المولى أبو يحيى زكريا في ساحة البلد فبعث به إلى السلطان، ودخل هو إلى القصبة وتملك البلد، وتقبض السلطان على محمد بن العابد وابنه أحمد واعتقلهما، واستولى على داره وذخائره واجتمع الملأ من أهل البلد ضد السلطان وآتوه بيعتهم.

فعقد السلطان عليها لابنه المولى أبي بكر وارتحل يغذ السير إلى توزر، وقد طار الخبر بفتح قفصة إلى يملول فركب لحينه، واحتمل أهله وما خف ولحق بالزاب، وطيَّر أهل توزر بالخبر إلى السلطان فتقدم إلى البلد، فملكها واستولى على ما لا يحيط به الوصف من ذخائر بني يملول، وعقد السلطان على توزر لابنه المستنصر وأنزله بها.

واستقدم السلطان الخلف بن الخلف صاحب نقطة فقدم وأتاه طاعته وعقد له على بلده وولاه حجابة ابنه بتوزر وأنزله معه، وقفل إلى حضرته فلقيه أهل الخلاف من العرب فأوقع بهم ودخل السلطان حضرته، فوفد عليه صولة بن خلاد بن حمزة بعد أن توثق لنفسه، فاشترط له على قومه ما شاء فرجع إليهم، فلم يرضوا بشرطه ونهض السلطان من الحضرة في العساكر، فأجفلوا أمامه فأتبعهم وأوقع بهم ثلاث مرات في ثلاثة أيام واقفوه فيها، ثم أجالوا ولحقوا بالقيروان.

ثم أن الخلف بن الخلف لما استقل بحجابة المولى المستنصر كما ذكرناه استخلف من ينوب عنه ببلده نفطة ونزل بتوزر مع المولى المستنصر، ثم سعى به أن يراسل ابن يملول، وعثر على كتابة بخط كاتبه إلى ابن يملول وإلى يعقوب بن علي شيخ الذواودة يحرضهما على الفتنة، فتقبض المولى المستنصر عليه وأودعه السجن وبعث عماله إلى نفطة واستولى على أمواله وخاطب إياه في شأنه.

ثم إن المولى أبا بكر خرج من قفصة برسم زيارة أخيه بتورز، وخلف بالبلد حاجبه القائد عبد الله التريكي، فلما توارى الأمير من البلد قام بها رجل من كبارها وهو أحمد بن أبي زيد، واجتمعت عليه الأشرار ونادى بنقض الطاعة وتقدم إلى القصبة، فأغلقها القائد عبد الله دونه وامتنعت عليه، وفرع القائد عبد الله الطبل بالقصبة فاجتمع إليه أهل القرى، فأدخلهم من باب القصبة فقبض على كثير من أهل الثورة فسجنهم وسكن الهيعة، وطار الخبر إلى المولى أبي بكر فرجع إلى قفصة.

وحين دخوله ضرب أعناق المعتقلين من أهل الثورة، ونادى في الناس بالبراءة من ابن أبي زيد وأخيه، وأمر بالبحث عليهما فعثر عليهما متسترين بزي النساء، فأتوا بهما إلى الأمير ضرب عنقيهما وصلبهما في جذوع النخل، وارتاب المولى المستنصر بابن الخلف فقتله بمحبسه.

وفي أواخر صفر من سنة إحدى ومئتين وسبعمئة استعفى الفقيه أبو علي حسن بن أبي القاسم بن باديس القسنطيني، وقدمه ببلده قسنطينة، وقدم الفقيه أبا عبد الله محمد بن علي بن عبد الرحمن البلوي القطن لقضاء الجماعة بتونس، وفي تلك السنة توفي الشيخ الفقيه العالم الخطيب أبو عبد الله محمد بن علي بن عبد الرحمن البلوي القطن لقضاء الجماعة بتونس، وفي تلك السنة توفي الشيخ الفقيه العالم الخطيب أبو عبد الله محمد بن أحمد بن مرزوق بالقاهرة ودفن بين أبي القاسم وأشهب وسنة قريب من السبعين سنة.

وفي رجب من السنة المذكورة رحل المولى السلطان من تونس ومعه أحياء العرب إلى أن وصل إلى القيروان بعد استراحته في بعض أماكن ارتحل منها يريد قابس وصاحبها عبد الملك بن مكي، وقد استكمل التعبئة فبادر إلى لقيه والأخذ بطاعته مشيخة ذباب أعراب قابس من بني سليم، ووفد منهم خالد بن سباع بن يعقوب شيخ المحاميد وطائفة معه يستحثونه لمنازلة قابس فأغذ السير إليها، وقدم رسلاً بين يديه بالإنذار لابن مكي.

فانتهوا إليه فرجعهم بالإنابة والانقياد إلى الطاعة، ثم احتمل ابن مكي رواحله وعبأ ذخائره، وخرج من البلد ونزل على أحياء ذباب هو وابنه يحيى وحفيده عبد الوهاب من ابنه يحيى وحفيده عبد الوهاب من ابنه مكي واتصل الخبر بالسلطان فبادر للبلد ودخلها في ذي

القعدة من سنته واستولى على منازله وقصوره، ولاذ أهل البلد بطاعته وقدم عليها من حاشيته.

وكان أبو بكر بن ثابت صاحب طرابلس قد بعث طاعته ووافت رسله السلطان قرب قابس، فلما استكمل فتحها بعث إليه من حاشيته لاقتضاء ذلك فرجعهم بالطاعة، وأقام ابن مكي بعد خروجه من قابس بين أحياء العرب ليالي قلائل، ثم توفي بغتة ولحق ابنه وحفيده بطرابلس، فمنعهما ابن ثابت الدخول إليها فنزلا بزنزور من قراها في كفالة الجواري من بطون ذباب.

ولما استكمل المولى السلطان الفتح انكفأ راجعاً إلى حضرته فدخلها فاتح سنة ثنتين وثمانين، ولحقه رسله بهدية من ابن ثابت صاحب طرابلس، ووفد عليه في الحضرة أولاد أبي الليل طالبين العفو منهم فأجابهم إلى ذلك ووفد صولة بن خالد بن حمزة شيخهم وقبله أبو ضعنونة شيخ حكيم ورهنوا أبناءهم، ثم خرج المولى أبو زكريا في العساكر لاقتضاء مغارمهم على العادة واستيفاء انطباعاتهم.

فبعث معهم لذلك ابنه المولى الهمام أبا فارس عبد العزيز فارتحلوا معه بأحيائهم، ثم إنهم أحسوا بابن مزني ويعقوب بن علي فبعثوا يستصرخون السلطان أبو حمو صاحب تلمسان فظهرت من أولاد أبي الليل عروق الخلاف، ونزعوا إلى اللحاق بيعقوب بن علي، وفارقوا المولى أبا فارس بعد أن بلغوه مأمنه من قفصة وساروا بأحيائهم إلى الزاب فلم يظفروا بالبغية.

ووفد يعقوب وابن مزني وقد جاءهم وافد صاحب تلمسان بالعقود عن نصرتهم، فسقط في أيديهم وعاهدهم الندم وحملهم شيخ الذواودة على المراجعة للسلطان، وبعث معهم ابنه محمداً فلما وصلوا تقبلهم، وفي ثاني عشر صفر من سنة ثنتين وثمانين توفي الشيخ الفقيه الحافظ المفتي أبو محمد عبد الله البلوي الشبيبي، ودفن بدار الشيخ أبي محمد عبد الله بن أبي زيد بإزاء قبره داخل القيروان.

وفي ثاني عشر ذي القعدة من سنة خمس وثمانين توفي الأستاذ القاضي الإمام أبو بكر بن جرير، كان نحوياً مرضياً بارع النظم والنثر له تصانيف منها: زمام الرائض في علم الفرائض

- والإغراب في الإعراب - وشرح ألفية ابن مالك - وتشطير قصيدة قفا نبك، وهي عجيبة.

ومن نظمه:

لما علاني الشيب قال صواحبي لا نرتضي خلاً يعود أشيب

فصبغته خوف الصدود فقلن لي هذي رواية أصبغ عن أشهب

وفي حدود العام المذكور توفي قاضي الجماعة بتونس الفقيه أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن البلوي القطان، فولي قضاء الجماعة بعده الفقيه أبو زيد عبد الرحمن البرشكي، ثم بعد مدة من تقديمه مرض فقدم للنيابة عنه شيخ شيوخنا الفقيه العالم أبو مهدي عيسى الغبريني، ثم لما كانت سنة سبع وثمانين توفي القاضي البرشكي المذكور واستقل بالقضاء أبو عيسى المذكور، وفي يوم الخميس حادي عشر جمادى الآخرة من السنة المذكورة توفي الشيخ الصالح أبو عبد الله محمد الطريف ودفن بزاويته المعروفة به بجبل المرسى.

وفي سنة ثنتين وتسعين نزل النصارى المهدية في مئة قطعة بين مراكب كبيرة وأغربة، فوجّه السلطان أحمد محلة نزلت قرب البلد قدم عليها ولده المولى أبا فارس عبد العزيز صحبه بأخيه المولى زكريا، فاتفق للمولى أبي فارس مع النصارى وقائع منها في يوم نزولهم، وقعت بينهم وبين النصارى حروب كان للمسلمين فيها جولة بحيث أسلموا المحلة ودخلها العدو، ولم يجد فيها عيناً تطرف عدا رجلاً واحداً مشغباً قتلوه.

وبينما هو في سبي الأزواد والأسباب إذا بالمولى أبي فارس نادى في المسلمين وجمع القواد ومن حضرهم من الجند، وكرّ راجعاً تجاه العدو حتى أخذ المحلة من أيديهم قهراً، فحسبت العرب وانصرف العدو منهزماً، وقتل منهم نحو خمسة وسبعين رأساً، وواجه العدو بنفسه ودفع في صدورهم دفعة شتت بها شملهم، فلم يلتفت إلا والعدو قد أحاط به من كل جهة.

وعلم العدو أنه ابن الخليفة ومن عادتهم في الحرب أنهم إذا أخذوا ملكاً أو ابن ملك فإنهم لا ينزلونه عن فرسه، فأخذوا بعنان فرسه وساروا به فألهمه الله سبحانه فأخلع عنان فرسه من رأسه وألحّ الفرس وهمزه، فخرج الفرس من بينهم فرموه بسهام وأسنة وأتبعوه بخيل وأعنة، وهو لا يلتفت إلى أن وصل إلى المسلمين وسلمه الله عزو جل.

ثم أن النصارى اختلفوا فيما بينهم وأراد الجنوي الغدر بالفرنسي، فارتحل الفرنسي بسفنه، ولما رأى الجنوي أنه لا يقدر وحده رحل أيضاً، وكفى الله المسلمين شرهم فانصرفوا خائبين بعد أن أقاموا على ما حكاه ابن الخطيب شهرين ونصفاً.

وحدث الشيخ الفقيه القاضي أحمد القلجاني عن عمه الشيخ الصالح الزاهد الورع أبي العباس أحمد، وكان ممن حضر قتال المهدية فقال: نزل النصارى المهدية في منتصف شوال وذلك في عام اثنين وتسعين وسبعمئة، فأقاموا عليها فيما قيل ستين يوماً، وفي السنة المذكورة حج الشيخ الفقيه الإمام أبو عبد الله محمد عرفة الورغمي، واستخلف على إمامة جامع الزيتونة والفتوى قاضي الجماعة حينئذ تلميذه الشيخ أبو مهدي عيسى الغبريني، وعلى الخطابة بالجامع المذكور الفقيه المقرئ أبو عبد الله محمد البطرني.

وعاد من الحج في جمادى الأولى من عام ثلاثة وتسعين وسبعمئة، وفي شوال من سنة ثلاث وتسعين توفي صاحب قسنطينة المولى إبراهيم ابن المولى السلطان أبي العباس أحمد ببلده قسنطينة بمرض أصابه، فكانت ولايته بها أربعة عشر عاماً وسنه ثلاث وثلاثون سنة، فولي بعده كاتبه الفقيه إبراهيم بن يوسف ابن القائد إبراهيم الغماري، وفي السنة المذكورة توفي بتونس الشيخان الصالحان سيدي أبو عبد الله محمد البطرني، وسيدي عثمان القرنبالي ودفنا بالجلاز بأعلى جبل الفتح منه.

وفي عام خمسة وتسعين وسبعمئة نافق أهل قفصة فتحرك المولى السلطان حتى نزلها فحصرها وقطع كثيراً من نخلها وشجرها وارتحل عنها بعد مدة تسللا من العرب ورجع إلى تونس، وكان المولى السلطان لما استقر بتونس استخلص جميع البلاد إلا طرابلس وبسكرة، فكانتا تحت طلبه بنظر شيخها، وفي صفر عام ستة وتسعين دخل الأمير أبو زيان تلمسان على أخيه أبي يعقوب يوسف ابن السلطان أبي حمو المتقدم الذكر، فملكها وفرّ السلطان أبو يعقوب المذكور إلى بني عامر، فبعث إليه أخوه أبو زيان من قتله هنالك.

وفي يوم الأربعاء ثالث شعبان من سنة ست وتسعين وسبعمئة المذكورة توفي المولى الخليفة السلطان أبو العباس أحمد بتونس بمرض سابق طويل تزايد في أشهر هذا العام، ودفن

بالقصبة فكان عمه سبعاً وستين سنة ومدة خلافته بتونس أربعاً وعشرين سنة ثلاثة أشهر ونصفاً.

فتولّى تونس وبلادها بعده ولده مولانا أمير المؤمنين أبو فارس عبد العزيز ابن المولى السلطان أبو العباس أحمد ابن المولى الأمير أبي عبدالله محمد ابن المولى السلطان أبي يحيى أبي بكر ابن الأمير المولى أبي يحيى زكريا ابن المولى السلطان أبي إسحق إبراهيم ابن المولى الأمير أبي زكريا ابن الشيخ أبي محمد عبد الواحد ابن الشيخ أبي حفص، أمه أم ولد اسمها جوهرة من الحرات المحاميد عرب طرابلس ولها حكاية يطول ذكرها هاهنا، تزايد بقسنطينة سنة ثنتين أو ثلاث وستين وسبعمئة، وبويع بتونس يوم وفاة والده على رضا من الناس وألف بين إخوته واعتضد بهم في دولته.

وكان والده أغمي عليه وأشرف على الهلاك في غرة شعبان فاجتمع أولاده وتآمروا في أن كتموا حاله ودسوا إلى عمهم المولى أبي يحيى زكريا، وهو إذ ذاك ساكن بالرياض الذي هو الآن مدرسة بالخلفوين من باب السويقة من أخبره أن أخاه المولى الخليفة أصبح في عافية فجاء برسم عيادته على عادته.

فلما دخل القصبة وجد أولاد السلطان بالقصبة فظن أن أخاه قد توفي فأراد الرجوع إلى رياضه، فقام إليه بعضهم وحلف لهم ومنعوه الخروج حتى يدبروا أقواهم إسماعيل فقبضوا عليه، وأدخلوه لداره بالقصبة واعتقلوه بها، فلما سمع أولاده بالقبض على أبيهم خرجوا من حينهم لأخيهم الأمير أبي عبد الله صاحب بونة.

ولما قبض على الأمير زكريا اجتمع الأمير أبو فارس مع إخوته بأخيهم المولى أبي يحيى أبي بكر، وهو إذ ذاك ولي عهد أبيهم فقال له الأمير أبو عبد الله: ابن عمنا صاحب بونة جالس بمحلته على الطريق بوطن بونة يستمع الأخبار، فإن هو سمع بأخذ أبيه يمشي إلى قسنطينة ويأخذها، فاختر إما أن تمكث أنت هنا بتونس وأمضي أنا منها، وإلا تمضي أنت إليها وأمكث أنا وهو بتونس، فرأى أنه لا قدرة له على القيام بتونس فقال: بل أنا أمضي إلى قسنطينة.

فاجتمع أولاد الخليفة وكتبوا كتاباً عن أبيهم بولاية قسنطينة للمولى أبي يحيى أبي بكر فخرج يوم الإثنين غرة شعبان المذكورة إلى قسنطينة، فوصلها يوم الخميس رابع يوم خروجه فأخرج القائد إبراهيم البواب حتى وقف على الكتاب وتردد في الجواب، ثم لم يسعه إلا دخوله فدخلها المولى أبو يحيى أبو بكر عشية الخميس المذكور، واستقل بتونس مولانا أمير المؤمنين أبو فارس عبد العزيز، وأخذ بالحزم في أموره وأوقف بين يديه خديعة المختص به محمد بن عبد العزيز شيخ الموحدين.

وجعل لخط علامته كاتبها لوالده الفقيه أبا عبد الله محمد بن قاسم بن الحجر المتقدم الذكر، واختار لخط الإنشاء من أعلى التصرف في العلوم كيف شاء الفقيه الفاضل الإمام الشامل المتفنن في العلوم العالم بالمنثور والمنظوم القاضي المحصل الأسد أبا عبد الله محمد ابن الشيخ الفقيه الأجل المدرس أبي عبد الله القلجاني من كبار بيوتات عدول باجة، وقدم لقلم جبايته وتنفيذه خديمه الفقيه أبا عبد الله محمد بن قاسم بن قليل الهم، وجعل في كل خطة من يصلح بها فاستقامت الأمور بتونس في أيامه كلها أحسن استقامة.

وأحدث في أيامه بتونس حسنات دائمة فمنها بناؤه لزاوية باب البحر من تونس بعد أن كانت بقعة معدة للمعاصي بجباها للمخزن عشرة آلاف دينار ذهباً في كل عام، ومنها بناؤه للسقاية خارج الباب الجديد من تونس ترده الناس والدواب، وأوقف عليه أوقافاً تقوم بها، ومنها بناؤه للماجل الذي بمصلى العيدين بتونس، وهو من الأبنية الضخمة التي قل أن يبنى مثلها، وأخرج منه سبيلين أحدهما للشرب للعاطش من جعاب نحاس يجذب منها الماء بالنفس، والآخر ورد لمن يرده بقرة أو غيرها.

ومنها بناؤه للزاوية التي خارج باب أبي سعدون بحومة بارد، وجعلها منهلاً للوارد من أي أفق كان يأوي إليها، عشية إلى أن ينش بمعده من هنالك سحراً وحبس عليها ما يقوم بها، ومنها بناؤه للزاوية التي بحومة الداموس خارج باب علاوة المعروف بالشيخ الصالح سيدي فتح الله، جعلها ملجأ للواردين من تلك الجهة إذا لم يقدروا على الوصول إلى المدينة، ومنها

بناؤه محارس جملة تحوط ثغور المسلمين كمحرس أدار والحمامات وأبي الجعد ورفراف وغير ذلك.

ومنها إقامة الخزانة بجوفي جامع الزيتونة وحبس ما فيها وفي غيرها من الكتب في العلوم الشرعية والعربية واللغة والطب والحساب والتاريخ والأدبيات وغير ذلك، ومنها إحداث قراءة البخاري في كل يوم بعد صلاة الظهر بجامع الزيتونة وكتاب الشفاء والترغيب والترهيب بعد العصر وأوقف على ذلك وقفاً، ومنها أحداث المرستان بتونس للضعفاء والغرباء وذوي العاهات من المسلمين، وأوقف على ذلك أوقافاً كثيرة تقوم به، ومنها ما بعثه لأهل الأندلس إعانة لهم على العدو في كل عام، وذلك ألفا قفيز طعاماً من عشر وطن وغتاتة عدا ما يتبعها من إدام وغير ذلك.

ومنها ما ترك من الجبابي لوجه الله سبحانه، فمنها مجبى سوق الدهانة وكان قدره ثلاثة آلاف دينار ذهباً في كل عام إذ كان كل من اشترى شيئاً من أنواع الأمتعة واللباس يقوم نصف عشر الدينار، ومنها مجبى رحبة الماشية وقدره عشرة آلاف دينار ذهباً، ومجبى فندق الخضرة وقدره ثلاثة آلاف دينار ذهباً، ومجبى سوق العطارين وقدره مئتان وخمسون ديناراً ذهباً، ومجبى فندق الملح وقدره ألف دينار ذهباً، ومجبى قائد الأشغال وقدره ثلاثة آلاف دينار ذهباً، ومجبى سوق القشاشين وقدره مئة دينار ذهباً، ومجبى سوق الصفارين وقدره خمسون ديناراً ذهباً، ومجبى سوق العزافين وقدره خمسون ديناراً ذهباً، ومجبى الصابون وقدره ستة آلاف دينار ذهباً، وقدره ستة آلاف دينار ذهباً.

وأبيح للناس حمله بعد أن كان عمله محصوراً متوعداً فاعله بالعقوبة المالية والبدنية، وترك ما كان على المنكر من خراج كالشرطة كان غير واحد من المساكين التزمها بثلاثة دنانير ونصف الدينار ذهباً في كل يوم، وكان على الفخارين وظائف فتركها وقطع موضع اجتماعهم، وكذلك كان على الزفافين والغايات مغارم فتركها عنهم، وكذلك على المخبثين فتركها وأجلاهم من جميع بلاده لما بلغه عنهم من عمل المناكر.

فجميع هذه المجابي كلها تركها عنهم لوجه الله سبحانه، ولنرجع إلى ما كان من أمر المولى أبي وأنه بعد دخوله إلى قسنطينة بصفرة أيام جمع الناس وطلبهم في بيعته لما بلغه وفاة والده فبايعوه، وبعد مبايعته لازم داره في لذاته، واقتصر على راحته فظهرت كلمة العرب، وفتحوا باب الطمع والطلب وزين لهم الكاتب أحمد بن الكماد كل نوع من أنواع الفساد، ثم توجه أحمد بن الكماد مع بعض الأعراب إلى صاحب بونة الأمير أبي عبد الله محمد ابن المولى أبي يحيى زكريا وحثه على المبادرة إلى ملك قسنطينة فجمع الأمير أمر عبد الله أجناده وأهل وطنه ونازل قسنطينة يوم الخميس السادس من ذي القعدة من سنة ست وتسعين، ومنع الواصل والداخل وقطع الأشجار ورمى بالحجارة والأوتار، واقتصر أهل البلد على مدافعته من الأسوار فأقام عليها خمسة وسبعين يوماً، ثم ارتحل آيساً منها وعاد في السنة الثانية إليها فخرب المنازل وهتك الزرع والمناهل.

ثم إن المولى أبا فارس تحرك إليه من حضرة تونس والتقى الجمعان في شهر رمضان المعظم عام سبعة وتسعين فهزمه مولانا السلطان من تبرسق الكاتبة بأرض الحناشة التي عندها أصل وادي مجردة إلى سيبوس هزيمة شنيعة، فرَّ فيها الأمير أبو عبد الله محمد بنفسه على فرسه، ودخل بونة مع من لحقه وهم يظنون إقامته فارتقب يوم وصوله الظلام، وركب البحر من غير وداع أهله ولا سلام وقصد فاساً مستصرخاً بصاحبها، ودخل المولى أبو فارس بونة وأمن أهلها ومن وجد فيها من خدمة الأمير أبي عبد الله ومحمد وخدمة أبيه مثل القائد يوسف بن المغربي، فإنه نفى عنه وسرح له ماله وما كان له في تونس من الربع وأجرى له راتبه ونقله إلى الحضرة.

ثم قدم على المولى أبي فارس أخوه أبو بكر من قسنطينة وسلم عليه ورحب به وعند وداعه اعتذر له بالعجز إلا أن يكون تحت نظره، فقبل ذلك منه وكتب الأمير أبو بكر خلع نفسه بيده في العشرين من شهر رمضان المعظم من السنة المذكورة، وفي عام سبعة وتسعين توفي قاضي الأنكحة بتونس الشيخ الفقيه أبو علي عمر بن البراء فولي بعده قضاء الأنكحة الشيخ الفقيه العالم أبو عبد الله محمد بن قليل الهم.

فبعث أهل قسنطينة إلى المولى أبي فارس أن يغيثهم فخرج المولى السلطان بجيشه وسار إلى صفاقس قاصداً صاحبها أخاه الأمير أبا حفص عمر وكان والده الخليفة المرحوم تركه عاملاً بها، فنزل صفاقس وحاصرها إلى أن تحدث مع أهلها فدخلوا على الأمير عمر في الحمام، فقبضوا عليه وأتوا به إلى المولى السلطان وملك السلطان البلد وقدم فيها عاملاً من قبله، وقفل راجعاً بمحلته إلى أن قرب من تونس فجدد حركته منها، ثم انصرف قاصداً قسنطينة.

فحين أشرف عليها أظهر الأمير أبو بكر عصياناً وامتناعاً من اللقاء مع تيقن الأمان والمدير لذلك كاتبه إبراهيم المذكور، فنازلها السلطان خامس عشر شعبان من سنة ثمان وتسعين وسبعمئة، وقرر ما عنده من الخير لأخيه وشافهه من شاطئ الهوى بكلام دل على مصافاته له، ودام الحصار مدة تزيد على عشرين يوماً، واسم المولى أبي فارس لم يزل يذكر في قسنطينة على المنابر، ولم تغلق هذه القضية قبل لمحاصر، وفعل السلطان ما لا يفعله محاصر من حفظ الجنات والزرع وقع المضرات عن جميع جهات البلد.

ولما عاد أمر الحصار نادى بعض من في السور – الفرار الفرار، وتوجهت الإعانة في ذلك وانتظمت الكلمة من هنالك ودخل بعض الناس من سور الحبشة، ودخل السلطان ومن معه من باب الحكمة وذلك في ليلة الأحد ثامن عشر شهر رمضان المعظم من العام المذكور، وقصد المولى أبو بكر إلى القصبة فقبض عليه وقصد كاتبه الفقيه إبراهيم إلى سور الحيشية، فأهبط من هنالك وحبس حتى قتل بسبب جرمه بمدينة تونس بعد أن ضرب ضرباً كثيراً، ثم أخرج إلى الناس فجروه حتى مات بين أيديهم.

وأقام السلطان بقسنطينة بعد أخذ أخيه أزيد من شهر حتى مهد أمرها، ثم سافر إلى حضرته من آخر شوال من سنته ورفع معه أخويه الأمير عمر صاحب صفاقس، والأمير أبو بكر صاحب قسنطينة بعد أن عين لقيادتها مملوكه القائد نبيل وعين لقصبتها الشيخ أبا الفضل أبا القاسم ابن تافراجين التيمالي فلازم القصبة، وحسنت سيرته بالبلد إلى أن سافر رسولاً لبجاية، وفي عام ثمانمئة وتسعين ازداد للمولى الخليفة المولى إلا جعل أبو عبد الله محمد المنصور.

وفي العام المذكور في رجب فرغ من بناء الساقية التي خارج باب الحديد من تونس، وفي هذه السنة خرج المولى أبو العباس أحمد ابن المولى أبي عبد الله محمد ابن المولى الخليفة أبي العباس أحمد، فجاء بيعة بجاية بعد أن خلع نفسه، وفي شهر رمضان المعظم من هذه السنة وثب الأسد على السلطان وهو على فرسه فكاد يخطفه وسلمه الله سبحانه وتعالى، وفي سنة إحدى وثمانمئة أمر السلطان بهدم الفندق الذي كان بباب البحر تباع فيه الخمر، وكان مجباه عشرة آلاف في العام، فترك ذلك وأمر ببنائه زاوية ومدرسة لطلبة العلم وحبس عليها ما يقوم لها، وكذلك فعل بفندق قسنطينة.

وفي سنة ثنتين وثمانمئة توفي قاضي الأنكحة بتونس الشيخ أبو عبد الله محمد بن قليل الهم فولي بعده الشيخ المدرس أبو يوسف يعقوب الزغبي، وفي السنة المذكورة خرج السلطان إلى استرجاع توزر من يد ابن يملول فحاصرها حتى أخذها قهراً وقبض على ابن يملول، ثم انتقل في آخر شعبان من السنة المذكورة إلى استرجاع قفصة، فأقام عليها أياماً حتى تمكن منها باستسلام أهلها ودخلها قهراً، وقبض على بني العابد شيوخها المخالفين عنه وهم الإخوة الثلاثة منصور وأبو بكر قهراً.

وقبض على بني العابد شيوخها المخالفين عنه، وهم الإخوة الثلاثة منصور وأبو بكر علي وذلك في ثاني شهر رمضان المعظم من السنة المذكورة، وعفا عن أهلها بعد فيء وقع فيها وأمر بتخريب سورها، وقدم فيها القائد محمد النرامي في خبر يطول، ثم رجع إلى الحضرة على ما أمل.

وفي أوائل سنة ثلاث وثمانمئة تحرك السلطان إلى طرابلس وأقام محاصراً لها مدة طويلة إلى أن تمكن منها برغبة أهلها على يد صلحائها، وذلك في سادس رجب من السنة المذكورة، وجعل قائداً من قبله فيها ورجع إلى حضرة تونس، وفي الرابع والعشرين من جمادى الآخرة من السنة المذكورة توفي الشيخ الفقيه الحجة أبو عبد الله محمد بن عرفة الورغمي ودفن بجبل الجلاز تحت جبانة الشيخ الصالح أبي الحسن المنتصر، وكانت ولادته في عام ستة عشر

وسبعمئة فجعله عمره سبع وثمانون سنة وأشهر، ولذلك قال في أبيات له خمسها في حياته تلميذه الإمام الرملي:

علمت العلوم وعلمتها ونلت الرئاسة بل حزتها
وهاك سنيني عددتها بلغت الثمانين بل جزتها
فهان على النفس صعب الحمام

فلم تبق لي في الورى رغبة ولا في العلا والنهى بغية
وكيف أرجي ولو لحظة وآحاد عصري مضوا جملة
وعادوا خيالاً كطيف المنام

ونادى الردى بي ولا لي مغيث وحث المطية كل الحثيث
وإني لراج وحبي أثيث وأرجو بها نيل صدق الحديث
بحب اللقاء وكره المقام

فيا رب حقق رجاء الذليل ليحظى بدارك عما قليل
فيمسي رجائي بموتي كفيل وكانت حياتي بلطف جميل
لسبق دعاء أبي في المقام

وكان رحمه الله إماماً في العلوم صنف في كثير منها، والغالب على كلامه لاختصار، واشتغل آخر عمره بالفقه على مذهب الإمام مالك رضي الله عنه، وكان معنياً بالمدونة غاية ملازماً لنظرها محتجاً بها، قرأ القرآن العظيم في صغره على ابن سلامة من طريق الداني وابن شريح وعلى ابن بذال من طريق الداني، وقرأ أصول الفقه على ابن عبلون، وأصول الدين على ابن سلامة وابن عبد السلام والمعقول على الشيخ الأبلي، وكان يثني عليه خيراً هو والشريف التلمساني.

وكان مجداً في الأمور الدينية والدنيوية، ولي إمامة جامع الزيتونة عام ستة وخمسين وسبعمئة حسبما تقدم، وابتدأ تصنيف المختصر عام اثنين وسبعين، وكمله عام ستة وثمانين

وحج عام اثنين وتسعين وكان صواماً قواماً تلاءً لكتاب الله عز وجل، وكان مجداً في دنياه موسعاً عليه فيها مالاً وجاهاً ونفوذ كلمة، ولما توفي تولى بعده الصلاة بالجامع والخطبة والفتيا به بعد صلاة الجمعة نائبه الفقيه القاضي أبو مهدي الغبريني.

وفي سنة أربع وثمانمئة تحرك السلطان من تونس إلى بسكرة، فأقام بيني الكاهنة مدة حتى دبر أمره، ثم ارتحل إليها وضاق أمر شيخها أحمد بن يوسف بن مزني، ولم يبق له غير الفرار أو التسليم، فدخل المولى السلطان بسكرة يوم السبت سابع جمادى الآخرة من السنة المذكورة، وأقام بها مدة، ثم انصرف إلى حضرته ورفع معه ابن مزني المذكور، وقدم في البلد قائداً من قواده بعد أن مضت لأولاد ابن مزني بها المشيخة المستقلة نحو مئة وأربعين، فأما منها لأحمد هذا أربعون سنة.

وفي سنة تسع وثمانمئة تحرك السلطان من تونس بمحلة إلى درج وغدامس وفي أثناء سفره أمر بالقبض على منفذه وصاحب قلم جبايته الفقيه محمد بن أبي القاسم بن قليل الهم، وعلى أبي محمد عبد الله بن غالية وبعثهما من محلته إلى قابس، فأركبهما البحر منها إلى الحضرة وثقفا بها، وقدّم لتنفيذه الفقيه الأحسب أبا العباس أحمد ابن القاضي المدرس أبي عبد الله محمد بن قليل الهم، وفي شهر رمضان المعظم من السنة المذكورة أمر السلطان بالقبض على إخوته المولى التريكي، والمولى خالد والمولى أبي زيان لما بلغه عنهم، وقيدوا وقبض على من شاركهم مثل القائد ابن اللوز وابن أبي عمر، فأمر السلطان فقتلا وبعث برأسيهما إلى تونس وعلقا بها.

وفي السنة المذكورة توفي ببونة الفقيه الشهير الضرير أبو عبد الله محمد المراكشي، كان جيد النظم والنثر، وله في فرس حمراء بعث بها إليه المولى أبو يحيى زكريا ليأتيه عليها فأملى:

وعدوانيـــة مـــن خـــير نـــسل ... تفـوق الـورد في حـسن احمـرار
أتتنـــي مـــن إمـــام أمـــير يحيـــى ... كـريم الأصـل حفـصي النجـار
لهـــا نغـــم ولكـــن لـــست أدري ... أفي المزعـــوم أم في المـــستعار

فكتب إليه المولى أبو يحيى ما نصه: في المزعوم.

وفي عام ثمانية وثمانمئة قدم الشيخ الفقيه المدرس أبو عبد الله محمد الأبي قاضياً بالجزيرة القبلية، وفي ليلة الجمعة الثانية عشرة من ربيع الأول من سنة تسع توفي قاضي قسنطينة الفقيه أبو العباس أحمد بن الخطيب شارح رسالة الشيخ ابن أبي زيد وشارح جمل الخونجي وغيرها، وفي عام عشرة كانت بين السلطان وبين عرب حكيم وقيعة عين الغدر بين الحامة ونفزاوة، وثبت فيها المولى السلطات بنفسه وانهزم أهل محلته، فاحتوتهم العرب نهباً وقتلا رئيس العرب حيتئذ الشيخ المرابط أحمد بن أبي صعنونة بن عبد الله بن مسكين.

ولما رأى السلطان قد ثبت رجع على أصحابه فردهم، وأتى هو السلطان فقبله ورضي عنه، وفي العام المذكور توفي صاحب قلم العلامة الفقيه أبو عبد الله محمد بن قاسم بن حجر، فقدم بعد للعلامة حفيده الفقيه أبو عبد الله ابن ولده قاسم، وفي العام المذكور خرج المولى السلطان من تونس بمحلته للقاء الأمير أبي عبد الله محمد بن عمر المولى أبي يحيى زكريا، وذلك أنه لما هلع الهزيمة الشنعاء في شهر رمضان المعظم من عام سبعة وتسعين، حسبما تقدم، ركب البحر من بونة وقصد فاس مستصرخاً صاحبها على المولى السلطان أبي فارس.

فلما وقع بين السلطان وبين العرب ما وقع سارت طائفة منهم إلى صاحب فاس، واستصرخوه على السلطان فبعث معهم الأمير أبا عبد الله محمد وبعث معه جيشاً عظيماً من جيش بني مرين، وأمرهم ألا يرجعوا إلى بلادهم إلا بإذنه حين لا تبقى له بهم حاجة، فجازوا معه إلى أن وصلوا إلى أطراف عمالة بجاية، فوفد على الأمير أبي عبد الله محمد هنالك عرب إفريقية، وأتوه طاعتهم ووفد عليه شيخ حكيم المرابط وهون عليه أمر إفريقية، فلما رأى الأمير محمد وفود العرب عليه وكثرتهم أمر جيش بني مرين، فانصرفوا وسار مع العرب فلقيه القائد أبو النصر ظافر بمحلته.

وكان السلطان أبو فارس لما بلغه مجيء صاحب بونة وصرفه إليها وعزل عنها القائد ظافر، وأمره بالخروج بالمحلة للقاء الأمير أبي عبد الله محمد فالتقيا فهزمه الأمير أبو عبد الله محمد، وأخذ محلته بجميع ما فيها، ثم سار الأمير أبو عبد الله محمد إلى بجاية فقام أهلها على الأمير أبي يحيى زكريا، وأخرجوه منها فركب البحر فاراً وملك الأمير أبو عبد الله محمد بجاية

وعقد عليها لولده المنصور، وسار للقاء المولى السلطان أبي فارس صاحب تونس ومن معه من العرب.

فمر المولى أبو فارس ببجاية فأخذها بمداخلة بعض أهلها بعد أن قاتلها أياماً، وانطلقت أيدي العبث في ديار أهلها فانتهبوها وقبض السلطان أبو فارس على الأمير محمد المنصور، وعلى كبار البلد كالإشبيليين فبعث بهم إلى الحضرة واعتقلوا بها، وعقد على بجاية لصاحبها المولى أبي العباس أحمد ابن أخيه المولى أبي عبد الله محمد وخرج للقاء الأمير أبي عبد الله محمد.

فلما التقى الجمعان تحول شيخ العرب المرابط عن الأمير أبي عبد الله محمد، وتركه لعهد كان بينه وبين السلطان على ذلك، فانهزم من كان مع الأمير أبي عبد الله محمد وفر هو بنفسه طالباً النجدة، فلحقه خيل السلطان في موضع يقال له بتيتة، فقتلوه ودفنت جثته هنالك فقبرة معروف بذلك الموضع إلى الآن، واحتزّ رأسه وأتوا به إلى السلطان أبي فارس، فبعث به رجلاً من رجال الطريق يقال له: المحمصي إلى مدينة فاس، فعلقه ليلاً بباب المحروق بها فأصبح أهل فاس يتوارونه وكان قتله في أوائل محرم عام اثني عشر.

وفي عام ثلاثة عشر أخذت الجزائر على صلح من أهلها، وفي يوم السبت السابع والعشرين من ربيع الثاني من العام المذكور توفي الشيخ الفقيه القاضي بتونس قاضي الجماعة الخطيب المدرس أبو مهدي عيسى الغبريني ودفن بالجلاز، وقدم بعده قاضياً قاضي الأنكحة، كان الفقيه العالم أبو يوسف يعقوب الزغبي قاضياً خاصة، وقدم للإمامة والخطابة والفتيا بجامع الزيتونة الشيخ الفقيه الحافظ الحاج أبو القاسم البرزلي، وقدم لقضاء الأنكحة والتدريس بمدرسة عنق الجمل الشيخ الفقيه أبو عبد الله محمد القلجاني، وقدم عوض الفقيه محمد المذكور قاضياً بقسنطينة ولده الشيخ الفقيه الحافظ أبو العباس أحمد.

وفي عام اثنين وعشرين أمر المولى السلطان بعمل بيت الكتب بمجنبة الهلال جوفي جامع الزيتونة تحت الصومعة، وفرغ منها في أواخر ربيع الآخر من العام المذكور وهبط إليها جميع ما عنده من الكتب وجعل لها خدمة وأمر أن تحل كل يوم من آذان الظهر إلى صلاة العصر وحبس عليها أحباساً لما تحتاج إليه.

وفي عام أربعة وعشرين توفي الأمير إسماعيل صنو السلطان، ودفن بجبانة سيدي أبي سعيد الباجي بالمرسى، وفي العام المذكور عزل المولى السلطان صاحب بجاية المولى أبا البقاء خالد عنها، وعقد عليها لولده المولى المعتمد وصرفه إليها، وفي عام سبعة وعشرين وثمانمئة افتتح المولى السلطان مدينة تلمسان في المرة الأولى وملكها من يد صاحبها السلطان عبد الواحد ابن السلطان أبي حمو الزناتي؛ لما سمع عنه أن سيرته غير محمودة وبعث إليه ونهاه فلم ينته.

فلما وصلها السلطان أبو فارس وانكسر ولده السلطان عبد الواحد وفر هارباً لأبيه علم أبوه أن لا طاقه له على المقابلة، فخرج من تلمسان فاراً بنفسه إلى الجبال ودخل السلطان أبو فارس تلمسان واستقر في قصبتها، واستولى على جميع ما فيها وذلك في ثالث عشر جمادى الآخرة من عام سبعة وعشرين المذكور، فبقي بها مدة مقيماً، ثم نظر من يقلده أمره فاختار لها الأمير محمد ابن السلطان أبي تاشفين ابن السلطان أبي حمو الزناتي.

فقعد له عليها، ثم ارتحل قاصداً مدينة فاس حتى لم يبق بينه وبينها إلى مسيرة يومين فوجه له صاحب فاس أن البلاد بلادكم والسلطانة سلطنتكم وجميع ما تأمروننا به نمتثله، فقبل السلطان أبو فارس كلامه ووجه له هدية عظيمة كافأه عليها بأكثر منها، وقفل راجعاً إلى حضرة تونس غانماً منصوراً ولحقته بيعة فاس، ثم بيعة صاحب الأندلس فصارت البلاد الإفريقية والمغرب الأقصى والأوسط كلها تحت نظره وفي ملكه.

وفي عام سبعة وعشرين المذكور بعث سلطان النصارى القطلاني رسولاً من قبله إلى حضرة تونس برسم التحدث في الصلح، فوجد الرسول السلطان أبا فارس بالمغرب فبعث الغراب الذي جاء فيه لسلطانه أخبره بغيبة سلطان تونس فبعث له الغراب، وقال له: ارجع في الحين فرجع في الغراب فوجه عمارة عددها خمسون جفناً وقصدوا قرقنة ونزلوها ليلاً على حين غفلة من أهلها، والنصارى نحو العشرة آلاف مقاتل، والمسلمون نحو ألفين ما بين رجال ونساء وأولاد، والجزيرة ليس فيها بلد ولا حصن يمنعون فيه، فوقفوا وقاتلوا عن أنفسهم وحريمهم وقتلوا من النصارى نحو أربعمئة نفس وقت منهم نحو مئتين.

ثم أخذوا باقيهم واستولت النصارى على الجزيرة، وكان السلطان قد انصرف من المغرب، فلما وصل إلى قفصة بلغه العلم بالعمارة فجد السير إلى أن اتفق وصوله ووصول النصارى لصفاقس، فطلبوا من السلطان الأمان لينزلوا ويتحدثوا في فدية المسلمين، فأعطاهم الأمان ونزل منهم نحو ستمئة نفس من كبارهم، فأعطاهم السلطان خمسين ألف دينار فدية فأبوا، فأتى المرابط ابن أبي صعنونة السلطان وقال له: النصارى خانوك فإنهم بعثوا رسولهم للصلح وفعلوا ما فعلوا وليس لخائن أمان، فالرأي عندي والصواب القبض على مولاه حتى يردوا المسلمين.

فقال: لا لئلا يتحدث الناس أني خائن نعطي الأمان ونخون نعوذ بالله من ذلك، فقال له المرابط: إذا لم تفعلها أنت نفعلها أنا تمشي أنت للصيد وأنا فأخذهم في غيبتك. فنهاه وطلعوا لأجفانهم على الأمان وسافروا بالمسلمين لبلادهم.

وفي ذي القعدة من عام ثلاثين بعث المولى السلطان أبا فارس رئيس الدولة ابن عبد العزيز صحبة الأمير الهمام المنتصر ابن المولى الخليفة أبي عبد الله محمد المنصور برسم القبض على رئيس قسنطينة الحاج أبي عبد الله محمد الدهان لما بلغه عنه من العتو والطغيان واقتناء الأموال ومعارضة ولاة الأمر وعدم الانقياد لهم، فمضيا في الرابع عشر من ذي القعدة المذكور وأظهرا عزل القائد جاء الخبر عن البلد بتقديم المولى المستنصر، فخرج الأجل الدهان مستبشراً برسم لقائهما، فقبضوا عليه خارج البلد وعلى أصحابه وقدموا الجميع على السلطان بتونس فانتقلوا بالقصبة.

وفي عام اثنين وثلاثين وثمانمئة عمر السلطان من تونس أسطولاً كبيراً، وبعثه إلى جزيرة مالطة وأمر عليه مملوكه القائد رهوان وأمره أن ينازلها ثلاثة أيام، فإن أخذت وإلا رحل عنها فنازلها وضيق عليه الحصر، ثم أقلع عنها بعد أن أشرف على أخذها، وفي العام المذكورة توفي الأمير أبو حفص عمر أخو السلطان ودفن بالجلاز خارج باب علاوة وله أشغال عظيمة في مدح سيدنا ومولانا المصطفى صلى الله عليه وسلم.

وفي حدود العام المذكورة بعث المولى السلطان عسكراً صحبه قائد قسنطينة وجاء الخبر إلى تلمسان لما بلغه عن صاحبها الأمير محمد ابن السلطان ابن تاشفين من العتو والاستبداد، وقطع اسم المولى السلطان من الكتب والخطبة وبعث مع جمعهم السلطان أبا محمد عبد الواحد الذي كان صاحبها، وكان قدم لتونس بعد فراره من بين يديه حين ملك تلمسان.

فلما وصلوا خرج الأمير محمد بجيشه فالتقى بهم وهزمهم، فسار السلطان أبو محمد عبد الواحد إلى الجبال، واستصرخ بأعرابها، وأتى بهم إلى تلمسان، فملكها وبعث بيعتها للسلطان بتونس، وخرج الأمير محمد ابن السلطان أبي تاشفين فاراً بنفسه إلى الجبال.

وفي الثامن والعشرين من جمادى الآخرة من سنة ثلاث وثلاثين قتل الزواودة قائد قسنطينة جاء الخبر في معركة كانت بينهم، فعقد عليها السلطان لمملوكه محمود، فدخلها في ثاني عشر رجب من عامه، وفي العام المذكور قتل صاحب طرابلس نبيل ابن أبي قطاية شيخ حكيم المرابط ابن أبي صعنونة بصحراء طرابلس، وبعث برأسه في عشية يوم الأحد الثاني والعشرين من رجب العام المذكور مات المولى الأجل ولي عهد الخلافة أبو عبد الله محمد المنصور ابن المولى أبي فارس بوطن طرابلس وحمل إلى تونس، ودفن بالتربة المجاورة لنوبة سيدي محرز بن خلف.

وفي آخر شوال من السنة المذكورة توفي الشيخ العالم الفقيه أحمد الشماع قاضي المحلة والخطيب بجامع القصبة وتولى بعده الخطابة والقضاء الفقيه الورع الأفضل أبو عبد الله محمد المسرابي، وفي السادس من ذي الحجة من العام المذكور توفي قاضي الجماعة بتونس الفقيه أبو يوسف يعقوب الزغبي، ودفن بالجلاز فقدم بعده لقضاء الجماعة الفقيه العدل المدرس أبو القاسم بن سلام الرشناني القسنطيني في شهر رمضان المعظم من عام أربعة وثلاثين.

وفي أواخر العام المذكور عزل المولى السلطان ولده المولى المعتمد عن بجاية وعقد عليها لمملوكه القائد أبي النعيم رضوان وسببه أنه لما بلغه وفاة أخيه المولى، وفي العهد طمع في ولاية العهد بعده فجاء في محلة عظيمة من بجاية لتعزية والده، فوجد المولى المنتصر قد أخذ والده

فأمر السلطان ولده بالانصراف إلى بلده فتلكأ عن الودائع، فأمر السلطان بنفاقه وحمله إلى تونس، واعتقله بالعلو الكائن بسقيفة سانية باردو.

وفي العام المذكور خرج من تونس السلطان بعساكره قاصداً تلمسان لما بلغه أن الأمير محمد ابن السلطان أبي تاشفين دخل تلمسان على عمه أبي محمد عبد الواحد وقتله وملك تلمسان، فسار المولى السلطان بعساكره حتى نزل على تلمسان، وأخذ بمخنقها وحاصرها أشد الحصار.

فلما علم الأمير محمد أن لا قدرة له على القيام في البلد، واشتد عليه الحصار خرج ليلاً هارباً إلى جبل بني يزناتن، ولما أصبح أهل البلد فتحوا الباب ودخلها بمن معه وبعث القائد نبيل بن أبي قطاية في عسكر إلى الجبل، وحاصرهم إلى أن طلبوا منه الأمان على أن يمكنون من الأمر محمد، فأنزلوه إلى المولى السلطان فعفا عنهم وقبض عليه، واعتقله، ثم نظر من يقلده أمر تلمسان، فوقع اختياره على الأمير أحمد ابن السلطان أبي حمو موسى بن يوسف الزناتي، فعقد له عليها وأنزله بها وقفل راجعاً إلى حضرته في سنة خمس وثلاثين وثمانمئة.

وحمل معه محمداً ابن السلطان أبي تاشفين واعتقله بقصبة تونس، وبقي فيها إلى أن هلك، وفي الصدر الأول من ذي الحجة من السنة المذكورة سنة خمس وثلاثين [......][1] طاغية النصارى [......] أرغين العطلاني على جزيرة جربة في أمم لا تحصى، وكان المولى السلطان نازلاً بعمرة بمحلته فبلغه الخبر، فارتحل في الحين ووجد العدو قد قطع القنطرة، فنزل بمحلته خارج الجزيرة مما يلي القنطرة، وكان بعث قبل نزلوا العدو عسكراً بصحبة قائد من قواده ليحفظ الجزيرة، ويمنع العدو من النزول إليها، فكان المولى السلطان بعساكره خارج الجزيرة والعسكر داخلها، والعدو في مركز على طرف القنطرة، وقد جعل بينه وبين المسلمين سوراً من الخشب.

كان المولى أبو فارس يجلس كل يوم بطرف القنطرة مع أصحابه ويمثل بين يديه القائد نبيل بجيش معه للقتال، فإذا خرج أحد من المسلمين جيء به إلى السلطان فأحس إليه فأخبر

[1] كل ما كان بين قوسين هكذا [......] من هذا الموضع إلى آخر الكتاب بياض في الأصل المخطوط (الناشر).

العدو بذلك، وبأن أصحابه يصرفون عنه لمآربهم في وقت العاملة، ولا يبقى إلا الخواص فبعث عدة سفن أحاطت بالقنطرة في القافلة، وأرادت القبض على السلطان ومن معه فركب السلطان وسلمه الله، واستشهد بعض ممن كان معه، مثل القائد محمد ابن شيخ الموحدين ابن عبد العزيز وأحفاده، وأحاط العدو بالميدان وما فيه وأخذه.

ثم إن بعض أصل حربة قدموا على السلطان وأخبروه بأن للجزيرة طريقاً غير القنطرة في البحر، فبعث معهم عسكراً أدخلوه الجزيرة، فلما رأى العدو أن العسكر دخلوا الجزيرة من غير القنطرة أيقن بالخيبة فقطع أساطيله عن الجزيرة خافياً، وكان يكفيه ما عليها سبعة وعشرين يوماً، وأصلح مولانا السلطان القنطرة وارتحل سالماً، وفي يوم الثلاثاء الحادي عشر من ربيع الثاني من سنة تسع وثلاثين توفي بتونس قاضي الأنكحة الفقيه أبو عبد الله محمد القلجاني، ودفن بالجلاز، وتولى بعده قضاء الأنكحة ومدرسة عنق الجمل ولده ونائبه الفقيه عمر.

وفي السنة المذكورة توفي الفقيه أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن قليل الهم الذي كان منفذاً وقبض عليه، وفي أيام التشريق من السنة المذكورة توفي بتونس الشيخ الفقيه أبو القاسم بن موسى العينوسي ودفن بالجلاز، وفي صيحة عيد الأضحى من سنة سبع وثلاثين توفي المولى السلطان أبو فارس عبد العزيز فجأة بموضع يعرف بولجة السدرة، وبه عين تسمى عين الزال بقرب جبل وانشريس من عمل تلمسان، وذلك بعد أن تطهر وجلس ينتظر وقت الخروج لصلاة العيد.

وذلك أنه لما رحل عن جربة بعد انصراف العدو عنها أعطى للجند عطياتهم، وجرد حركته وسار متوجهاً إلى تلمسان لما بلغه عن صاحبها الأمير أحمد ابن السلطان أبي حمو موسى بن يوسف الزناتي من التحدث في الاستقلال كعادة أسلافه، فأدركته منيته قبل الوصول إليها، فكانت مدة خلافته بتونس إحدى وأربعين سنة وأربعة أشهر وسبعة أيام وترك من الولد الذكور أربعة.

ولما توفي رحمه الله فجأة أخبر بموته ولي عهده حفيده المولى أبو عبد الله محمد المنتصر، فأمر بكتم ذلك وخرج وصلى صلاة العيد ورحل بالمحلة راجعاً إلى حضرة تونس، وأشاع في الناس أن السلطان أصبح مريضاً ورفع في محفة، وأخبر المولى المعتمد أن والده مات فخرج فاراً من المحلة، فبعث ولي العهد في طلبه فأتى به، واعتقل وكحلت عيناه بالنار وأظهر موت السلطان.

وبويع لولي عهده المولى السلطان أبي عبد الله محمد المنتصر ابن الأمير الشهيد أبي عبد الله محمد المنصور ابن مولانا أمير المؤمنين أبي فارس عبد العزيز ابن الخلفاء الراشدين، أمه أم ولد علجية اسمها ريم وبويع بالمحلة على رضا من الناس، وأظهر موت جده الخليفة وأمر بغسله وتكفينه، ثم بعثه إلى حضرة تونس ودفن بها بإزاء قبر ولده بالتوبة المجاورة لسيدي محرز بن خلف.

ورحل بمحلته متوجهاً إلى حضرته، ولما وصل إلى مسلة ورثت عليه هنالك بيت قسنطينة وعقد على بجاية لعمه المولى أبي الحسن علي ابن المولى الخليفة أبي فارس عبد العزيز، وصرفه إليها وسار بمحلته إلى أن وصل إلى قسنطينة، فوردت عليه هنالك بيعة الحضرة، فاستبشر بها وقرئت بمحضر الملا بجامع قسنطينة، ثم عقد على قسنطينة لشقيقه المولى أبي عمر عثمان وأمره بدخولها، فدخلها والياً في ثالث عشر ذي الحجة من عام سبعة المذكور وعزل عنها قائده محموداً.

وفي غرة المحرم من عام ثمانية وثلاثين وثمانمئة رحل المولى السلطان المنتصر بمحلته من طاهر قسنطينة متوجهاً إلى تونس، فلما وصل إلى تيفاش قبض على أخيه لأبيه المولى أبي الفضل، وعلى من كان يخدمه ويواليه وفر أكثرهم طلباً للنجاة وأخذ بعضهم بعد حين، ولما قبض عليه تخوف على الحضرة من الشيخ عبد العزيز، إذ بلغه أخذ حفيده ابن ابنه الأمير أبي الفضل، وأخذ ولده مجد معه، فوجه قائده أبا الفهم نبيل وأبا الثناء محمود في عسكر إلى الحضرة فوجدنا شيخ الموحدين ابن عبد العزيز قد أغلقها؛ لما بلغه ما فعل بحفيديه وابنه ورتب الرجال على الأبواب والأسوار.

ثم أعمل التدبير في الخروج عنها، فخرج منها عشاء هو وأولاده وبعض من يخدمه، فارين بأنفسهم ودخل القائدان بعد صلاة العشاء الأخيرة، وانتهب من جاء معهما من الغوغاء ديار الشيخ ابن عبد العزيز وديار أولاده ومن يخدمه، واعتقلا من حصل في أيديهما من خدامه، ثم أخبرا بأن الشيخ ابن عبد العزيز ومن معه نزولاً عند ديار القاطنين بالجزيرة ما بين وادي الرمل وسوسة، وقبضوا عليهم فخرج من تونس القائد نبيل فتمكن منهم وأدخلهم لتونس بمشهد من الملأ، واعتقلهم بالقصبة إلى أن هلكوا بها.

ثم ورد السلطان أبو عبد الله محمد المنتصر إلى حضرته تونس، فخرج أهلها للقائه، وأتوه ببيعتهم فدخلها في بروز عظيم يوم عاشوراء سنة ثمان وثلاثين المذكورة، وجددت له بها البيعة وأطلق بعض أهل السجون وتصدق بأموال كثيرة على الفقراء والمساكين وطلبة العلم، وقدم على مشيخة الموحدين الشيخ أبا عبد الله محمد ابن الشيخ أبي العباس أحمد ابن الشيخ الوزير إبراهيم بن هلال، وجعل لخطة علامته الفقيه أبا عبد الله محمد بن قاسم بن حجر وجعل لعلم جبايته.

وفيه أمر صاحب وسميره منه أبا عبد الله محمد بن قليل الهم، وأوقف بين يديه مراراً الحاج أبا عبد الله محمد الهلالي، وجعل في كل خطة من يليق بها، ولأول ولاية في [......] ببناء المدرسة الكائنة بسوق القلعة في تونس ومعه كاتبه بداخل باب ابن سعدون من تونس أيضاً، للناس والدواب.

وفي العام المذكور خرج المولى السلطان أبو عبد الله محمد المنتصر بجيش عظيم من حضرته برسم تفقد بلاده، فسار إلى ناحية قفصة في طريق، ودخل قفصة متربصاً وبقي بها أياماً، وأمر بصدقة مال على الفقراء والمساكين، ثم مرض[......] زكريا ابن الأمير أبي [......] زكريا ابن الأعرابي عبد الرحمن ابن المولى أبي يحيى زكريا صاحب بونة، ولحق بالعرب واستقر عند أولاد أبي الليل هو وأخوه فاجتمعوا عليهما.

ولما بلغ ذلك السلطان بعث إليهما بعسكر لمبادرة خط تونس، ورحل هو بمحلته وهو مريض من [......] راجعاً إلى حضرته فدخل في أواسط العام المذكور، ثم إن المولى فرق

أموالاً في عسكره وعقد عليها للفقيه المولى ابن [......] العرب وسلطانهم فبدره العرب قبل كمال هبته، وقبل لحوق بني عسكره بخربة من حمل أو يحس رؤوس بسهم معركة قبل فيها بعض أصحابه، كالفقيه ابن حجر، وسار المولى أبو عمر عثمان للإجماع بأولاد مهلهل فجمعهم، فرجع عنهم في صلب أولاد أبي الليل وسلطانهم فوجدهم قد حاصروا مدينة تونس، والمولى أبو عبد الله محمد المنتصر بتكليف الرئيس كل قومه وهو مريض، يجتمع [......] مع أهل تونس فقاتلهم بالسبخة.

فلما أحسوا بقدوم الأمير أبي عمر عثمان مع أولاد مهلهل أقلعوا عن الحضرة [......] والتقوا به فوقعت بينهم معركة جاب فيها بلغهم، وانصرفوا ودخل الأمير أبو عمر الحضرة، فأراح العلل وبلغ السلطان أن العرب قد عسكروا مع سلطانهم بظاهر القيروان، وأنهم أرادوا الرجوع لحصار الحضرة، فأخرج إليهم أخاه أباه عمر عثمان بجيش عظيم فأعدهم بموضع يعرف بالكرويه بمقربة من تونس.

فقتل منهم خلقاً كثيراً وأُخذت رجالهم، ولحق بالذواودة فأجاروه، ووفد معه شيخهم عيسى من بن محمد إلى تونس، فقبل المولى السلطان شفاعته فيه وفي أخيه، وعفا عنهما فبقي بتونس إلى أن قبض عليهما بعد ذلك قبل موت السلطان المنتصر لما اشتد مرضه داء الأمم.

ذكر رجال دولته:

أولهم حاجبه وحاجب أخيه ورئيس الدولتين الشيخ المعظم أبو عبد الله محمد بن أبي العباس أحمد ابن الشيخ الوزير أبي إسحق إبراهيم بن أبي هلال.

كاتب قلم جبايته وتنفيذه: الفقيه أبو عبد الله محمد بن قليل الهم، ثم الفقيه الأمجد الأسعد أبو العباس أحمد ابن الشيخ الحاج أبي إسحق إبراهيم السليماني وطلب الاستعفاء في آخر عمره وعوفي، وقدم الفقيه لأجل أبو عبد الله محمد الزواني سادس عشر جمادى الآخرة من عام سبعة وثمانين وثمانمئة.

كاتب علامته: الفقيه أبو عبد الله محمد بن قاسم بن حجر، ثم الفقيه محمد النداس، ثم الفقيه الكاتب المكرم أبو علي عمر بن قليل الهم، ثم ناب عنه ولده أبو الغيث وأخر لعدم

قيامه، ثم الفقيه أبو البركات ابن عصفور، ثم الفقيه أبو عبد الله محمد البوني مزواره الحاج أبو عبد الله محمد الهلالي، ثم الشيخ أبو عثمان سعيد الزريزر، ثم القائد أبو علي منصور الملقب بالمزوار، ثم أبو إسحق إبراهيم بن أحمد الفتوحي، ثم عبد العزيز ولده.

قضاة الجماعة بحضرته: الفقيه الأجل أبو القاسم بن سلام الوشتاتي القسنطيني، ثم الشيخ الفقيه أبو علي عمر القلجاني، ثم الفقيه الأجل الأكرم أبو عبد الله محمد الخزامي المشتهر بابن عقاب ابن الشيخ الأجل أبي العباس أحمد القلجاني، ثم حفيده الشيخ المعظم أبو عبد الله محمد القلجاني، ثم الشيخ الفقيه الأجل أبو عبد الله محمد بن أبي القاسم الرصاع، ثم الشيخ الفقيه المكرم أبو عبد الله محمد الوشتاتي.

قضاة الأنكحة بحضرته: الشيخ أبو حفص عمر القلجاني، ثم الشيخ العالم الكبير أبو محمد عبد الله البحيري، ثم الفقيه المكرم أبو الياس أحمد القسنطيني، ثم الشيخ الفقيه أبو عبد الله محمد الزنديوي، ثم ولده الفقيه أبو الحسن، ثم الفقيه المدرس أبو عبد الله محمد الزنديوي، ثم ولده الفقيه أبو الحسن، ثم الفقيه المدرس أبو عبد الله محمد الرصاع، ثم الشيخ الفقيه أبو محمد عبد الرحيم الحمصيني، ثم ولده الفقيه أبو الحسن.

المفتون بجامع الزيتونة: الشيخ أبو القاسم البرزلي الشيخ أبو القاسم الرشتاقي القسنطيني الشيخ الفقيه القاضي أبو حفص عمر القلجاني الشيخ الفقيه أبو عبد الله محمد بن عقاب الشيخ الفقيه القاضي أبو محمد عبد الله البحيري الشيخ الفقيه القاضي أبو العباس أحمد القلجاني، ثم حفيده الشيخ الفقيه أبو عبد الله محمد ابن شقيقه أبو حفص عمر، ثم الشيخ أبو عبد الله محمد الرصاع.

ذكر ما أحدث في أيامه من الحسنات: منها بناء للمدرسة والزاوية تحتها بالدار المعروفة بدار صولة جوار دار الشيخ الصالح سيدي محرز بن خلف والسقاية بإزائها، ومنها إكماله للمدرسة التي بدأ بناءها أخوها السلطان المنتصر بسوق القلقة من تونس، ومنها بناؤه للمياه الضخمة التي بدرب ابن عبد السلام جوفي جامع الزيتونة وأمر بتسخين الماء فيها في زمن الشتاء، ومنها بناؤه للسبالة شرقي صومعة جامع القصبة سبيلاً للعطاش والدواب، ومنها

بناؤه للمصاصة شرقي جامع الزيتون يشرب منها العطاش من جعاب نحاس يجذب منها الماء بالنفس.

ومنها أمره بالسبيل قرب المارستان ينتفع به من جواره لقلة الماء هنالك، ومنها بناؤه للسقاية بإزاء باب الجبيلة بين بابي برج الأونقي بتونس، وجلب الماء لذلك من أم الوطا خارج مدينة تونس، ومنها إقامته للخزانة التي للكتب وبناؤها بمقصورة سيدي محرز بن خلف شرقي جامع الزيتونة وحبس فيها من الكتب من غير ما فن من العلوم الشرعية واللغة والطب والتاريخ والحساب وغير ذلك.

ومنها بناؤه لزاوية الفندق فوق غاية شريك قبلي جبل زغوان جعلها ملجأ لمبيت الواردين من ناحية تونس، أو من ناحية القيروان وكذلك بناؤه للزاوية المعروفة بعين الزميت بين مدينة تونس وباجة وتلبيسه عليها ما يقوم بها وزاوية أبي الحداد وزاوية المتهلة وزاوية غرناطة بالمكان المعروف بين قفصة وتوزر وزاوية بسكرة وزاوية التومي وغير ذلك.

وفي أول ولايته أمر بإحداث المدرسة والزاوية التي بدا صولة وقدم فيها مدرساً الشيخ محمد الزنديري وأمر بإكمال المدرسة التي بسوق الفلقة، وقدم فيها مدرساً الفقيه القاضي أبا عبد الله محمد بن عقاب وحبس على كل واحدة ما يقوم لها، ولما استتام له الأمر فرَّ عم أبيه الأمير المدرس أبو عبد الله محمد الحسين ابن المولى الخليفة أحمد من تونس ليلاً هو وبعض أولاده، ولحق بأولاد أبي الليل وكانوا بقرب من الحضرة، فوقع بسبب ذلك تشويشات بالحضرة وأوطانها، وغلا السعر وتخوف الناس من إجلاب العرب به من الحضرة.

فبعث المولى السلطان إلى العرب وتوعدهم على ذلك إن فعلوه مقبولاً عليه وعلى من معه، ونوه به إلى السلطان فاعتقلهم بالقصبة، فهلك هو في ربيع الثاني من عام تسعة وثلاثين وثمانمئة، وبقي أولاده إلى أن عفا عنهم بعد ذلك فأطلقهم وقدم عوض من أبيه المذكورة مدرساً بمدرسة الشماعين قاضي الجماعة حينئذ الفقيه أبا القاسم القسنطيني، ثم إنه قبض على مزواره الحاج أبي عبد الله محمد الهلالي، وذلك في آخر جمادى الأولى من العام المذكور، وقدم عوضه مزواراً الشيخ أبا عثمان سعيد الزريز.

وفي أوائل جمادى الأولى من السنة المذكورة صرف الشيخ الفقيه القاضي أبا العباس أحمد القلجاني عن قضاء قسنطينة، وقدم عوضه الشيخ أبا عبد الله محمد الزنديوي، ولما قدم الشيخ الفقيه أحمد القسنطيني لتونس قدم مدرساً بالمدرسة الجديدة قرب دار سيدي محرز، ثم إن عرب إفريقية أولاد أبي الليل ومن أضاف إليهم أفسدوا في جميع الأوطان وأخافوا السبل، فبعث إليهم المولى السلطان ينهاهم فتناهلوا بالمطاليب لهم ولمن معهم، وتمادوا على غيرهم فجهز المولى السلطان عساكره وأخرج ضاربه للسعر به في شعبان من سنة تسع وثلاثين، فأنفوا إذ خرج بمضاربه ولم يسعفهم بمقصودهم وعزموا على الهجوم على المحلة قبل كمال جيشها.

فبلغ ذلك السلطان فأمر بإدخال مضربه كلها إلى تونس، ونزل العرب سبخة باب خالد محاصرين للحضرة في أوائل شهر رمضان، فكان المولى السلطان بمخرج إليهم بأهل حضرته وجيوشه ويقاتلهم بالسبخة بنفسه، وظهرت منه شجاعة ودفع في نحو الأعداء ما يقصر عنه والوصف إلى أن انصرف عنه العرب خائبين بعد قتل كثير منهم.

ولما بلغهم أن أولاد مهلهل ومن انضاف إليهم عزموا على لقائهم في نصرة أمير المؤمنين، أفرجوا عن تونس وأعاقوا معهم بالكرومة وخرج السلطان بمن معه من الحضرة في طلبهم، فوقعت معركة عظيمة قتل فيها خلف كثير وفروا على وجوههم طالبين النجاة، وكان صاحب بجاية الأمير أبو الحسن ابن المولى الخليفة فارس عبد العزيز قد دعا لنفسه ببجاية، وبويع بها لما بلغه موت الخليفة أبي عبد الله محمد المنتصر.

فلما انصرف أولاد أبي الليل عن الحضرة خائبين وفدوا عليه، واستدعوه إلى الحضرة فأجابهم، ونازل معهم قسنطينة فحاصرها وضيق عليها نحو شهر يغاديها القتال ويراوحها، فوقف له قائدها نبيل وقاتله ومنعه عنها فرحل خائباً قاصداً للحضرة ومعه شيخ الزواودة عيسى بن محمد.

كان المولى السلطان خرج بمحلته للقائد ووفد عليه سباع بن محمد شيخ الزواودة، فكان في جملته وقدم المولى السلطان بين يديه قائده محمود بحشد الحشود من الحنانشة وقرفة، فورد

عليه أصحاب الأمير أبي الحسن فحاوة إليه فبايعه ووقف معه، وأشار عليه بمناجزة المولى السلطان الحرب قبل كمال عساكره وقبل قدوم العرب عليه، وكان أبو النظر ابن القائد محمود بمحلة المولى الخليفة، فلما سمع بما وقع لأبيه فرّ ولحق به وأمر الخليفة بالقبض على قائد بونة محمد ابن القائد محمود المذكور، فاعتقل بالحضرة إلى أن أطلق بعد حين.

وسار المولى الخليفة بعساكره ومعه أولاد مهلهل ومن انضاف إليهم إلى أن قرب من سواط فوفد عليه في مساء الليلة التي كانت المعركة صبحتها شيخ حكيم سعيد بن أحمد، ومعه أتباعه من حكيم وبني علي وغيرهم، فالتقى الجمعان بإزاء وادي سراط بقرب تيفاش يوم الأربعاء الثاني والعشرين من ربيع الأول عام أربعين وثمانمئة، واجتمع به ذلك اليوم بذلك الموضع عرب إفريقية كلها فصفت الصفوف، ووقف المولى الخليفة في وسطها، فلما رأى أصحاب الأمير أبي الحسن كثرة ما وفد على الخليفة من الجيوش قدموا إذ لم يناجزوهم الحرب في أمس ذلك اليوم، ثم قووا عزائمهم وصلت ميمنتهم على ما يقابلها فهزمتهم، ثم حملت ميسرتهم كذلك.

حدّث عن الشيخ الفقيه أبي العباس أحمد الشماع قاضي المحلة حينئذ قال: كنت واقفاً في ذلك اليوم في موضع مرتفع فرأيت أمير المؤمنين لا رأى ما نزل بميمنته وميسرته دفع بأهل الحفيظة وجماعة الحفيظيين وذوي الصدق في وجوه العدو، ولم يبال بهضم جناحيه، وقصد نحو الأمير أبي الحسن فتفرقت فرق الفتح وأهل الظفر، وتفرقت عن الأمير أبي الحسن أصحابه، وقُتل كثير منهم، وكرّ أصحاب السلطان لما رأوا النصر من قبله، فبقي الشرار من صحوة النهار إلى العصر، وأفلت الأمير أبو الحسن بفرسه طالباً نجاة نفسه، وأسلم محلته وأصحابه فأخذهم النهب وأيقن هو بدخول بلد بجاية مع من خف من أصحابه، فقفل السلطان راجعاً إلى حضرته فدخلها منصوراً ظافراً.

وفي شهر رمضان من عام أربعين المذكور وفد على المولى السلطان بحضرته وفد أولاد أبي الليل على غير تقدم أمان منه، فقبض عليهم بسانية باردو وأمر بتقييدهم وإدخالهم إلى القصبة

واعتبلوا بها، وهم منصور بن خالد بن صوله بن خالد بن حمزة وطلحة بن محمد بن منصور بن حمزة ومنصور بن ذويب بن أحمد بن حمزة وأتباعهم.

ثم إن السلطان خرج حركته من حضرته وأعطى الجند عطياتهم وخرج بعساكره قاصداً إلى وطن بجاية، فنزل مكوس في أواخر عام أربعين، وقاتل به عبد الله بن عمر بن صخر شيخ بني سيلين، ثم قفل راجعاً إلى حضرته فدخلها في أوائل عام أحد وأربعين، وفي آخر يوم من ربيع الأول من عام أحد وأربعين هذا، توفي بتونس كاتب العلامة الفقيه أبو عبد الله محمد بن قاسم بن حجر ودفن من الغد بدار الشيخ الصالح أبي زكريا يحيى بن الدمان خارج باب السويقة من تونس، وحضر لدفنه المولى الخليفة ووجوه دولته فقدم بعده لكتابة العلامة الفقيه أبو عبد الله محمد التراسي، وفي آخر العام المذكور فرغ من بناء مدرسة سوق الفلقة.

وفي يوم خامس عشرين من ذي القعدة من العام المذكورة توفي بتونس الشيخ الفقيه الحاج أبو القاسم البزلي ودفن بجبل الجلاز، فتولى بعده الإمامة بجامع الزيتونة والخطابة والفتيا بعد صلاة الجمعة قاضي الجماعة حينئذ الشيخ الفقيه أبو القاسم القسنطيني، وولي التدريس بمدرسة ابن تافراجين الفقيه أبو البركان محمد بن محمد عرف بابن عصفور، وولي الخطابة بجامع التوفيق والفتيا به بعد قاضي الجماعة قاضي الأنكحة حينئذ الشيخ أبو حفص عمر القلجاني.

وفي أواسط عام اثنين وأربعين أمر الخليفة بالقبض على منقذه وصاحب قلم جبايته الفقيه أبي عبد الله محمد بن قليل الهم، وعلى ولديه أبي البركات ويونس وعلى صاحبه قائد باجة أبي الحسن علي بن مرزوق وأخيه، فقبض عليهم واعتقلوا بالقصبة واستُصفيت أموالهم، وقدم بعده للتنفيذ والجباية الفقيه أبو العباس أحمد بن أبي إسحق إبراهيم السليماني، وفي عصر يوم الخميس الرابع عشر من شعبان من العام المذكورة توفي الشيخ الفقيه العلامة أبو عبد الله محمد بن مرزوق.

وفي أوائل عام ثلاثة وأربعين أتى السلطان برأس ابن صخر وهو عبد الله بن عمر السيليني إلى حضرة تونس ونصب بباب خالد.

وفي رابع جمادى الآخرة من العام المذكور دخل السلطان بجباية بعد خروج الأمير أبي الحسن فاراً بنفسه منها وخرج أهلها للقائد فأمن جميعهم في أنفسهم وأموالهم، ثم عقد عليها لابن عمه الأمير أبي محمد عبد المؤمن بن أبي العباس أحمد، وقفل راجعاً إلى الحضرة على ما أمل فدخلها في رجب من العام المذكور، وفي آخر عام أربعة وأربعين فرغ من بناء المدرسة المجاورة لسيدي محرز.

وفي يوم الخميس الرابع عشر من ربيع الآخر من عام خمسة وأربعين توفي الفقيه المدرس أبو العباس أحمد بن محمد بن عبد الرحمن بن زاغ، وصلي عليه من الغد بعد صلاة الجمعة بالجامع الأعظم، ودفن خارج البلد بطريق العباد، وكان مدرساً بتلمسان وله تصانيف جليلة منها التوضيح في علم الفرائض من الواحد الصحيح استوفي فيه طريق القرشي بالكسور، واستنبط فيها أشياء ظهرت له لم يسبق إليها ومنها اختصاره ومنها مقدمة في تفسير القرآن العظيم وخاتمة في ذلك، وغير ذلك من تآليفه.

وفي عام خمسة وأربعين وثمانمئة بلغ المولى السلطان أن بلدة نفطة قام بها رجل يعرف بأبي زكريا من فخذ بني الخلف من مشيختها، واجتمع عليه الأوباش وأغلق البلد في وجه النائب، فخرج المولى الخليفة بجيوشه من حضرة قاصداً إليها، وقدم بين يديه قائده أبا الفهم نبيل بعسكر معه، فنزل البلد وحاصرها إلى أن دخلها بعد أن قتل منها خلق كثير، وملكها في أواخر جمادى الآخرة من العام، وانتهبت ديارهم وأموالهم، وقبض على القائم بها وأتى به إلى المولى السلطان، فأمر به فقتل، ثم قبض على أبيه وأتى به إلى المولى السلطان فأمر به فقتل في الحضرة، ثم عقد عليها القائد من قبله وانصرف عنها راجعاً إلى حضرته فدخلها في أواخر العام المذكور.

وفي يوم الجمعة حادي عشرين من المحرم عام ستة وأربعين عمل مجلساً بالقصبة العلية بحضرة الخليفة من سبب مقالة نسبت إلى الشيخ الفقيه أحمد القلجاني، وحضر المجلس المذكور هو وشقيقه والشيخ الفقيه القاضي أبو حفص عمر، والشيخ الفقيه محمد بن عقل والشيخ الفقيه عبد الله البحتري، ومفتي بجاية الفقيه منصور بن عثمان البجاوي، وكلم

الخليفة في القصبة الفقيه ابن عقاب المذكور، فأمر باعتقاله فجامع الجبيلة من الصبة دون قيد فاعتقل نحو شهرين، ثم أطلق.

وفي يوم الأربعاء سابع عشر صفر من العام المذكور، وهو جالس على السجادة عند باب البهور حيث صلى بالناس هنالك فقتل ضاربه في الحين تحت صومعة الجامع المذكور، وألقي خارج المسجد ورفع القاضي المذكورة إلى داره وكتب وصيته، وتوفي في الليلة القابلة وصلى عليه بالغد بالجامع المذكور ودفن بالجلاز، وقدم لقضاء الجماعة بعده والخطبة بجامع الزيتونة والفتيا به بعد صلاة الجمعة الشيخ القاضي أبو حفص عمر القلجاني.

وقدم للإمامة بالجامع المذكور الفقيه محمد بن عمر المسراتي القروي خطيب جامع القصبة، وقدم للخطابة والفتيا بجامع التوفيق بعد صلاة الجمعة به الشيخ الفقيه أبو عبد الله محمد بن عقاب، وقدم لقضاء الأنكحة والتدريس بمدرسة الشماعين الفقيه أبو عبد الله محمد البحيري.

وفي أوائل عام ستة وأربعين بلغ المولى السلطان أن محمد بن يحيى السيليني المعروف بابن حجر اغتال صاحب بجاية الأمير أبا محمد عبد المؤمن وقتله، فعقد عليها المولى الخليفة لأخيه الأمير أبي محمد عبد الملك أخي عبد المؤمن المذكور، وفي أوائل عام سبعة وأربعين كان الوباء بتونس ونواحيها، وفيه مرض قاضي الجماعة الشيخ الفقيه أبو حفص عمر القلجاني وطال مرضه، واتصل على أن توفي ليلة الأربعاء الرابع والعشرين لشهر رمضان من العام المذكورة، وصلي عليه من الغد بجامع الزيتونة بعد صلاة الظهر، ودفن بجبل الجلاز بإزاء قبر والده وكانت ولادته بباجة ليلة السبت الثانية من شوال من عام ثلاثة وسبعين وسبعمئة، فكان عمره أربعة وسبعين عاماً غير سبعة أيام.

فولي بعده قضاء الجماعة والفتيا بجامع الزيتونة بعد صلاة الجمعة به والخطابة بجامع القصبة الشيخ الفقيه أبو عبد الله محمد بن محمد بن عقاب، والتدريس بمدرسة عنق الجمل ولده الشيخ الفقيه أبو عبد الله محمد والخطابة بجامع الزيتونة أبو عبد الله محمد المسراتي، وقدم للخطابة بجامع التوفيق والفتيا به بعد صلاة الجمعة الفقيه القاضي أبو العباس أحمد القلجاني،

وفي ليلة الخميس الثاني من شوال من العام المذكور توفي الشيخ الصالح سيدي فتح الله بزاويته بمقربة من جبل الجلود ودفن من الغد.

وفي ليلة السبت ثامن عشر صفر من عام ثمانية وأربعين وثمانمئة توفي الشيخ الولي الصالح سيدي أبو الحسن علي الجبالي، ودفن من الغد بجبل المرسى بطرف جبانته، وفي عام خمسين بلغ المولى الخليفة أن الأمير أبا الحسن دخل بجاية على قائدها أحمد بن بشير على حين غفلة، فخرج المولى السلطان من حضرته بجيوشه وقصدها وقدم بين يديه القائد نبيل بعسكر معه فنزلها، وفرَّ منه الأمير أبو الحسن ولحق بالجبال بعد إقامته بها عشرين يوماً، وملكها القائد المذكور وقدم عليها المولى الخليفة القائد محمد بن فرج وانصرف إلى حضرته.

وفي يوم الجمعة ثامن عشر شوال من العام المذكور توفي أمام جامع الزيتونة وخطيبه الشيخ الفقيه المدرس أبو عبد الله محمد المسراتي، ودفن من الغد بالجلاز فولي بعده الإمامة والخطابة قاضي الجماعة حينئذ الفقيه أبو عبد الله محمد بن عقاب، وولي التدريس بعده بمدرسة التوفيق أخوه الفقيه أبو العباس أحمد، وكذلك ولي الخطابة بجامع القصبة، وفي حدود العام المذكور توفي الفقيه أبو عبد الله محمد بن قليل الهم بمرض أصابه بمكان اعتقاله من القصبة.

وفي ذي الحجة من عام خمسين المذكور فرغ من البناء من المدرسة الكائنة شرقي باب ينتجمّي أحد أبواب القصبة، وهي التي أحدث بناءها القائد نبيل أبو قليلة، وقدم فيها مدرساً الفقيه الأجل أبا إسحق إبراهيم الأخسري، وفي يوم السبت الثاني والعشرين للمحرم من عام أحد وخمسين وثمانمئة، قبض على المولى الأمير أبي إسحق إبراهيم أخي المولى الخليفة لأبيه وعلى ولدي أخيه المولى الأمير أبي الفضل واعتقلوا بالقصبة، وفي يوم الخميس ثاني عشر صفر من العام المذكور وقعت الزلزلة بتونس قرب الزوال.

وفي ليلة الإثنين سابع عشر جمادى من العام المذكور توفي قاضي الجماعة بتونس الفقيه أبو عبد الله محمد بن عقاب بعد صلاة العشاء الآخرة، وصلي عليه من الغد بجامع الزيتونة بعد صلاة الظهر، ودفن بجبل المرسى بجبانة الشيخ سيدي أبي سعيد الباجي فولي بعده قضاء

الجماعة والتدريس بمدرسة سوق الفلقة الشيخ الفقيه القاضي أحمد القلجاني في يوم الثلاثاء ثاني جمادى الآخرة، واستقل حفيده أحمد ابن شقيقه عبد الله بقضاء الجزيرة والتدريس بالمدرسة المجاورة لسيدي محرز بن خلف، وقدم الفقيه القاضي أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الوانشريسي للإمامة والخطابة بجامع الزيتونة في ثالث المحرم فاتح عام اثنين وخمسين وثمانمئة.

وقدم الشيخ القاضي قاضي الأنكحة بتونس الشيخ محمد البحيري للفتوى بجامع الزيتونة بعد صلاة الجمعة في الثامن للمحرم المذكور، فكان يخطب بجامع أبي محمد بربض باب السويقة الجمعة ويأتي للفتوى بجامع الزيتونة، وفي عام اثنين وخمسين وثمانمئة أمر السلطان ببناء الميضأة الكائنة على يسار الداخل لدرب ابن عبد السلام جوفي جامع الزيتونة، فشرع في بنائها في شعبان من العام المذكور.

وفي الثامن والعشرين من ذي الحجة مكمل العام توفي بالديار المصرية قاضي القضاة شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد بن حجر شارح كتاب البخاري وغيره، وكانت ولادته في شعبان من سنة ثلاث وستين وسبعمئة كذا وجد بخطه رحمه الله تعالى، وفي عصر يوم الأربعاء خامس ربيع الثاني من عام ثلاثة وخمسين توفي إمام جامع الزيتونة وخطيبه الفقيه أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الوانشريسي، ودفن من الغد بالجلاز فقدم بعده خطيباً الشيخ عبد الله محمد البحيري يوم الجمعة سابع الشهر المذكور، وقدم إماماً الفقيه أبو الحسن اللحياني وخطيباً بجامع أبي محمد.

وفي يوم الخميس سادس شعبان من العام المذكور خرج السلطان بمحلته من الحضرة ونزل الزعترية، ثم ارتحل قاصداً تقرت، وكان في أوائل دولته قام بها رجل من فخذ مشيختها اسمه يوسف بن حسن، واحتوى عليها ومنع جبايتها لاشتغال الخليفة عنه بما هو أهم، وبعد قطره ففي هذا العام رحل السلطان إليه وقدم بين يديه القائد نبيل بعسكر معه يزيد على ألف فارس، فحاصر البلد في آخر شوال من العام المذكور وقاتلها يومين، ثم أمر بقطع نخلها في اليوم الثالث.

وأناب من فعل ذلك لما رأى من مقاتلة أهلها له ووقوفهم مع شيخها يوسف المذكور، ثم إن المولى السلطان قدم وأحاط بالبلد في اليوم الرابع، فدخل قائد باجة أبو شعيب مدين مع علج من علوجه من غير تقدم طلب، فأمر بهما يوسف المذكور فقتلا، وأمر المولى السلطان بالقتال وقطع النخل، فلما رأى يوسف ذلك وعلم أنه لا قدرة له على الدفاع طلب الأمان، فأمن في نفسه وخرج وطلب من السلطان أن يقبل منه مالاً ويبقيه في بلده، فأنعم له بذلك فدفع له بعض المال، ثم بدا له وأغلق الباب، ثم أقام بها ستة أيام فأمر الخليفة بمعاودة الحصار والقتال.

فلما رأى ذلك نزل من البلد وقصد المحلة لكمال ما كان تحدث به، فقبض عليه بها يوم الخميس ثاني ذي القعدة من العام المذكور وملك البلد، وأخذها النهب واحتوى المولى السلطان على ما جمعه يوسف المذكور، وقدم في البلد قائداً من قبله ورحل عنها متوجهاً لحضرته ومعه يوسف المذكور، وولده وأخوه وعمه وأهله معتقلون، ودخل السلطان تونس يوم السبت ثالث عشرين ذي الحجة من العام المذكور، وأدخل يوسف المذكور ومن معه للحضرة بقيودهم على جمال تتهادى بهم وقدم على باجة قائداً وهو القائد نصر الله من أحرار العلوج.

وفي أوائل عام أربعة وخمسين وثمانمئة أمر الخليفة ببناء خزانة الكتب بجامع الزيتونة فبنيت بمقصورة الولي سيدي محرز بن خلف شرقي الجامع، وفرغ منها في رجب من العام المذكور، وفيه بنيت زاوية عين الزميت قرب كاف غراب بين تونس وباجة وعيَّن عليها ما يقوم لها، وفي أوائل رجب من العام المذكور فرغ من البناء من البيضاء المحدثة بدرب ابن عبد السلام، ونزل السلطان إليها ورأى بنيانها في يوم الإثنين ثامن رجب من العام المذكور، وفيه أيضاً فرغ من البناء من زاوية الفندق بغابة شرك بين تونس والقيروان وحبس عليها ما يقوم لها.

وفي أوائل ربيع الثاني من عام خمسة وخمسين وثمانمئة أحدث بتونس خطبة ثامنة بجامع سيدي جعفر بالتبانين بربض باب السويقة، وفي يوم السبت الموفي عشرين من ربيع الثاني

المذكور عمل المولى السلطان عرس ولده المولى الهمام ولي عهد الخلافة أبي عبد الله محمد المسعود على ابنة عمه شقيق الخليفة المنتصر، وبنى بها في الليلة المقابلة وأطعم في العرس المذكور بالقصبة أهل الحضرة من غرة ربيع الأول إلى يوم البناء، ثم أعطى قرب البناء لأجل ربض باب السويقة ستين رأساً بقراً وستين قفيزاً قمحاً ومثل ذلك لأهل ربض باب الجزيرة.

وفي جمادى الأولى من العام المذكور صرف قاضي قسنطينة الشيخ الفقيه محمد الزنديوي عن قضائها بعد أن بقي بها ستة عشر عاماً، وقدم عوضه قاضياً بها الفقيه أبو عبد الله محمد الزنديوي في جميع خطط الفقيه الغافقي المذكور بالحضرة، وذلك التدريس بمدرسة المعرض والخطابة بجامع باب الجزيرة والفتيا به والقضاء ببلد باجة، وفي يوم الإثنين سادس شوال من عام خمسة وخمسين رحل السلطان من تونس مشرفاً لبلد طرابلس يهدن أوطانها، ويطلب جبايتها وانصرف راجعاً للحضرة.

وفي يوم عيد الأضحى مات الفقيه التواسي كاتب الأوامر الكريمة بقابس فإنه كان تخلف بها لمرض أصابه، ثم حمل بعد موته للحضرة ودفن بجبل المرسى، وقدم بعده للكتابة الفقيه الناظم أبو علي عمر بن أبي العباس أحمد بن قليل الهم، وفي العام المذكور توفي تلمسان الشيخ المفتي العلامة أبو القاسم العقباني، وفيه بنيت السقاية قرب المارستان من تونس، وفي أواسط جمادى الآخرة من عام ستة وخمسين وثمانمئة صرف الفقيه أحمد بن كحيل عن قضاء المحلة وعن الشهادة بالحضرة، وقدم عوضه قاضياً بالمحلة الشيخ أبو عبد الله محمد الزنديوي.

وفي أوائل رجب من العام المذكور ورد الخبر لتونس بأن الأمير أبا الحسن المذكور اجتمع عليه خلق كثير من وطن بجاية، وأنه ضيق عليها وأخذ بمخنقها فبعث السلطان عسكراً لنصرتها وأعطى السلفة، ورحل ثامن شعبان من العام المذكور بجيوشه مغرباً، وكان لمحمد بن سعيد السليني ابن عم قد استولى على وطنه وأخرجه منه، وأعانه على ذلك صاحب بجاية الأمير عبد الملك، فقدم بسكرة وطلب من قائدها أبي زيد عبد الرحمن الكلاعي على أن يحسن لمن يأتيه من أهل وطن حمزة؛ ليكون ذلك سبباً للاحتيال على الأمير أبي الحسن فيأمن.

فجاء من يحذره من أهل وطن حمزة فصدق ذلك عنده إحسان قائد بسكرة إليهم فخرج من عندهم فاراً بنفسه، ولحق بابن صخر المذكور ونزل عند صهره سعيد بن عبد الرحمن بن عمر بن محمد بن سعيد المذكور، فتحدث محمد بن سعيد مع أحمد بن علي من الزواودة، ومع قائد قسنطينة أبي علي منصور المزوار فالتزم له القائد المذكور الوفاء بجميع ما يطلب إن قبض عليه.

فلما خرج المولى السلطان بمحلته من حضرته مغرباً بعث ابن صخر المذكور إلى قائد قسنطينة بأن يكون قريباً منه بعسكره، ففعل لما أن ابن صخر أخبر ابن عمه سعيد بن عبد الرحمن بما تحدث به من القبض على الأمير أبي الحسن، وطلب منه المساعدة فعظم ذلك عليه، ثم إنه رأى أنه لابد له من ذلك فاتفقا معاً على القبض عليه، فأخذاه بمحاولة وطيرا بالخبر إلى القائد أبي علي منصور المذكور قائد قسنطينة، فأتاهما بمن معه فأمكناه عنه، ثم بعث القائد ولده عليها مع سعيد بن عبد الرحمن المذكور للسلطان، فأخبراه بذلك فوجه شيخ الموحدين الشيخ أبا عبد الله محمد بن أبي هلال مع القائد علي الواصل المذكور بعسكر، فقدما على القائد المذكور بموضع يعرف بأيكجان يوم عيد الفطر.

فأمكنهما من الأمير أبي الحسن فارتحلا به مقيداً راكباً على بغلة، ثم توقّعا أن يفلته العرب من أسره قبل وصوله إلى المولى السلطان، فلما كانت ليلة الثالث من شوال أمرا به فذبح بموضع بطرف السبخة ودفنت جثته هنالك، وبعثا برأسه إلى السلطان مع البريد، فقدم به عليه في الرابع من شوال المذكور وهو متوجه إليه، فوضع بين يديه، ثم نصب على قناة بالسوق حتى رآه الناس وتحققوه، ثم أمر بدفنه فدفن هنالك.

ثم رحل السلطان بمحلته قاصداً لبجاية وبعث صاحبها ابن عمه الأمير أبي محمد عبد الملك ليقدم مع كبار بلده للقائه ليتجدد به عهداً، فقدم وجوه البلد وتلكا هو عن القدوم فوجه إليه المولى السلطان قاضي المحلة وبعض الفقهاء والمرابطين، فرغبوه في القدوم فقدم معهم في يوم الإثنين ثالث عشر شوال المذكور، فوجد الخليفة ينتظر بأبي بجاب بمقربة من جبل أولاد رحمة فبات ليلة بالمحلة، ثم قبض عليه بها من الغد وقيد وعقد على بجاية للقائد

منصور المذكور وصرفه إليها مع وجوه أهلها، وانكفأ راجعاً بمحلته وعقد في طريقه على قسنطينة للقائد، فارح ابن القائد منصور المذكور وصرفه إليها وسار متوجهاً لحضرته في يوم الإثنين الموفي عشر ذي الحجة مكمل عام ستة وخمسين.

وفي يوم الإثنين ثالث عشر ذي الحجة من العام المذكور قتل العامة وبعض خدام القائد نبيل حاكم باب المنارة المكحول، ونقبوا عراقيه وجروا شلوه في أزقة المدينة وأحرقوه، وأشاعوا أن ذلك عن أمر الخليفة وكان ذلك اليوم الخليفة قد خرج المصيد، فلما جاء بالعفي أخبر بذلك فأنكره وأمر بالقبض على من فعل ذلك فقبض على خمسة رجال منهم فذبحوا في الموضع الذي أحرقوا القائد فيه على يسار باب الحديد.

وفي حادي عشر ربيع الأول من عام سبعة وخمسين أخذ القائد نبيل أبو قطاية بالقصبة العلية وعلى أولاده الذين بالحضرة، وعلى خدمة القائد عبد الله الصقلي فاعتقلوا كلهم بالقصبة خرج في الحين الشيخ أبو الفضل بن أبي هلال بعسكر معه إلى بلد بونة، فقبض على قائدها أبي النصر ابن القائد نبيل المذكور، وعلى أصحابه فقدم بهم إلى الحضر، فثقف أبو النصر بالحضرة وأطلق أصحابه وعقد الخليفة في حين أخذ القائد نبيل على قفصة لأبي محرز محفوظ، وصرفه إليها وأمره أن يأمر صاحبها القائد فتوح بالانصراف إلى بلد توزر، ليقبض على صاحبها القائد ناصر رضيع القائد نبيل، ففعل ذلك وقبض على ناصر المذكور وجيء به إلى قفصة نثقفه بها هو وولده محمد إلى أن أطلق بعد ذلك وتولى فتوح توزر.

ثم إن المولى السلطان أمر بجمع الأموال التي للقائد نبيل وولده ومن قبض عليه منهم، فجمعت كلها من مكامن احتجاجها، وحصل فيها فيما قيل ما يزيد على عشرين قنطار ذهباً من العين وما يقارب ذلك قيمة من الجوهر والعقار والأثاث، ولما كانت ليلة الثلاثاء ثاني عشر جادى الأولى من العام المذكور، توفي القائد نبيل المذكور بحبسه ودفن ليلاً بالقصبة، ثم أخرج ليلة الخميس رابع عشر الشهر المذكور وقع ابتداء الوباء بتونس، فانتقل المولى السلطان من القصبة إلى سانية باردو، ثم انتقل منها إلى سانية توزر.

وفي ليلة السبت أول ليلة من جمادى الآخرة من عام سبعة وخمسين وثمانمئة صرف الشيخ أبو عبد الله محمد الزنديوي عن قضاء المحلة، وأعيد إليها الفقيه أحمد بن كحيل والي الشهادة بالحاضرة، وفي جمادى الآخرة أيضاً أخذ السلطان المجاهد في سبيل الله أبو عبد الله محمد ابن السلطان عثمان ابن السلطان مراد التركي مدينة قسطنطينية العظمى قهراً، واحتوى عليها وعلى جميع خزائنها بعد حصرة لها أشد الحصار، وأسكنها المسلمين وأقطعهم إياها، وفي رابع عشر شعبان من العام المذكور توفي بتونس الشيخ الفقيه محمد الرملي ودفن بالجلاز.

وفي السادس عشر منه قدم الفقيه أبو عبد الله محمد بن عبد الكريم الكماد ناظراً في الأشغال بالحضرة، وقدم أبو عبد الله محمد بن عصفور شاهداً بالتنفيذ، وفي ثالث عشر شهر رمضان من العام المذكور أغمي على الشيخ سعيد بن أحمد بوطن فقزارة ظن أولاده أنه توفي فانصرفوا قاصدين إلى الحضرة لطلب المشيخة، فوقع بين عامر وأخيه مقاتلة في طريقهم جرح فيها محمد، وتأخر وقدم أخوه عامر لتونس ومعه ولده وأخوه عبد الله فأمر السلطان بالقبض عليهم، فاعتقلوا بتونس، ثم قدم محمد فأكرمه وندمه عوض أبيه، ثم ورد الخبر أن الشيخ سعيد أفاق فأطلق عامر، ثم توفي الشيخ في ذي القعدة من العام فاستقل محمد بالمشيخة.

وفي عاشر شوال من عام ثمانية وخمسين خرج المولى السلطان بمحلته مشرقاً، ثم رجع مغرباً وجدد حركاته لسماعه أن المفسدين بأطراف بجاية ضيقوا على قائدها ومنعوه التصرف، فأمر في طريقه بالقبض على الأمير أبي بكر ابن الأمير عبد المؤمن لسؤال أهل بجاية عنه، وقصدهم تقديمه لتقدم سالفته فيهم من أبيه وعمه فقبض عليه وهو متوجه من تونس إلى المحلة بقرب ميلة ورد إلى تونس، ودخلها يوم الأربعاء سادس عشر جمادى الآخرة من عام تسعة وخمسين واعتقل بالقصبة هو ومن معه.

وسار المولى السلطان إلى أن وصل تاكورة فقدم عليه وجوه أهل بجاية، وقد تنصلوا من أشرارها وأخبروه بقرارهم فعزل عنها قائدها أبا علي منصور المزوار، وعقد عليها لولده أبي فارس عبد العزيز وصرفه إليها في تاسع عشر جمادى الآخرة عام تسعة وخمسين المذكور،

وانصرف بمحلته قافلاً إلى الحضرة وعقد في طريقه للقائد فارح صاحب قسنطينة على بسكرة وتقرت وأضافهما إلى قسنطينة.

وفي عشية يوم الإثنين خامس ذي القعدة من عام ثمانية وخمسين توفي بتونس الفقيه القاضي أبو عبد الله محمد البحيري ودفن من الغد بالجلاز، وفي ربيع الأول من العام المذكور توفي المولى المسعود أخو السلطان لأبيه بمرض أصابه في المحلة في الجداري، وحمل من الغد إلى تونس فدفن بها، وفي أوائل رجب من العام المذكور قبض على أولاد الأمير أبي الحسن وثقفوا بالقصبة.

وفي يوم السبت خامس عشر رجب من العام المذكور بعث السلطان مزوارة سعيد الزريزر، لقاضي الجماعة الشيخ أبي العباس أحمد القلجاني بتونس، فخيره بأن يتولى خطابة جامع الزيتونة والفتيا به بعد صلاة الجمعة فوض الشيخ البحيري، ويترك القضاء أن يبقى على خطيئة خاصة فاستخار الله في ذلك، وكتب براءة بخطه في السابع والعشرين من رجب باختيار الخطابة والفتيا، واستعفائه عن قضاء الجماعة فأعفاه وكتب له بذلك في أوائل شعبان، وكتب له المدرسة الشماعية بعد أن بقي يحكم بين الناس بتونس في قضاء الأنكحة مع قضاء الجماعة من وقت استعفائه وذلك أزيد من ثمانية أشهر.

وفي التاسع والعشرين من رجب المذكور أبو السلطان الشيخ الفقيه أبا عبد الله محمد ابن الفقيه أبي حفص عمر القلجاني بالجلوس بمجنبة الهلال من جامع الزيتونة لثبوت عقد هلال شعبان على عادة قضاء الجماعة، ففعل وكتب له بقضاء الجماعة والخطابة بجامع التوفيق في غرة شعبان المذكور، ثم في تاسع شعبان كتب له بالفتيا بالقلم بجامع التوفيق بعد صلاة الجمعة، وفي غرة شعبان المذكور قدم الفقيه أحمد القسنطيني قاضياً بأنكحة تونس ومدرساً بالمتصرية التي بسوق الفلقة، وفي الخامس منه قدم الفقيه أبو عبد الله محمد بن عصفور ناظراً في الأحباس بتونس، ثم أضيف إليه بعد ذلك النظر في المحاسبة بالحضرة.

وفي يوم السبت سابع عشر شعبان المذكور توفي المزوار بتونس سعيد الزريزر، ودفن من الغد مجاوراً دار الولي سيدي محرز بن خلف وحضر لدفنه السلطان وخواصه، وقدم بعده أبو

علي منصور المزوار، وفي ثاني ربيع الأول من عام ستين توفي الشيخ الحاج أبو إسحق إبراهيم السليماني، ودفن بإزاء الشيخ الصالح أبي يحيى زكريا وحضر لدفنه الخليفة وأهل دولته وحضرته، وفي جمادى الآخرة خرج الفقيه أحمد البنزرتي بهدية لصاحب فاس صحبة رسوله ابن سمعون، وفي حادي عشر رجب من العام المذكور توفي بتونس أبو الهادي أخو السلطان لأبيه بمرض أصابه ودفن من الغد بإزاء دار الولي سيدي محرز بن خلف.

وفي أوائل شهر رجب ظهر بتونس النجم المسمى بأبي الذوائب في الجهة الشرقية قبل طلوع الفجر، وهو نجم له عمود نور متصل به، ثم ظهر في آخر الشهر بعد غروب الشمس في الجهة الغربية قال صاحب عجائب المخلوقات: ظهوره يدل على أمر سماوي يقع فوقع بتونس في الشهر المذكور، ريح قلع كثيراً من شجر الغابة، ثم وقع في أواسط شوال مطر ببَرَد قدر بيضة الدجاجة وأكبر من ذلك.

وفي حادي عشر المحرم من سنة إحدى وستين وثمانمئة خرج المولى السلطان مسافراً بجيوشه إلى بلد طرابلس، وبعث شيخ دولته الشيخ محمد بن أبي هلال صحبة القائد رضوان لعزل قائد البلد القائد ظافر وتقديم رضوان ففعل، وقدم القائد ظافر بفعله وولده لحضرة تونس.

وفي ثامن عشر من المحرم من العام المذكور توفي الشيخ أبو الحسن الجباس أمام جامع الزيتونة وقدم عوضه خطيباً بجامع أبي محمد، والفتيا به قاضي الأنكحة الفقيه أبو العباس أحمد القسنطيني، ولما قفل المولى السلطان إلى الحضرة صرف الفقيه محمد بن عصفور عن النظر في الأحباس وفي بيت الحساب، وقدم الفقيه محمد البيدموري ناظراً في الأحباس وعلي بن عباس في بيت الحساب.

وفي أوائل صفر عام اثنين وستين قدم لتونس الفقيه أحمد البنزرتي من مدينة فاس وقدم معه رسولان بهديتين إحداهما من قبل صاحب فاس السلطان عبد الحق المريني، والآخرة من قبل صاحب تلمسان أحمد بن حمو الزناتي، فأنزلا في دارين عظيمتين وأجريت لهما الأرزاق إلى أن قدم مولانا فأدخلا عليه ومع كل واحد هديته فأكرمها.

وفي صفر من العام المذكور توفي بتونس محمد بن عصفور بمرض أصابه، وفي أوائل العام المذكور أصاب الناس بتونس غلاء في الطعام بلغ قفيز القمح أربعة دنانير ذهباً، والشعير على الشطر من ذلك فشكى الناس قلة الطعام وغلاءه للسلطان، فأمر بأن يخرج من المخزن في كل يوم ما يصنع منه ألف خبزة، وتفرق على الفقراء بتونس بباب ينتجمّي فبدئ بتفريقها في ثالث ربيع الثاني ودام إلى رجب حتى كثر الطعام الجديد ورخص ثمنه.

وفي أواخر ذي القعدة من العام المذكور بعث السلطان هديتين إحداهما لصاحب فاس والأخرى لصاحب تلمسان بصحبة رسولها، ووجه مع هدية تلمسان رسولاً من قبله إبراهيم بن نصر بن غالية، وفي ثاني عشر ذي الحجة من العام المذكور خرج السلطان في محلته وانتهى إلى تاورغه وقفل راجعاً، وعقد في رجوعه على طرابلس للقائد أبي النصر بن جاء الخير وصوفه إليها فدخلها في ربيع الثاني من عام ثلاثة وستين، وفي أواسط رجب من العام المذكور بلغ الخبر أن المولى عبد العزيز نازل محمد بن صخر هزيمة لطلب النجاة.

وفي يوم الأحد عند غروب الشمس منه ثامن شعبان من العام المذكور توفي بتونس الشيخ الفقيه المفتي أبو العباس أحمد القلداني، وصلي عليه من الغد بجامع الزيتونة بعد صلاة الظهر ودفن بالجلاز، وحضر لدفنه السلطان ووجوه أهل دولته كان عمره أربعاً وثمانين سنة، وفي تاسع عشر شعبان خرج السلطان بمحله ونزل الزهرية وبعث في تلك الليلة بإيقاف الفقيه أحمد القسنطيني من جميع خططه من قضاء الأنكحة والخطابة والفتيا والدعاء، عقب ختم البخاري بالمضرب السعيد على عادة قضاة الأنكحة.

وفي صبح تلك الليلة قدم الفقيه الإمام أحمد بن عمر المسراتي خطيباً بجامع الزيتونة، وقدم قاضي الجماعة الفقيه محمد القلجاني خطيباً بجامع القصبة والفتيا بجامع الزيتونة بعد صلاة الجمعة، وقدم الفقيه محمد الزنديوي خطيباً بجامع التوفيق ومفتياً به ومدرساً بمدرسة الشماعين، وقدم الفقيه أبو عبد الله محمد الغافقي خطيباً بجامع باب الجزيرة ومفتياً به ومدرساً بمدرسة ابن تافراجين وعزل عن قسنطينة، وفي سادس عشر شعبان بعث من المحلة تقديم ثمانية عدول على يد قاضي الجماعة.

وفي أواخر شهر رمضان ورد الأمر بأن يخرج الفقيه محمد الجباس ليكتب له بقضاء قسنطينة، فخرج وكتب له بذلك وانصرف، وفي أوائل ذي الحجة من العام المذكور ورد الأمر من المحلة لقاضي الأنكحة برجوعه لجميع خططه، وفي ليلة السبت ثالث ربيع الأول من عام أربعة وستين توفي النائب بتونس الشيخ المعظم ابن أبي هلال شيخ الموحدين وحاجب الخلافة العثمانية ودفن بدار الولي سيدي محرز بن خلف.

ولما خرج السلطان من حضرته سار إلى وطن بجاية، فاجتمع مع ولد صاحبها المولى أبي فارس عبد العزيز، فأخبره بما وقع له مع محمد بن سعيد وبقراره بين يديه، فبعث لمحمد بن سعيد بالأمان صحبة ولده وولي عهده المولى المسعود، فقدم معه راغباً في الطاعة فأكرمه وأتى به وبجميع أهله إلى تونس فأسكن بها وأعطى ما يقوم به، ثم إن المولى السلطان تقل راجعاً إلى وطن قسنطينة فعزل القائد فارحاً، وقدّم القائد ظافر بن جاء الخير وصرفه إليها وقدم بين يديه مزواراً عوضه أبا إسحق إبراهيم بن أحمد الفتوحي في أول شوال.

وفي يوم الأحد ثاني عشر شوال من العام المذكور توفي قاضي الأنكحة بتونس الفقيه أحمد القسنطيني وسنه إحدى وأربعون سنة، وقدم بعده لقضاء الأنكحة الشيخ أبو عبد الله الزنديوي، وقدم بعده خطيباً بجامع أبي محمد من ربض باب السويقة ومفتياً به بعد صلاة الجمعة، ومدرساً بالمنتصرية وناظراً في الأحباس الفقيه أبو عبد الله محمد البيدموري، وفي يوم الأربعاء خامس جمادى الآخرة من عام خمسة وستين قتل الشيخ الصالح سيدي أحمد عسيلة بسبخة سيجوم، ودفن بالجلاز قتله الرياحي مختبل العقل وقتله العامة.

وفي شهر رجب من العام المذكور صرف الفقيه ابن أحمد بن كحيل عن قضاء المحلة والتدريس بزاوية باب البحر، وقدم عوضه فيهما الفقيه محمد الرصاع، وقدم هو عدلاً ومفتياً بالقلم، ثم توفي الفقيه أحمد بن كحيل المذكور آخر ذي الحجة من العام المذكور، وفي أواسط العام المذكور توفي بالقصبة القائد ظافر وقدم عوضه القائد رمضان الشارب، ثم صرف وقدم عرضه الحاج عبد الرحمن الفتوحي في أوائل من عام ستة وستين.

وفي ربيع الأول من العام المذكور ملك الأمير محمد بن محمد بن أبي ثابت مدينة تلمسان، وأخرج عنها صاحبها عم أبيه السلطان أبا العباس أحمد بن أبي حمو فنزل بالعباد، ثم صرف إلى الأندلس ولما سمع المولى السلطان بذلك جدد حركته من حضرته، وخرج بمحلته سابع شوال من عام ستة المذكور قاصداً تلمسان بجميع عرب إفريقية، فسار في جيوش عظيمة المدد مجهولة العدد إلى أن قرب من قسنطينة، فتوفي هناك شيخ الموحدين الشيخ أبو عبد الله محمد بن أبي هلال في ذي الحجة من العام المذكور، وحمل إلى حضرة تونس فدفن بدار الشيخ سيدي محرز بن خلف ليلة الحادي عشر من ذي الحجة.

ثم إن السلطان اجتاز في طريقه بقلعة حليمة إحدى قلاع جبل أوراس، فأحاط بها بجيوشه إلى أن أخذها قهراً وأرهقهم عسراً، ثم انصرف لجهة تلمسان ولما نزل بأرض بني راشد وبقي بينه وبين تلمسان نحو يومين، وفد عليه جميع عرب سويد بالأهل والولد وبنو يعقوب، والزواودة من بني عبد الواحد وبنو عامر راغبين في الطاعة، فتقبلهم وأحسن إليهم وفرق قواده في أرض تلمسان، ففزعت الرعايا وأتت بجبايات الأوطان وكان هذا في شهر نوفمبر العجمي، فأخذتهم فيه ثلوج من أوله إلى العذرين منه.

ثم عزم على الوصول إلى تلمسان فندم عليه الشيخ الورع الصالح أبو العباس أحمد بن الحسن، والفقيه العالم أبو عبد الله محمد ابن الشيخ الفقيه أبي القاسم العقباني، وأبو الحسن علي بن حمو بن أبي تاشفين خال الأمير محمد المذكور بعقد شهود على صاحب تلمسان بأن جميع ما يفعلونه جائز عليه فترامو على المولى السلطان في الكف عن البلد على أن يلتزم له بالبيعة عن صاحبها، ويدخل تحت طاعته ونظره، فقبل إنابتهم ولم يحرم إجابتهم، فعقدوا على أنفسهم عقداً بالبيعة، وانصرفوا إلى بلدهم.

وقفل السلطان راجعاً إلى جهة تونس يوم الأربعاء سابع عشر صفر من عام سبعة وستين، وعقد في طريقه على قسنطينة لحفيده أبي عبد الله محمد المنتصر ابن ولده ولي عهده المولى أبي عبد الله محمد المسعود، وصرفه إليها في ربيع الثاني من العام وجعل بين يديه مزواراً القائد أبا علي منصور الصبان وقائداً في البلد القائد بشيراً، وعزل القائد ظافر وصرف أيضاً في

طريقه محمد بن سعيد بن صخر إلى وطنه بجاية، ودخل الحضرة يوم الثلاثاء ثامن عشر جمادى الأولى من عام سبعة المذكور.

وثم أن المولى السلطان لما استقر بحضرته بعد وروده من تلمسان بلغه أن عرب إفريقية أولاد مسكين وأولاد يعقوب والمشانفة من أولاد مهلهل، ومن انضاف إليهم اجتمعوا وتعاقدوا عليه إن لم يسعفهم في عوائدهم بالسكة القديمة ولم يفِ لهم بها وبغير ذلك من المطالب ناجزوه الحرب وشنوا الغارات في جميع بلاده، فخرج بعساكره للقائهم في عاشر رجب من عام سبعة وستين المذكور، وبعث لجميع أوطانه فأتته العساكر وقصد نحوهم، فأفرجوا بين يديه.

وعقد على مشيخة أولاد يعقوب للحاج محمد بن سعيد عوضاً عن ابن أخيه سمير البعبو، وعلى مشيخة أولاد يحيى للحاج جديد عوضاً عن ابن أخيه سمير البعير، وعلى مشيخة أولاد يحيى للحاج جديد عوضاً عن أخيه إسماعيل، ولطاهر بن رحيم عوضاً عن فارس بن علي من أولاد سلطان، ولمالك بن منصور عوضاً عن علي بن علي الشيعي، ولقاسم بن طالب العوني عوضاً عن يحيى بن طالب، فجعل على كل طائفة ممن خلافه رجلاً منهم، إما أخاً للشيخ أو عماً أو ابن عم.

وأخذ أولادهم مرامين وبعثهم إلى الحضرة، وأنزلوا بدار قرب القصبة وأجريت عليهم النفقات، وسار بالشيوخ الذين عقد لهم في طلب المخالفين إلى أن وصل إلى بلد نفطة، وألجأهم إلى دخول الصحراء في زمن القيظ الشديد، وكانت صائفة شديدة الحر جداً فهامت إبلهم، وصارت تنفلت وتجيء للموارد حيث كانت، ومن شدة حر هذه الصيفية ولهيبها أن النعام كان يرد شريعة بياش بقفصة، ويصطاده الناس هنالك إلى أن هلكت إبلهم ونساؤهم وأولادهم جوعاً وعطشاً وحريقاً في الصحراء، فرأوا أن لابد لهم من الإياب والوفود على أمير المؤمنين.

فوفدوا عليه واحداً بعد واحد طالبين عفوه فعفا عنهم على أن ليس لهم في المشيخة شيء وإنما هي لمن عقد له، ورجع السلطان بعد أن دخل نقطة وارتاح بها وكذلك توزر، ودخل

قفصة وارتاح بها هو وجيشه ودخل القصبة وتعدى بها مع بعض خواصه والقائد منصور قائدها، وطاف بين يديه يهنته ويتلطف له ويتعطف وهو يبتسم له، ودخل أيضاً المولى الأمير المسعود وتعدى بالسلام الفوقاني الشارف على الرحبة، والقائد علي بين يديه، وكان يوماً عظيماً راحة وهناء، وكل أمير في بستان متنزهاً وكذلك القواد وغيرهم كل منهم في مكان على قدره، وبعد راحته بها أياماً زحف إلى حضرته ظافراً مسروراً منصوراً وكذلك جميع المسلمين.

ولما قرب منها أمر بالقبض على المشايخ، فقبض على محمد بن سعيد وسمير بن عبيد النبي وفارس بن علي بن رحيم ونصر الزوادي وإسماعيل بن ضراري، هؤلاء كبراؤهم بعد الاحتيال عليهم ونصب شبكة الخداع إليهم، حتى دخلوا وسط المحلة وأعطى كل شيخ منهم تطميناً لهم ألف دينار ذهباً، فبذلك اطمأنوا وباتوا عند قواده فأصبحوا وبأرجلهم الأساورة وهم مصفَّدون، وكما تدينوا تدانوا وكفى الله المؤمنين شرهم، وقبض أيضاً على بقية المشايخ وقيدوا جميعاً، وأدخلوا لتونس ركوباً على بغال، وكان يوم دخولهم يوماً كبيراً وسلموا من العامة وأخذوا القصبة، واعتقلوا بها ودخل السلطان حضرته في ثامن عشر ذي القعدة من العام المذكور.

وفي أواخر شهر رمضان من عام سبعة توفي مفتي بجاية، وعالمها الشيخ الفقيه أبو عبد الله محمد المشدالي، وفي أوائل المحرم فاتح عام ثمانية وستين قدم الفقيه الكاتب أبو عبد الله محمد المسلاتي ناظراً في بيت الحساب عوض الفقيه علي بن عباس من صرف في أواخر شهر رمضان من العام عينه، وقدم الفقيه محمد بن الكماد بها وبدار الأشغال وبدار المختص إبراهيم بن عصفور.

وفي أواسط المحرم المذكور مرض السلطان مرضاً قوياً أشرف منه وفرج الله عنه، وفي العشرين منه خرج أحمد البنزرتي رسولاً إلى الأندلس فأدى رسالته ورجع إلى تونس في شعبان من عامه، وقدم معه بهدية من قبل صاحب الأندلس من جملتها الختمة العظيمة الشأن التي هي الآن بالجامع الأعظم، يقرأ منها فيه كل يوم عند التوابيت، وفي ثاني صفر من العام

المذكور توفي بتونس الشيخ الولي الصالح أبو العباس أحمد بن عروس، ودفن بزاويته حيث كان استقراره قرب جامع الزيتونة وكان له مشهد عظيم حضره أولاد الخليفة كلهم.

وفي أواخر جمادى الآخرة من العام المذكور وردت لتونس هدية صاحب تلمسان، السلطان محمد بن ثابت صحبة قاضيه الفقيه محمد بن أحمد العقباني، وصحبه رجل من بني عمه، وصادف ذلك من الخليفة في أنه من مرضه وزينت الأسواق كلها بتونس وكان فرحاً كثيراً، وفي أواسط العام المذكور قدم القائد ظافر بن جاء الخير قائد الحضرة بتونس ونائباً بها قد غيبة الخليفة، كما كان الشيخ ابن أبي هلال.

وفي شعبان من العام المذكور أطلق الخليفة محمد بن سعيد المسكين بعد إعطائه العهود والمواثيق بأنه لا يخالف على السلطان بوجه ولا يدخل في رأي الأعراب، وفي ذي القعدة بعث الخليفة مدية لصاحب تلمسان مكافأة لهديته صحبة أصحابه الذين قدموا بها وبعث معهم محمد بن فرج العربي، وفي أواخر الشهر المذكور أمر السلطان بعمل القلاع بجامع الزيتونة يوم الجمعة ليفي الناس من حر الشمس في زمن الصيف فعمل، وفي يوم الخميس التاسع عشر من ذي الحجة خرج الخليفة بمحلة وترك بتونس نائباً القائد ظافر.

وفي صفر من عام تسعة وستين توفي الشيخ المرابط أبو حفص عمر الدكداكي بتونس ودفن بجبل المرسى، وفي الثاني عشر صفر توفي الشيخ الصالح أبو العباس أحمد ابن الشيخ الصالح محمد بن أبي زيد بالمنستير ودفن بها، وفي أول عام تسعة المذكور أمر الخليفة بالقراءة بجامع الزيتونة قبل صلاة الصبح وقبل صلاة الظهر والعصر بالخدمة العظيمة الشأن المهدية من الأندلس كما تقدم، ورتب لذلك أربعة من القراء أصواتهم حسنة، وفي يوم السبت سادس عشر جمادى الآخرة دخل الخليفة تونس بمحلته بعد أن سار في بلاده وهدن أوطانها.

وفي أواخر شعبان من العام المذكور بلغ الخليفة أن نصر بن صولة أحد أشياخ الزواودة أوقع بالقائد منصور العميان مزوار قسنطينة، وأخذ بعض محلته فبعث السلطان ولده ولي عهد المولى أبا عبد الله محمد المسعود في عسكر عظيم فأتاهم على حين غفلة فأوقع بهم وقيعة

عظيمة، وأخذ إبلهم وفروا بين يديه طالبين نجاة أنفسهم، فأقام بقسنطينة شهر رمضان كله، ثم انصرف في شوال قافلاً إلى الحضرة منصوراً ظافراً، فدخلها يوم خميس ثامن عشر منه.

وفي سابع عشر من شهر رمضان من العام المذكور قام بمدينة فاس مزوار الشرفاء بها محمد بن علي بن عمران الإدريسي على السلطان عبد الحق ابن السلطان أبي سعيد المريني وملك البلد، وكان السلطان بمحلته خارج البلد، فلما سمع فرَّ عنه أصحابه ورجع هو إلى البلد في أناس قلائل، فقبض عليه وقتل صبراً وقتل من في البلد من اليهود، وقتل رئيس دولته هارون اليهودي، وسبب ذلك أنه كان في أيدي بني وطلس كالمحجور عليه، وهم يتولون أمور المملكة منذ سنين كثيرة، ثم إنه تحدث في الاستقلال ببني وطاس فأخذهم وأخذ أموالهم وفرَّ باقيهم.

واستقل بأمور مملكته وصار يباشر الأشياء بنفسه، ويسافر بمحلته وأوقف بين يديه في ذلك هارون اليهودي يتولى أمور المسلمين بفلس، ويحكم في المسلمين ويذلهم، فوقع ذلك في الناس موقعاً عظيماً على أن خرج السلطان بمحلته ليهدن أوطانه، وليضايق بني وطاس الذين أخذوا له طنجة وقلزا وغيرهما، فتحث الناس مع مزوار الشرفاء، وقاموا على ممن بفاس من اليهود فقتلوهم وتخوفوا من السلطان عبد الحق ومن هارون اليهودي رئيس دولته، فضبطوا البلد إلى أن قدم عبد الحق عقب تلك البيعة في قليل من الناس، فقبضوا عليه وعلى اليهودي وقتلوهما صبراً، وبويع الشريف على رضا من الناس واستقل بالخلافة وعادت الخلافة في فاس إدريسية كما كانت، وانقضت دولة بني مرين.

وفي ثاني عشرين من ذي الحجة من العام المذكور خرج السلطان بمحلته، وذلك في خامس عشر أغشت ونزل بالزعترية، وسار إلى بلاد ريغ وهدم سور بلد نقرت لأجل فساد أهلها ومخالفتهم لقواده وألزمهم مالاً عقوبة لهم فدفعوه، ثم سار إلى قرب وركلة فقدم فيها عاملاً وأخذ منها ومن بلد مزاب مالاً جليلاً، وانصرف قافلاً إلى حضرته فوفد عليه في أثناء قفوله حفيده الأمير المولى أبو عبد الله محمد المنتصر صاحب قسنطينة في أثناء قفوله حفيده الأمير المولى أبو عبد الله محمد المنتصر صاحب قسنطينة، فأكرم نزله وصرف من بين يديه

القائد المنصور الصيان لأجل ما وقع له مع الزواودة وأهل البلد، واستقل المولى المنتصر بولاية قسنطينة وانصرف إليها.

وفي أثناء قفول الخليفة من بلاد ريغ فرّ من المحلة محمد بن سعيد المسكيني، ولحق بطرود وطلب منهم إجازته فخشوا وامتنعوا من ذلك إلا طائفة يسيره منه أجاروه إلى أن لحق بمحمد بن سباع بن أبي يونس شيخ الزواودة فأجاره ومنعه ورجع الخليفة إلى بلده، فدخلها ثامن رجب من عام سبعين وثمانمئة، وفي أواخر ربيع الأول من عام سبعين توفي بقسنطينة قاضيها الفقيه الحباس ودفن بها، وقدم عوضه قاضياً الفقيه أبو عبد الله محمد العلوسي.

وفي أواسط العام المذكور وفد على أمير المؤمنين بتونس أعراب تلمسان من بني عامر وسويد وغيرهم، فعرفوه بسوء سيرة سلطانها ابن أبي ثابت الزناتي ونكثه للبيعة، وإخراج قائد ليانة من قبل الخليفة وبعثه لمحمد بن سباع ومحمد بن سعيد بالهدايا ليكونا له عوناً على الخليفة مهما قدم إلى تلك المدينة، وطلبوا منه الوصول إلى تلك البلاد فاستخار الله عز وجل ونصب لهم سلطاناً الأمير أبا جميل زيان ابن السلطان عبد الواحد بن أبي حمو الزناتي، وكتب له بذلك في أوائل شوال من العام المذكور، وأعطاه ما يحتاج إليه من الآلة والأخبية والجيش والأموال، وصرف صحبته قائداً على العسكر محمد بن فرح الجبائي، وجعل التدبير والرأي للشيخ الفقيه أحمد البنزرتي.

وكتب إلى المولى الأمير عبد العزيز ولده بأن يصحبه بمحلته إلى تلمسان بخلال ما يلحق، فخرج الأمير أبو زيان من تونس في شوال، ولحق ببجاية وخرج المولى السلطان على أثره عاشر ذي القعدة وسار بعسكره متوجهاً إلى المغرب، فنفر بين يديه محمد بن سباع وصاحب محمد بن سعيد، وممن انضاف إليهما ولحقا بالصحراء، واجتاز الخليفة بجبل أوراس فأخذ بعض القلاع الممتنعة به، واستباح أهل عسكره أموالهم، ثم سار في الصحراء إلى أوطان تلمسان، ووردت عليه بيعة المرية ومليانة وتنس.

ووفد عليه أعراب ذلك الوطن فأكرم نزلهم وأوفدهم وفرق قواده في الأوطان فأتت بالجبايات والضيافات، وقدم بين يديه عسكر الحصار للبلد فنزل العسكر بساحتها في ربيع

الآخر من عام أحد وسبعين، وخرج إليه خلق كثير من البلد خيلاً ورجلاً فقاتلوهم أشد قتال إلى المغرب، ومن الغد صبيحة يوم الخميس صبح الخليفة البلد بعساكره، ونزل بالمنصورة قرب البلد، وركب إلى البلد فقاتلها أشد قتال، وتحصنوا بالأسوار والمرابع والسهام، ثم قاتلهم أشد قتال، ثم أمر بهدم الأسوار وعاجلهم الليل قبل ملك البلد.

فرجعوا إلى محلتهم عازمين على أخذ البلد في صبيحة تلك الليلة، فأصابهم مطراً كثير، ففي صبيحة يوم السبت قدم الشيخ والقاضي وكبار البلد ورغبوا من السلطان العفو، وكتبوا البيعة وشهدوا فيها، وكتب فيها خطه ونصه شهد على نفسه عبد الله المتوكل عليه محمد لطف الله به ولا حول ولا قوة إلا بالله، وأعطى ابنته بكراً للمولى أبي زكريا يحيى ابن المولى المسعود دون خطبة، فقفل السلطان راجعاً إلى حضرة تونس في تاسع شعبان عام التاريخ.

وفي ذي القعدة عام اثنين وسبعين ابتدأ الوباء بتونس ولم يزل بتزايد إلى شوال من عام ثلاثة وسبعين حتى بلغ ألفاً كل يوم، ثم ارتفع في ذي الحجة مكمل العام، وفي الثامن والعشرين من صفر عام أربعة وسبعين دخل السلطان حضرته ونزل بسانية باردو، فكانت غيبته سنة واحدة وثلاثة أشهر، وفي خامس جمادى الأولى من العام المذكور توفي قاضي الأنكحة الفقيه محمد الزنديوي، ودفن بجبل المرسى جوار سيدي أبي صعيد وتولى بعده ولده الفقيه أبو الحسن جميع وظائفه.

وفي خامس عشر صفر عام خمسة وسبعين عزل الفقيه الزنديوي المذكور عن جميع الوظائف المذكورة فيه، وقدم عوضه الشيخ الفقيه أبو عبد الله محمد الرصاع، وتولى قضاء المحلة عوضاً عن الشيخ الرصاع الفقيه محمد القسنطيني، وفي ربيع الآخر من عام خمسة المذكور عزل الفقيه محمد البيدموري عن الأحباس بتونس، وقدم عوضه الفقيه أبو البركات بن عصفور، وفي رجب من العام المذكور مرض الشيخ القاضي أبو عبد الله محمد القلجاني، وقدّم السلطان أبا عبد الله محمد الحسني بالنيابة عنه في الأحكام في أواسط شهر رمضان.

وفي أواسط صفر من عام ستة وثمانين قدم الفقيه عبد الرحيم الحصيني نائباً عن قاضي الجماعة من سبب مكالمة وقعت بين النائب وولد القاضي أفضت إلى أن جلس كل واحد منهم

يحكم بين الناس فوقع الخلاف، وفي العام المذكور أخذ النصارى طنجة وأريلا من بلاد المغرب وملوكها، وفي يوم الجمعة سابع جمادى الأولى من عام تسعة وسبعين مات بتونس الشيخ الفقيه العالم الكبير أبو إسحق إبراهيم الأخضري ودفن بالجلاز، وفي أواسط العام المذكور فرغ البناء من السقاية الكائنة قرب الأسواق.

وفي أول عام أحد وثمانين ملك المسلمون مدينة سبتة من أيدي العدو على يد رجل شريف كان من عمارة، وفي أوائل ربيع الثاني من العام المذكور قدم الفقيه محمد البوني كاتب العلامة، وفي الشهر المذكور شرع في فسقية باب علاوة من تونس وجلب الماء إليها من عشيرة حمزة، وفي أواسط المحرم من عام اثنين وثمانين وثمانمئة، ورد على السلطان نصر بن صولة شيخ الزواودة طالباً للعفو فعفا عنه وأكرمه، وانصرف إلى أهله بعد الإحسان خديماً.

وبخط الناسخ ما نصه: انتهى ما وجد بخط المؤلف رحمه الله تعالى، وكان الفراغ من نسخه يوم الخميس ثامن عشر من شعبان الأكرم عام ستة وعشرين ومئة وألف.

ذيل لهذا التاريخ

يشتمل على أسماء ملوك الدولتين

مع تاريخ ولاية كل واحد منهم

وتاريخ وفاته وذكر بعض مآثرهم

الدولة الموحدية

نسب المهدي هو محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن هود بن خالد بن تمام بن عدنان بن شعبان بن صفوان بن جابر بن يحيى بن عطاء بن رباح بن محمد بن سليمان بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي يطالب رضي الله عنه وكرم وجهه، ولد بهرفة سنة إحدى وتسعين وأربعمئة، وبويع يوم الجمعة الرابع عشر من شهر رمضان عام خمسة عشر وخمسمئة، وتوفي ليلة الأربعاء الثالثة عشرة من شهر رمضان أيضاً من عام أربعة وعشرين وخمسمئة فكان ملكه تسعة أعوام غير ثلاثة أيام.

استخلف عبد المؤمن بن علي بن مخلوف بن يملا بن مروان بن نصر بن علي بن عامر ابن الأمير أبي موسى بن عبد بن يحيى بن روزايغ بن مظفور بن بنور بن مطماط بن هودج بن قيس بن عيلان بن مضر، توفي ليلة الخميس عاشر جمادى الآخرة من سنة ثمان وخمسين وخمسمئة، ودفن بتينمل بإزاء الإمام المهدي فكانت مدته ثلاثاً وثلاثين سنة وثمانية أشهر وخمسة عشر يوماً.

ثم بويع ولده أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن في جمادى الآخرة من سنة ثمان وخمسين وخمسمئة، وتوفي مجاهداً أصاب نشاب في جوفه يوم السبت الثامن عشر من ربيع الآخر سنة ثمانين وخمسمئة، ودفن برياض الفخ فكانت خلافته إحدى وعشرين سنة وعشرة أشهر وثمانية أيام.

فخلفه أبو يوسف يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي ازداد في العشر الأواخر من ذي الحجة سنة أربع وخمسين وخمسمئة، وبويع بالمحلة بعد وفاة والده يوم الأحد تاسع عشر ربيع الآخر سنة ثمانين، وتوفي ليلة الجمعة ثاني عشر ربيع الأول من سنة خمس

وتسعين وخمسمئة، ودفن بمجلس مكناه من مراكش، ثم نقل إلى تينمل وقيل غير هذا، فكانت خلافه أربعة عشر عاماً وأحد عشر شهراً وأربعة أيام.

ثم بويع لابنه أبي عبد الله محمد الناصر بن يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي، بويع يوم وفاة والده في ربيع الأول سنة خمس وتسعين وخمسمئة، وتوفي يوم الثلاثاء عاشر شعبان سنة عشر وستمئة، فكانت ولايته خمسة عشر عاماً وأربعة أشهر وتسعة عشر يوماً.

ثم بويع لأبي يعقوب يوسف المنتصر بن أبي عبد الله محمد بن يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي، بويع يوم وفاة أبه وسنه عشرة أعوام، وتوفي يوم السبت ثاني عشر ذي الحجة سنة عشرين وستمئة سنة وزيره أبو سعيد فكانت خلافته عشر سنين وأربعة أشهر ويومين.

أبو عبد الواحد المخلوع بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي، بويع بعد وفاة يوسف المنتصر، وخلع يوم السبت موفى عشرين شعبان من سنة إحدى وعشرين، فكانت خلافته ثمانية أشهر وتسعة أيام.

أبو محمد عبد الله العادل بن يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي، بعثت له البيعة بمرسية حين خلع الأمين عبد الواحد في يوم السبت موفي عشرين شعبان سنة أحد وعشرين، وقتل خنقاً ثاني عشرين شوال سنة أربع وعشرين وستمئة، فكانت خلافته ثلاثة أعوام وثمانية أشهر وعشرة أيام.

أبو يحيى زكريا المعتصم بن أبي عبد الله محمد بن يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي، بويع في شوال سنة أربع وعشرين بمراكش، ثم خلف من حينه وبعثت البيعة إلى المأمون بإشبيلية.

أبو العلاء إدريس المأمون بن يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي بويع في شوال سنة أربع وعشرين، وتوفي مسافراً يوم السبت عاشر ذي الحجة عام تسعة وعشرين وستمئة، فكانت خلافته من حين بويع بإشبيلية خمس سنين وثلاثة أشهر.

أبو محمد عبد الواحد الرشيد بن أبي العلاء إدريس بن يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي، بويع يوم موت أبيه، وتوفي غريقاً في بعض جوابي القصر يوم الجمعة عاشر جمادى الآخر من سنة أربعين وستمئة، فكانت خلافته عشر سنين وخمسة أشهر وعشرة أيام.

أبو الحسن علي السعيد بن أبي العلاء إدريس بن يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي، بويع يوم وفاة أخيه يوم الجمعة عاشر جمادى الآخرة من سنة أربعين وستمئة، وقتل السعيد وولده في معركة مع بني عبد الواد، ونهبوا محلته يوم الثلاثاء من سلخ صفر سنة ست وأربعين وستمئة فكانت خلافته خمسة أعوام وثمانية أشهر وعشرين يوماً.

أبو حفص عمر المرتضى بن أبي إبراهيم إسحق بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي، دخل مراكش بعد أن كتب له البيعة واستقدموه من سلا في جمادى الآخرة من سنة ست وأربعين، ودخل مراكش وبقي بها إلى أن أخرجوه منها يوم السبت ثاني عشر المحرم سنة خمس وستين وستمئة، فكانت ولايته تسعة عشر عاماً وأربعة أشهر وثمانية أيام ودخل مراكش.

أبو العلاء إدريس الواثق بن محمد بن عمر بن عبد المؤمن بن علي شهر بابي دبوس دخل مراكش يوم السبت الثاني والعشرين للمحرم من عام خمسة وستين وستمئة بعد خروج المرتضى منها، ثم قتل واحتز رأسه، وأخذ من بطنه بطينة مملوءة جوهراً وياقوتاً وزمرداً، وحملوا رأسه والبطينة إلى أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق المريني في يوم الجمعة عند غروب الشمس آخر يوم من ذي الحجة من سنة سبع وستين وستمئة، فكانت خلافته ستين وأحد عشر شهراً وثمانية أيام.

ولما بلغ خبر موته بايع الناس ولده عبد الواحد، وخطب له جمعة واحدة من المحرم فزحف إليه أبو يوسف هارباً هو وأخواته وبنو عمه وجميع الموحدين، فأخذهم النهب من ساعتهم من حين خرجوا من باب الكحل إلى أن وصلوا إلى الجبل، وكانت مدته سبعة أيام.

وانقضت دولة عبد المؤمن ودخل الأمير يعقوب بن عبد الحق مراكش في المحرم من سنة ثمان وستين وستمئة، فكانت الدولة المأمونية مئة سنة وأربعاً وأربعين سنة وأحد عشر شهراً وثلاثة وعشرين يوماً، والبقاء لله سبحانه وتعالى.

الدولة الحفصية

أولها الشيخ أبو محمد عبد الواحد ابن الشيخ أبي حفص عمر بن يحيى بن محمد بن وانودين بن علي بن أحمد بن زلال بن إدريس بن خالد بن إلياس بن عمر بن وافتو بن محمد بن نحية بن كعب بن سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه، لما عزم السلطان الناصر بن يعقوب المنصور على الانصراف من تونس بعد أن هدنها وأقام بها حولاً نظر أن يخلف عليها الشيخ عبد الواحد فامتنع فكلفه ذلك، وذلك في شهر رمضان سنة ثلاثة وستمئة وتوفي يوم الخميس غرة المحرم عام ثمانية عشر وستمئة بتونس ودفن بقصبتها بعد صلاة الصبح.

الأمير أبو زكريا يحيى ابن الشيخ أبي محمد عبد الواحد دخل تونس بعد أن قبض على أخيه الأمير عبد الله عبو يوم الأربعاء رابع عشر رجب من سنة خمس وعشرين وستمئة، ووجهه إلى المغرب في البحر وكتب الأمير أبو زكريا إلى جميع بلاد إفريقية بخلع أبي العلاء المأمون، وبقي يستبد في أمور أشغاله بالملك شيئاً فشيئاً إلى سنة أربع وثلاثين بعد أن بويع بتونس سنة سبع وعشرين، وكتب علامته بيده الشكر لله وحده.

توفي ليلة الجمعة ثاني عشر جمادى الآخرة من سنة سبع وأربعين وستمئة، بمحلته بظاهر بونة ودفن من الغد بجامع بونة، وكانت ولادته بمراكش سنة تسع وتسعين وخمسمئة، فكان عمره تسعاً وأربعين سنة وخلافته بتونس عشرين سنة وستة أشهر.

أبو عبد الله محمد المستنصر بن أبي زكريا يحيى ابن الشيخ أبي محمد عبد الواحد، بويع على بونة يوم وفاة أبيه وجدد بتونس يوم الثلاثاء ثالث رجب سنة سبع وأربعين وستمئة وهو ابن اثنتين وعشرين سنة، وتسمى أولاً بالأمير وفي سنة خمسين تسمى بأمير المؤمنين وتلقب بالمستنصر، وفي سنة ست وستين رفع الحنايا وأوصلها إلى أبي فهر، ومات يوم عيد الأضحى

من مرض متطاول عام خمسة وسبعين وستمئة، فكانت خلافته ثمانية وعشرين عاماً وخمسة أشهر واثني عشر يوماً، وفي السنة المذكورة توفي صاحب مصر الملك الظاهر.

أبو زكريا يحيى الواثق بن محمد بن يحيى ابن الشيخ أبي محمد عبد الواحد، ولد سنة سبع وأربعين وستمئة، وبويع ليلة موت أبيه، ثم خلع نفسه وبايع لعمه أبي إسحق، وذلك يوم الأحد ثالث ربيع الثاني عام ثمانية وسبعين وستمئة، فكانت خلافته سنتين وثلاثة أشهر واثنين وعشرين يوماً.

أبو إسحق إبراهيم بن يحيى ابن الشيخ أبي محمد عبد الواد، ولد سنة إحدى وثلاثين وستمئة، ودخل تونس يوم الثلاثاء خامس ربيع الآخر سنة ثمان وسبعين وستمئة، وجددت له البيعة وانتقل الواثق المخلوع إلى دار الغوري بالكتبيين، فسكن بها فبعد وشي به للسلطان أبي إسحق فطلعه هو وأبناؤه الفضل والطاهر والطيب، وذبح جميعهم ليلاً، وفي المحرم عام أحد وثمانين ظهر رجل عند ذباب تسمى بالفضل ابن السلطان الواثق بمقام فأطاعته جميع عرب إفريقية، فبعث إليه السلطان أبو إسحق ولده الأمير أبا يحيى، فبلغ قمودة فتسلل عنه الناس فرجع إلى تونس ووصل الدعي للقيروان.

فخرج السلطان أبو إسحق بجيش عظيم في شوال، فنهب بمنزل المحمدية فرجع إلى تونس فأخرج نساؤه وأولاده ذاهباً إلى قسنطينة، فأغلقت في وجهه فزاد إلى بجاية فمنعه ولده عبد العزيز الدخول إليها، فخلع نفسه لولده فكانت خلافته بتونس من خلع الواثق إلى فراره منها ثلاثة أعوام ونصف واثنين وعشرين يوماً، والله يقدر الليل والنهار.

أحمد بن مرزوق بن عمارة الدعي، ولد بمسيلة سنة اثنتين وأربعين وستمئة وتربّى ببجاية وفي يوم الثلاثاء ثاني جمادى الأولى من سنة ثلاث وثمانين وستمئة قتل الدعي قتله الأمير أبو حفص عمر ابن المولى السلطان أبي زكريا يحيى ابن الشيخ أبي محمد عبد الواحد، بويع له بتونس يوم الأربعاء خامس عشر ربيع الثاني من سنة ثلاث وثمانين وستمئة، وتوفي بمرض أصابه يوم الجمعة الرابع والعشرين من ذي الحجة سنة ثلاث وتسعين وستمئة، فكانت خلافته أحد عشر عاماً وثمانية أشهر غير يومين.

وتولى بعده السلطان أبو عبد الله محمد المستنصر ابن أبي زكريا يحيى بن محمد أبي زكريا يحيى بن الشيخ أبي محمد عبد الواحد المشهور بأبي عصيدة، بويع بتونس بإشارة الشيخ المرجاني في الثاني والعشرين من ذي الحجة عام ثلاثة وتسعين وستمئة، وتوفي بمرض الاستسقاء يوم الثلاثاء ثالث عشر ربيع الآخر سنة تسع وسبعمئة، ولم يخلف ابناً ذكراً فكانت خلافته أربعة عشر عاماً وثلاثة أشهر وسبعة عشر يوماً، وبويع بعده الشهيد.

السلطان أبو يحيى أبو بكر ابن عبد الرحمن ابن الأمير أبي يحيى أبي بكر ابن الأمير أبي زكريا يحيى ابن الشيخ أبي محمد عبد الواحد بويع له بتونس يوم وفاة السلطان أبي عصيدة يوم الثلاثاء عشار ربيع الآخر من سنة تسعو سبعمئة وضربت عنقه شهيداً يوم الجمعة في السابع والعشرين من الشهر المذكور فكانت ولايته بتونس ستة عشر يوماً.

السلطان أبو البقاء خالد بن أبي زكريا يحيى ابن الأمراء الراشدين، بويع بتونس يوم قتل الشهيد يوم الجمعة سابع عشر ربيع الآخر من سنة تسع وسبعمئة وتلقب بالناصر، ثم خلع نفسه لمرض كان به لا يقدر على الركوب، وتوفي قتيلاً بتونس في عام أحد عشر وسبعمئة، فكانت خلافته سنتين وثلاثة عشر يوماً.

الأمير أبو يحيى زكريا ابن الشيخ أبي العباس أحمد ابن الشيخ أبي عبد الله محمد اللحياني ابن الشيخ أبي حمد عبد الواحد، بويع له البيعة العامة بمنزل المحمدية يوم الأحد ثاني رجب من سنة إحدى عشرة وسبعمئة، ثم لما رأى اضطراب الأحوال وقيام العربان جمع الأموال وباع الذخائر التي بالقصبة حتى الكتب، وارتحل لقابس أول عام سبعة صفر وسبعمئة، وبايع الناس ولده الأمير محمد أبي ضربة بخارج تونس في أواسط شعبان من العام المذكور، فكانت الخطبة بينه وبين أبيه فكانت خلافته بتونس ستة أعوام وشهراً واحداً وأربعة أيام.

الأمير أبو عبد الله محمد المنتصر ابن الأمير زكريا ابن الشيخ أحمد اللحياني ابن الشيخ محمد اللحياني ابن الشيخ أبي محمد عبد الواحد، بويع بتونس بعد خروج والده منها لقابس في منتصف شعبان من عام سبعة عشر وسبعمئة، ثم إنه خرج في جيش للقاء الأمير أبي يحيى أبي

بكر فهزمه وهرب للمهدية، ثم أدرك وقتل في ربيع الآخر من سنة ثماني عشرة وسبعمئة فكانت خلافته بتونس سبعة أشهر وخمسة عشر يوماً.

الأمير أبو يحيى أبو بكر بن أبي زكريا يحيى ابن السلطان أبي إسحق إبراهيم ابن الأمير أبي زكريا يحيى ابن الشيخ أبي محمد عبد الواحد، ولد بقسنطينة في شعبان عام اثنين وتسعين وستمئة، وبويع له يوم الخميس سابع ربيع الآخر من عام ثمانية عشر وسبعمئة، وتكررت له البيعة بتونس سبع مرات الأخيرة منها بعد خروج الأمير عبد الواحد ابن السلطان أبي يحيى زكريا بن اللحياني أخي الأمير محمد أبي مصرية، وذلك في أيام عيد الفطر سنة اثنتين وثلاثين وسبعمئة، واستوطن تونس وشرفها بآثاره وحسن سيرته.

وفي ليلة الأربعاء الثانية من رجل سن سبع وأربعين وسبعمئة، توفي الملك أبو يحيى أبو بكر وعمره خمسة وخمسون عاماً غير شهر، وخلافته تسع وعشرون سنة وعشرة أشهر وخمسة وعشرون يوماً.

الأمير أبو حفص عمر ابن المولى أبي يحيى أبي بكر، بويع بالخلافة يوم وفاة والده يوم الأربعاء ثاني رجب عام سبعة وأربعين وسبعمئة، فلما بلغ الخبر أخاه أحمد ولي العهد وكان بقفصة رحل قاصداً تونس، واجتمع عليه أخواه عبد العزيز وخالد صاحب سوسة والمهدية وبايعاه، وكان السلطان عمر رحل بجيشه ونزل على باجة فصادف الأمير أحمد غرة، فنزل برأس الطابية وبايعه أهل تونس، وأطلق أخاه خالداً وتلقب بالمعتمد، فرحل عمر من باجة وصبح تونس يوم السبت سادس عشر شهر رمضان المذكور، وفرق خيله ورجله على أبواب المدينة وكسر الأقفال وفتحت له الأبواب، وقامت معه العامة فلم يجئ وقت الضحى إلا وقد استولى على جميع المدينة، وقتل أخاه أحمد ونصب رأسه على قناة.

فبلغ أبا الحسن المريني فعل السلطان في نقض عهد والده، وقتل إخوته فقصد تونس فوفد عليه عند قسنطينة عرب إفريقية كلهم، وهرب الأمير عمر فبعث خلفه فأدرك بقابس فقطع رأسه ورأس علجه ظافر، فكان مقتله يوم الأربعاء سابع عشر جمادى الأولى من عام

ثمانية وأربعين وسبعمئة، فكانت خلافته عشرة أشهر وخمسة وعشرين يوماً منها سبعة لأخيه أحمد.

وتملك تونس السلطان أبو الحسن بن أبي سعيد عثمان بن أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق المريني ثاني جمادى الآخرة من سنة ثمان وأربعين وسبعمئة، ودخلها معه الشيخ أبو محمد عبد الله بن تافراجين، ولما استوثق به ملك إفريقية منع العرب من البلاد التي ملكوها بالإقطاعات، فتفاوضوا بينهم في ولاية الأمير أحمد بن أبي دبوس.

ثم إن الأمير أبا الحسن نزل القيروان وحصر وفرَّ لسوسة، وركب البحر فوصل لتونس فحصره العرب، وأداروا على سور المدينة خندقاً، واستقدموا السلطان الفضل من بونة وانتقضوا على المريني، فخرج من تونس في البحر من أوائل شوال من عام خمسين وسبعمئة، وعقد لابنه الفضل على تونس فوصل الخبر إلى أبي العباس الفضل وهو بالجريد، فنزل على تونس محاصراً لها، وأخرج ابن المريني على الأمان ولحق بالجزائر بأبيه، فكانت مدة المريني بتونس سنتين وأربعة أشهر ويومين.

وتولى أبو العباس الفضل ابن السلطان أبي يحيى أبي بكر في التاسع والعشرين من ذي القعدة عام خمسين وسبعمئة، وتلقب بالمتوكل، ثم خلع بحيلة من الشيخ بن تافراجين وعمر بن حمزة من أولاد أبي الليل في حادي عشر جمادى الأولى سنة إحدى وخمسين وسبعمئة، فكانت مدته بتونس خمسة أشهر واثني عشر يوماً، ثم بويع بتونس لأخيه الأمير أبي إسحق إبراهيم ابن السلطان أبي يحيى أبي بكر على يد الحاج عبد الله بن تافراجين بعد القبض على أخيه الفضل، وهو يومئذ غلام مناهز.

وتوفي بليل فجأة السلطان إبراهيم في رجب من سنة سبعين وسبعمئة، فكانت خلافته ثمانية عشر عاماً وعشرة أشهر، ونصف شهر وبايع الناس ولده أبا البقاء خالد أخذ له البيعة على الناس علجه القائد منصور صبيحة موت أبيه، وسار سيرة رديئة، فخرج السلطان أبو العباس أحمد من بجاية محاصراً لتونس وهرب السلطان أبو البقاء خالد، فبعث في أثره وأخذ وبعث إلى قسنطينة في البحر فغرق، فكانت مدته بتونس سنة واحدة وتسعة أشهر ونصفاً.

وتولى أمير المؤمنين أبو العباس أحمد ابن الأمير أبي عبد الله محمد ابن السلطان أبي يحيى أبي بكر، بويع يوم القبض على الأمير خالد يوم السبت ثامن عشر ربيع الثاني عام اثنين وسبعين وسبعمئة، وكان حسن السيرة في البلاد والعباد، وتوفي يوم الأربعاء ثالث شعبان سنة ست وتسعين وسبعمئة، فكانت خلافته بتونس أربعة وعشرين عاماً وثلاثة أشهر ونصفاً.

وتولى السلطان أبو فارس عبد العزيز ابن السلطان أبي العباس أحمد تزايد بقسنطينة سنة ثلاث وستين وسبعمئة، وبويع له بتونس يوم وفاة والده على رضى من الناس يوم الأربعاء ثالث شعبان من سنة ست وتسعين صلحت به البلاد والعباد، وتولي يوم الأضحى من سنة سبع وثلاثين وثمانمئة فجأة بموضع يعرف بولجة السدرة، ونقل إلى تونس فدفن بإزاء قبر والده بالتربة المجاورة لقبر سيدي محرز، فكانت مدته بتونس وجميع إفريقية إحدى وأربعين سنة وأربعة أشهر وسبعة أيام.

وتولى بعده حفيده السلطان أبو عبد الله محمد المنتصر ابن الأمير أبي عبد الله محمد المنصور ابن السلطان أبي فارس بويع بالمحلة على رضا من الناس، وجددت له البيعة بتونس يوم عاشوراء من المحرم سنة ثماني وثلاثين وثمانمئة، ثم رحل لتهدين الأوطان فمرض في الطريق فبعث لشقيقه الأمير أبي عمرو عثمان فورد عليه من قسنطينة فعهد إليه، وتوفي ليلة الجمعة ثاني عشر صفر من عام تسعة وثلاثين وثمانمئة، فكانت مدته سنة واحدة وشهرين واثني عشر يوماً.

وتولى بعده السلطان أبو عمرو عثمان ابن الأمير أبي عبد الله محمد المنصور ابن الأمير أبي فارس عبد العزيز بن أبي العباس أحمد المذكور آنفاً، بويع بتونس يوم الجمعة ثاني عشر صفر من عام تسعة وثلاثين وثمانمئة وانصلحت به العباد والبلاد.

فهرسة الاماكن والاسماء والاعلام

الفهرس

تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية

tarikh alddawlatayn almuahhadiat walhafsia

muhammad bin 'iibrahim allwlwy
almaeruf bialzzarkshi rahimah alllah taealaa

ISBN 978-9933-543-21-1
9 789933 543211

تطلب في جمهورية العراق - بابل الحلة
المركز الثقافي للطباعة والنشر
C.C.P.P
Mob: 07801168410
Mob: 07721472444
E-mail:w_alsawaf@yahoo.com